

مجلة كلية الآداب

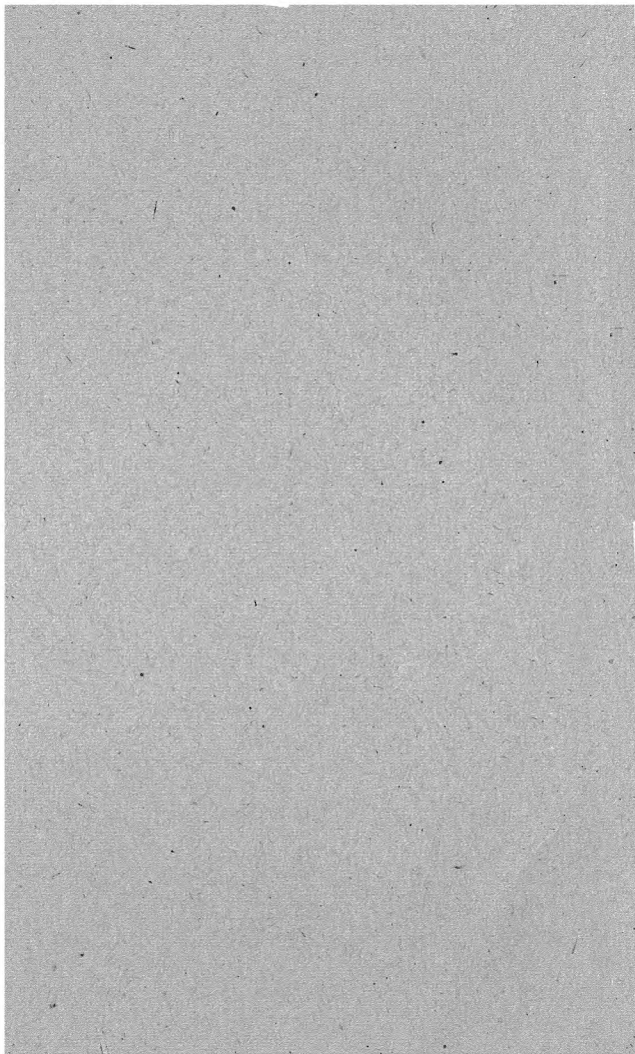


المجلد السابع والعشرون — الجزء الأول والثاني

مايو، ديسمبر ١٩٦٥

الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية
مطبعة جامعة القاهرة

١٩٦٩



مَجَلَّة كُلِّيَّةُ الْأَدَابِ



المجلد السابع والعشرون — الجزء الأول والثاني

مايو ، ديسمبر ١٩٦٥

الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية
مطبعة جامعة القاهرة

١٩٦٩

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٢ سنة ١٩٦٩

تصدر هذه المجلة مرتين كل سنة ، في مايو وديسمبر ، وتطلب من
مكتبة جامعة القاهرة بالجيزة ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية
العامة الى المشرف على تحريرها الأستاذ الدكتور عميد كلية الآداب
بجامعة القاهرة .

* يصدر هذا المجلد عن سنة ١٩٦٥ في عدد واحد بدلا من عديدين .

فهرس القسم العربى

صفحة

الأزمة المالية فى عهد الخديوى اسماعيل - اسبابها - تطوراتها - نتائجها ،	
للدكتور السيد رجب حراز	١
الاسلام واللغة العربية فى غرب افريقيا ، للدكتور على طرخان	٥١
قصة الطوفان فى آداب بلاد الرافدين ، للدكتور محمد عبد القادر محمد	٩٣
نصان جديدين من وثيقة الأمير صرغتمش ، للدكتور عبد اللطيف ابراهيم	١٢١
ماهية الانسان ومقوماته فى العقائد المصرية القديمة ، للدكتور	
عبد العزيز صالح	١٥٩
الجلوماتيقا ، للدكتور حسن على حسن الحلوه	١٩٩

الآزمة المالية في عهد الخديوى اسماعيل

أسبابها — تطوراتها — نتائجها

للدكتور السيد رجب حراز

« ان شخصية اسماعيل ، الخديوى الأول . تمثل احدى المسائل الجدلية المالية المثيرة في التاريخ . فبعد ثلاثة عشر عاما من توليه العرش ، ارتفع الدين القومى فى مصر من ٣٣٠٠٠٠٠٠ جنيه الى ٩١٠٠٠٠٠٠ جنيه . وفى سنة ١٨٧٦ أفلسَت مصر . وأصبحت ضحية سهلة للسيطرة الأجنبية . كل هذا القول حقيقة واقعة ، أما الباقي . الخاص بالأسباب والمسئوليات ، فإنه ضرب من التخمين وعرضة للجدل . وفى رأى كثير من المؤرخين أن اسماعيل كان دائما هو اسماعيل المبذر المرف ، رجل أخذ الحكم وبلاد غنية مزدهرة وتركها فقيرة مستعبدة ، رجل يسلوهُ الطيوح والاسراف الطائش ، لا يصلح لشيء الا السعى وراء ملذاته ، مبذراً حقيقى . وفى رأى مؤرخين آخرين ، فإنه اسماعيل العظيم ، رجل الدولة الذى يعرف طريقه ، ذو بصيرة واخلاص ، لم يكن يسعى الا الى سمادة وعظمة شعبه . فاذا كان قد اقترض ، فانما كان لأجل الأسباب : لمساعدة رعاياه فى مصائبهم ، لينبى مرافق عامة ، ليربط دولته بالخطوط الحديدية والسفن التجارية ، ليحول الاسكندرية والقاهرة الى عواصم صحية مريحة . واذا كان قد اقترض الكثير ، فإن ذلك يرجع الى أنه وقع تحت رحمة مجسوعة من اللصوص لا خلاق لهم » .

بهذه العبارات استهل دافيد لاندرز الفصل الخامس من كتابه « مصرفيون وباشوات » (١) ، ولخص فيها وجهتى نظر المؤرخين بصد اسماعيل

Landes, D: Bankers and Pachas. International Finance and (1)
Economic Imperialism in Egypt. London, 1958.

وقد ترجم الدكتور عبد المنعم أنيس هذا الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان : « بنوك وباشوات » .
القاهرة ١٩٦٦ . أنظر ص ١١٥ من الترجمة العربية .

والأزمة المالية المصيبة التي حلت بمصر في السنوات الأخيرة من حكمه ، والتي أثارَت خواطر الكتاب المعاصرين من أوروبيين ووطنيين .

والواقع أن الكتاب الأوروبيين المعاصرين قد حملوا اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) مسؤولية الأزمة ، بل مسؤولة كل شيء وقع في ولايته ، أو خديوته ، باعتبار أن شخصه كان المهيمن الأول على شئون الدولة تماما . ونحى غالبية الكتاب المصريين المعاصرين منحى الأوروبيين : ولو أن كتاباتهم كان يتخللها من جهة أخرى شعور واحد ، هو الألم من تغفل النفوذ الأوروبي في مرافق الدولة ، ثم انعدام الثقة بكل ما هو أجنبي (٦) بسبب الضنك الذي حل بالبلاد لتدخل المولين والحكومات الأجنبية في شئونها .

واستمرت كتابات العهد التالي لحكم اسماعيل تهاجمه بشدة وتحمل على سوء ادارته ، وكان أقساها : مؤلفا اللورد ملنر (٧) واللورد كرومر (٨) . وقبل أحكامهما غالبية المؤرخين المحدثين ، مع أنه كان قد انبرى للرد على اللورد كرومر الكاتب الروسى تيودور روزشتين (٩) . فضلا عن ذلك ، فقد حاول المؤرخون الالمان أن يسيطوا اللثام عن حقيقة العمليات المالية التي وقعت في عهد اسماعيل ، فاجتمعت كلمتهم على ادانة المولين الأجانب والمعاصرين الأوروبيين الذين أحاطوا باسماعيل ووضعوا أنفسهم في خدمته ، والذين تمكنوا من « تضليله رغم معرفته بالشئون المالية العامة » (١٠) . وهذا بينما كان هؤلاء الأجانب جماعة من المرايين الذين لا ضمير ولا خلاق لهم ، ولا يهمهم سوى

(٢) أنظر اسماعيل باشا سر هنك : حقائق الأخبار عن دول البحار . جزءان . القاهرة ١٣١٤ هـ ، محمود باشا فهمى : البحر الزاخر في تاريخ الأوائل والأواخر . القاهرة ١٣١٢ هـ .

Milner, A : England in Egypt. London, 1894. (٣)

Cromer, Earl of : Modern Egypt. 2 vols. London, 1908.. (٤)

Rothstein, T : Egypt's Ruin. A Financial and Administration Record. London, 1910. (٥)

وقد ترجم الأستاذان عبد الحميد العبادى ومحمد بدوان هذا الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان : « تاريخ المسألة المصرية ١٨٧٥ - ١٩١٠ » . الطبعة الأولى ١٩٢٣ ، ثم الطبعة الثانية ١٩٣٦

Lüttke, M : Aegyptens neue Zeit. Ein Beitrag zur Culturgeschichte (٦) des gegenwärtigen Jahrhunderts (1873), Bd. 2, S. 32.

اشباع بطونهم (٧) ، تساعدهم في ذلك الوقت سيطرة « المفتش » وزير مالية اسماعيل ، الذي صار يجلب اليه المال بكل الوسائل غير متورع في سبيل ذلك عن سلوك الطرق غير المشروعة : لكي يغم هو الآخر من وراء ذلك أسلaba كبيرة (٨) .

غير أنه لم يظن الى هذه الحقائق سوى النزر اليسير من الكتاب والمؤرخين المصريين ، فحدد الياس الأيوبي (١٩٢٣) مسئولية « المفتش » حيال الارتباك المالي الذي حدث في وقته (٩) . بينما حمل الدكتور محمد صبرى (١٩٣٣) على أفك وسوء نية الممولين والدائنين الأجانب أو على حد قوله : « النهب المنظم للخزانة على أيدي الأجانب » (١٠) pillage systematique du Tresor par les

étrangers . وذكر الأستاذ محمد رفعت (١٩٣٢) أن « السبب الوحيد » الذي من أجله قلبت أوروبا ظهر المجن لاسماعيل ، هو عجزه بعد عام ١٨٧٥ عندما « أصبح لا يسكنه أن يسل بطون الذين منوا أنفسهم بأن يثروا على حسابه » (١١) . ومع ذلك ، فلم تخل كتابات المؤلفين الآخرين من الإشارة الى اسراف اسماعيل وسوء ادارته ، بل ان الدكتور صبرى اعتبر بذخ الخديوى وتبذيره هو السبب الأول للارتباك المالي الذي أصاب مصر في عهده (١٢) ، وكذلك فعل الأستاذ عبد الرحمن الرافعى (١٩٣٢) (١٣) .

وتصدى بعض الكتاب والمؤرخين الأجانب للرد على هذا الاتهام . مثل القاضى الأمريكى كرابتيس (١٤) (١٩٣٣) الذى هاجم كتابات ملتر وكرومر ،

Kaufmann, W: Das Internationale Recht der aegyptischen (٧) Staatschuld (1891), S. 178.

Hron, K: Agypten und die Agyptische Frage (1895), S. 126 ; (٨) Fricks, Von : Agypten (1894), Bd. 1, S. 15.

(٩) انياس الأيوبي : تاريخ مصر في عهد الخديوى اسماعيل باشا ج ٢ ص ٣٥٨ وما بعدها .

Sabry, M: L'Empire Egyptien sous Ismail et L'Ingérence (١٠) Anglo-Française 1863—1879 (Paris 1933), p. 111.

(١١) محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة ج ٢ ص ١٠

Sabry, M: Op. cit, p. 108. (١٢)

(١٣) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ج ٢ ص ٢٨ وما بعدها .

Crabités, P: Ismail. The Maligned Khedive ... (1933), pp. 16— (١٤) 46, 119—154.

ثم المؤرخ الايطالى أنجلو ساماركو (١٥) (١٩٣٥) الذى تولى الرد على الكتاب
المصريين والأجانب معا ، واضعا نصب عينيه اقامة الدليل على أن اسراف اسماعيل
لم يكن هو سبب الارتباك الذى حل بمالية الدولة فى عهده .

ورغما عن ذلك ، فقد استمر الخلاف حول أسباب الارتباك المالى فى عهد
اسماعيل بين الكتاب الأجانب (١٦) والمصريين على السواء ، فيقول الأستاذ
صبحى وحيد (١٩٥٠) تعليقا على حفل افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ :
« ترجع فخامة هذا الافتتاح الى رغبة اسماعيل فى انتهاز فرصه والسير
بالأزمة التى كانت تقوم حينئذ بينه وبين الآستانة الى غايتها ، ولكنها لا شك
تصل أيضا ببمول الترف التى صحبت حكمه ، والتى أراد غالب مؤرخيه
أن يردوا اليها افلاسه (عبد الرحمن الرافعى ومحمد صبرى) وحاول الباقون
تفطيتها مستعينين بما عرف عنه فى شبابه من ميل للادخار أو ما قام به من
مشروعات عامة لم تكن كلها اسرافا (ساماركو وكراتيس) . والحقيقة عندنا
هى أنه بينما كان محمد على لا يريد من ألقاب الشرف غير اسمه ولا يصبو
الى منافسة السلطان الا فى سلطته ، كان أبناءه يريدون أن يكونوا ملوكا
ويتسكون بمظاهر الملك فى انتظار ذلك ويفعلون هذا بحماسة الملكيات الجديدة
وعلى سبيل الدعوة الداخلية والخارجية . وقد أنشأ عباس لنفسه قصورا وفرض
على رجاله أن يقيموا لأنفسهم مثلها . وأراد سعيد لنفسه بلاطا عصريا كبيرا
وحرسا ملكيا زاهيا . ودأب الاثنان على احاطة حركاتهما بأبهة مسرحية فاقعة ،
ولكنهما لم يتركا لاسماعيل شيئا يذكر خصوصا بالقياس الى ما كانت تصبو
اليه نفسه الطموح بطبيعتها . وهكذا اضطر اسماعيل أن يقيم ما تحتاج اليه
الأسرة الجديدة من قصور دفعة واحدة ، وأن يجمع بين ذلك وبين تجميل
عاصمته تجيلا حديثا ، وأن يفعل هذا فى الوقت الذى كان يسير أثناءه سياسته
المالية الانشائية سيرا سرما » (١٧) .

Sammarco, A : Les Règnes de Abbas, de Said et d'Ismaïl (Roma (١٥)
1935), pp. 169—240.

The Cambridge History of the British Empire, vol 3 (Cambridge (١٦)
1959), p. 107.

(١٧) صبحى وحيد : فى أصول المسألة المصرية (القاهرة ١٩٥٠) ص ١٦٢

أما الدكتور محمد فؤاد شكرى (١٩٥٢) فقد اعتمد على التقرير الذى بعث به القنصل الأمريكى فارمان Farman الى حكومته من القاهرة فى ٨ يوليو ١٨٧٩ ولخص فيه حكم اسماعيل وبين الأسباب التى أحدثت الأزمة المالية ثم أدت الى خلق الخديوى ، وذلك لاثبات أن سوء الادارة فى عهد اسماعيل لم يكن هو سبب الأزمة المالية ، فقال : « لم يذكر (التقرير) كلمة واحدة يمكن بها الاستدلال على أن اسراف اسماعيل - الذى تغالى الكثيرون فى اعتباره عاملا أساسيا - كان منشأ هذه الأزمة أو من العوامل التى ساعدت على استحكامها . بل ان فارمان كان صريحا فى قوله ان مغامرات المضاربين والمصرفيين الأجانب الذين طلبوا فوائد باهظة لديونهم كانت هى السبب الرئيسى فى حدوث الأزمة المالية » .

واستادا على تقرير فارمان كذلك ، اعتبر الدكتور شكرى مسألة اسراف اسماعيل وتبذيره من قبيل الأساطير المفرضة ، فيقول : « ان تشويه سمعة الحكم (أى حكم اسماعيل) على يد حكومة فرنسا وأصحاب الديون القرنسنيين وفريق من الدائنين الانجليز ، كان عملا المقصود به تسويق التدخل السياسى فى شئون مصر وخلق الخديوى . ولقد وجدت انجلترا عندما انتهى الأمر باحتلالها هى لهذه البلاد أن من صالحها أن تستمر هذه الحملة المشوهة لسمعة الخديويين ، ولاظهار عجز البلاد عن ادارة شئونها عموما ، وذلك لتبرير أو تسويق حادث الاحتلال البريطانى نفسه . وكان تشويه سمعة الحكم هذا على يد فرنسا فى أثناء الأزمة المالية ، واستمراره على يد الانجليز عقب الاحتلال البريطانى ، منشأ أسطورة الاسراف الذى أرغم الخديوية على الاستدانة واستتبع لزوما فى عرف هذه الأسطورة احتلالا أجنبيا للبلاد لاصلاح شئونها » (١٨) .

وعلى ذلك ، فالسؤال الذى يطرح نفسه هو : ما هى الأسباب التى أدت الى حدوث الارتباك المالى فى أواخر عهد الخديوى اسماعيل ؟

(١٨) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان . تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع

عشر (القاهرة ١٩٥٢) ص ١٩١ - ١٩٢

لقد جاء في التقرير المرفق بمشروع قانون المقابلة بتاريخ ٢٨ أغسطس عام ١٨٧١ أن « المجلس الخاص »^(١٩) يرى أن حالة مصر المالية لا توجب القلق مطلقا ، ولكنها تستلزم عناية سموكم (الخديوى) من جهة مراعاة رخاء البلاد في المستقبل . ومن المعلوم أن الأسباب التي أدت بالخزينة العامة الى شبه الضيق المالى هي : (أولا) العجز المتخلف من سعيد باشا (ثانيا) الاشتراك في انشاء القنال والمصاريف الباهظة التي جر اليها ذلك الاشتراك (ثالثا) الأموال الجزيلة المصروفة في سبيل مقاومة طاعون المواشي وملافاة مضاره (رابعا) الأشغال التي أجبرت لترقية شئون الزراعة والتجارة (خامسا) وأخيرا الأزمة القطنية المتسببة عن انتهاء الحرب الأمريكية ، فالبلاد لغاية الآن بفضل الرخاء المنتشر فيها وفلاحها تمكنت من القيام بمقتضيات العبء الثقيل الملقى على عاتق الخزينة . ولكن الفطنة تشير مع ذلك بالبحث عن دواء ناجح للمستقبل . غير أن الوصول الى اكتشاف الداء يستلزم معرفة الداء ، فأين هو الداء ؟ الداء في سعر الفوائد المرتفع التي تدفعها حكومة سموكم ، والتي تبلغ وحدها أكثر من نصف الإيرادات العمومية »^(٢٠) .

وفي الحقيقة يلخص هذا التقرير الأسباب الرئيسية التي أدت الى عقد القروض ، وهي الأموال التي أتفقت في ملافاة أثر الكوارث الطبيعية التي اجتاحت مصر في سنوات حكم اسماعيل الأول ، وما خلفه الوالى محمد سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣) من ديون ثابتة وسائرة^(٢١) ، ثم ما أتفقتة الحكومة المصرية على قساة السويس : ثمن أسهم وتكاليف حفر واقامة منشآت وتمويضات هدية بالغة « للشركة العالمية لقناة السويس البحرية » La Compagnie Universelle du

(١٩) Le Conseil Privé هو المجلس الذى كان يدعو الخديوى من النظار والباشوات لهنظر

في شئون الدولة العامة .

(٢٠) ورد نص هذا التقرير في إلياس الأيوبي : تاريخ مصر في عهد الخديوى اسماعيل باشا ج ٢

ص ٢٨٣ وما بعدها .

(٢١) الدين السائر Dette Flottante عبارة عن المبالغ المتبقية على الوالى والحكومة عند

العجز عن دفع كافة التفقات المتفق عليها مع الشركات والأفراد المختلفين للقيام بالأعمال والمشروعات

العامة . أما الدين الثابت Dette Consolidée فهو عبارة عن القروض التى أقرضها الوالى من

المصارف الأوروبية بضمان ثابت كدخول بعض المصالح الحكومية .

Canal Maritime de Suez • وهذا فضلا عن ملايين من الجنيهات خسرها الاقتصاد المصرى نتيجة للتعبة المدنية التى فرضت على الشعب المصرى من أجل انشاء القناة في وقت لاحق فيه للاقتصاد المصرى فرصة ذهبية نادرة بسبب قيام الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ - ١٨٦٥) وتعذر تصدير القطن الأمريكى الى انجلترا وفرنسا ، مما أوجد طلبا متزايدا من هاتين الدولتين للاقطان المصرية والهندية (٣) •

غير أنه كان الى جانب هذه الأسباب الثلاثة أسباب أخرى لا تقل عنها في الأهمية ، ذكر التقرير المتقدم أحدها ، وهو « سعر الفوائد المرتفع » • فقد جاء في تقرير ستيفن كيث Stephen Cave المشهور عام ١٨٧٦ أن التكاليف الحقيقية لكل قرض مصرى لم تقل عن ١٢٪/ ومنها ما بلغت ٢٦٫٩٪/ كما حدث في قرض السكة الحديد عام ١٨٦٦ (٣) • وفى كتابه عن « القانون الدولى ودين الدولة المصرية » يقول المؤرخ الألماني كاوفمان : « لقد بلغ من جشع رجال الأعمال والممولين الأوروبيين أنهم لما رأوا حاجة اسماعيل الى عقد القروض لاتمام مشاريعه ، كانوا يستغلون ضعفه المالى بشكل مستبشع ، فكانوا يفرضون عليه شروطا مالية لو جرؤ فرد منهم على استعمالها فى أوروبا لكان جزؤه السجن من قضاة المحاكم فيها » (٣١) •

(٢٢) أدى قيام الحرب الأهلية الأمريكية عام ١٨٦١ إلى حدوث أزمة أو مجاعة قطنية في كل من انجلترا وفرنسا . وكانت آثارها أشد وطأة في انجلترا . حيث توقفت عن العمل كثير من مصانع الغزل والنسيج ، وبلغ عدد العمال المتعطلين أكثر من ٥٠٠.٠٠٠ عامل . ولملافة الأنبياء التام في صناعات الغزل والنسيج ، أقبل أصحاب المصانع الانجليز والفرنسيين على استيراد الاقطان المصرية والهندية ، كما قدم أصحاب المصانع الانجليز عروضاً مغرية للتوسع في زراعة القطن في مصر ، وأبوا استعدادهم لشراء جميع الاقطان التى تزرعها مصر بأسعار مجزية للغاية . ولكن أعباء السخرة في حفر القناة أعقلت إلى حد كبير انتاج القطن في أواخر عهد سميده وأوائل عهد اسماعيل ، كما حرمت البلاد من الانتفاع بالارتفاع الجنونى في أسعار القطن . أنظر عبد العزيز الشناوى : « ما تكلفته مصر في إنشاء قناة السويس » المجلد التاريخى المصرية . المجلد السادس سنة ١٩٥٧ ص ١٤٤ - ١٤٥ وكذلك

The New Cambridge Modern History, vol X (Cambridge 1960), p. 638.

McCoan, J. C : Egypt as it is (London 1877), Appendix G, Mr. (٢٢)
Cave's Report on the Financial Condition of Egypt, pp 384—402.

Kaufmann, W: Das Internationale Recht der ägyptischen (٢٤)
Staatschuld, S. 178.

ويتساءل بهذا الصدد كذلك الأستاذ عزيز خافكى : « ما قولك دام فضلك
 فى دائن يقرض مدينه ٤٧٤٥ جنيها ويستكبه سندا بمبلغ ٦٨٤٩ جنيها ، أى
 بزيادة ٢١٠٤ جنيها على الأصل . ولا يكتفى بذلك بل يشرط لنفسه علاوة على
 هذه الزيادة الفاحشة فوائد ربوية فاحشة ؟ البداة تنطق فى الحال بأن العملية
 عملية باطلة بطلانا جوهريا لا بتناؤها على الربا الفاحش وعلى ما فيها من غبن وغش
 وتدليس واكراه . اعلم أن هذا ما حصل تماما لمصر فى عهد سعيد وفى عهد
 اسماعيل . أقرض رجال المال فى أوروبا سعيد واسماعيل ١٤٠ر٥٢ر٤٧ر٤٧ جنيها،
 واستكتبوهما سندات بمبلغ ١٦٠ر٩٧ر٦٨ر٦٨ جنيها ، أى بزيادة ٢٠ر٥٢ر٢١٠
 جنيها على الأصل ، واستباحوا لأنفسهم فوق ذلك اقتضاء فوائد ربوية فاحشة
 على الأصل وعلى الاضافة الوهمية (التى لم تدفع) تتراوح بين ٧ و ٩ و ١٢
 و ١٤ و ١٨ فى المائة . هل رأيت أو سمعت أن دائنا يضيف ٣٠ر٧٣ فى المائة من
 أصل دينه الى أصل دينه ، ثم يأخذ على ما دفعه وعلى ما لم يدفعه فوائد ربوية
 فاحشة تتراوح بين ٧ فى المائة و ١٨ فى المائة . لأن النسبة المئوية بين ما قبضه
 سعيد واسماعيل وقدره ١٤٠ر٥٢ر٤٧ر٤٧ جنيها وما تمهدا بدفعه وقدره
 ١٦٠ر٩٧ر٦٨ر٦٨ جنيها تبلغ ٢٧ر٦٩ والباقي وقدره ٣٠ر٧٣ من مائة ، هى نسبة ما علاه
 الدائن على أصل الدين وسماه فرق سعر الاصدار وعمولة وسسرة . لعل
 التاريخ لم يرو عملية قرض تجت فيها شراة الدائن وفضاعة الربا مثل العمليات
 التى أحاطت بالقروض التى اقترضها سعيد واسماعيل » (٢٥) .

على أن هناك أسبابا لم يشر اليها التقرير السالف الذكر ، وهى أسباب تتصل
 بطبيعة شخصية اسماعيل المتناقضة . فمع أنه ظل حتى نهاية أيامه بخيلا مقترنا
 فى تفقات بيته الخاص ويتشاجر مع بستانيه على أمور تافهة ويرفض دفع بقشيش
 لخدمه فى أحد فنادق باريس ، إلا أنه كحاكم كان متلافا للمال لا يميز بين الجنيھات
 والمليمات (٢٦) ، كما كان محبا للظهور والتمتع بملذات الحياة الى أقصى حد ،

(٢٥) عزيز خافكى : « ديون مصر أمام المحاكم المختلطة » . الأهرام ١٠ - ١٢ - ١٩٣٥

(٢٦) دافيد لانفر : بنوك وباشوات ص ١٢٠ . ويقول أحمد شفيق باشا : « من سوء الطالع أن
 اسماعيل كان آية فى الاسراف ، ييذر المال بغير حساب ويمشق البذخ الطائل . فلقد تأفق ما شاء فى زينة
 الملك وزخرفه ، وأكثر من تشييد القصور وملاها بأسرار الجوارى الحسان وأجرل الطايا والمهبات .
 فكان ثالث ثلاثة من ذوى الفخامو العظمة والأبهة والاسراف : هم السلطان عبد العزيز والامير اطور =

خائناً قصراً بالجيزة (مكانه الآن حديقة الحيوان) لمجرد المتعة كلف الدولة ٣٠ مليون فرنك وقصراً آخر على ضفاف البسفور لينزل به عند زيارته القسطنطينية. وفضلاً عن ذلك، فقد كان اسماعيل يسعى لتكون أرستقراطية مصرية يرثي بها بلاطه (٢٧)، فأكثر من اهداء الأراضي الواسعة الخصبة لرجال حاشيته وزوجهم من جواريه وحباهم بالأموال الكثيرة والعلى الثمينة .

ثم كانت هناك أسباب أخرى تتصل بسياسة اسماعيل الإفريقية وسعيه لدولة المصرية الى حدودها الطبيعية كما كان يراها، أى من سواحل البحر المتوسط شمالاً الى خط الاستواء ومناهب النيل جنوباً ومن سواحل البحر الأحمر شرقاً الى المحيط الهندي ومنه الى وسط القارة حتى البحيرات الاستوائية (٢٨)، فضلاً عن رغبته في إلغاء الرق ومكافحة تجارة الرقيق في السودان والأقاليم الاستوائية وإحلال تجارة مشروعة محلها (٢٩) واستكشاف نهر النيل وفتحته للملاحة من عند كوررو الى البحيرات الاستوائية (٣٠) . ولاشك أن هذه السياسة قد كلفت مصر نفقات طائلة . وقد اعترف اسماعيل للقنصل البريطاني ستاتون بأنه أنفق حتى مطلع عام ١٨٧٦ ثيافاً ومليوناً من الجنيهات

= نابليون الثالث واسماعيل خديوى مصر «أنظر : مذكراتى في نصف قرن ج ١ (القاهرة ١٩٣٤) ص ٢٤ . ويرى دونالد بليس أن اسماعيل كان أكثر اسرافاً وتبذيراً من باي تونس (محمد الصادق) الذى انتهى به الأمر إلى التوقيع على معاهدة باردو في ١٢ مايو ١٨٨١ التى اعترفت تونس فيها باخماية أفرنسية عليها . أنظر

Blaisdell, D. C : *European Financial Control in the Ottoman Empire* (1929), pp. 23-4.

(٢٧) صبحى وحيد : في أصول المسألة المصرية ص ١٦٣

(٢٨) محمد صبرى : مصر في إفريقيا الشرقية (القاهرة ١٩٤٧ ص ١٣ - ١٤ ، وكذلك

Sabry, M : *Op. cit.*, pp. 375-562.

Shukry, M. F : *The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan* (٢٩) 1863-1879, Cairo 1937 ; Sandwitch, M. F : «Egypt and Egyptian Sudan 1841-1907», Cambridge Modern History, vol XII, pp. 429-456.

Hill, R : *Egypt in the Sudan 1820-1881* (Oxford 1959) ; War (٣٠) Office, Bureau of the General Staff, Cairo : *Summary of Geographical and Scientific Results accomplished by Expeditions made by the Government of the Khedive of Egypt during the three years 1874-5-6* (Proc. Royal Geog. Soc. vol XXI. London 1877, pp. 63-6.

الانجليزية في محاولة فتح الأقاليم الاستوائية في افريقية الوسطى للتجارة والحضارة (٣١) .

وعلاوة على ذلك كله ، فهناك أسباب تتصل برغبة اسماعيل في توسيع الاستقلال الداخلى لمصر . قضى سبيل التخلص من قيود معاهدة لندن عام ١٨٤٠ وفرمان ١٨٤١ والتوسع في حقوق الباشوية المصرية ، اتباع اسماعيل سياسة ارضاء السلطان العثماني ورجال حاشيته بإرضائهم واغداق الأموال والهدايا عليهم . ومن ثم ، فقد صدرت ابتداء من عام ١٨٦٦ عدة فرامات ، كان آخرها فرمان الشامل الجامع في عام ١٨٧٣ ، الذي حوى كل الامتيازات التي حصلت عليها الخديوية المصرية من قبل ، وأطلق يد الخديوى في جميع شئون مصر (٣٢) . وبهذا فرمان استحال دفعة واحدة ما كان من قبل دينا شخصيا على الخديوى الى دين على الحكومة المصرية .

تلك هى الأسباب التي أدت الى الارتباك المالى في أواخر عهد اسماعيل . وفي رأينا أن السبب الأكبر والمباشر لذلك الارتباك هو جشع الدائنين والمولين ورجال الأعمال الأجانب وعمليات النهب والقرصنة التي استنزفوا عن طريقها موارد الخزانة المصرية (٣٣) ، ثم يأتي بعد هذا الأسباب الأخرى التي أشار إليها التقرير المرفق بشروع قانون المقابلة ، أو التي لم يشر إليها وتكلمنا عنها آنفا .



F. O. 78/3189, 195/1103, Stanton to Derby, 9 Jan., 1876.

(٣١)

Nahoum, Haim : Recueil des Firmans Impériaux Ottomans adressés aux Valls et aux Khedives d'Egypte. Le Caire, 1934 ; Douin, G : Histoire du Regne du Khédive Ismail, tome 2 eme (Roma 1934), pp. 711—742.

(٣٢) في مقال بعنوان « مصر والخديوى » Egypt and the Khedive بعدد ديسمبر عام ١٨٧٧

من « مجلة القرن التاسع عشر » Nineteenth Century Review تكلم الكاتب والصحفي الانجليزي ادوارد ديسى Dacey عن القروض التي عقدها اسماعيل ، وقال إنها أنفقت في مشروعات اقتصت بالامراف والتبذير ، وضرب مثلا على ذلك بالسكك الحديدية التي ذكرت حسابات الحكومة المصرية أنها تكلفت ١٣,٣٦١,٠٠٠ جنيه انجليزي ، في حين أنها لم تكن تساوى غير ٣,٢٠٠,٠٠٠ جنيه انجليزي فقط . وفي عدد فبراير عام ١٨٧٨ من المجلة المذكورة رد ماكون McCoan على ديسى وقال بخصوص النقطة السالفة : « قد يظن مستر ديسى أن هذا المبلغ كبير ، ولكن مصر ليس البلد الوحيد الذي كلفت السكك الحديدية فوق قيمتها الحقيقية »

« Mr. Dacey may think this too high a figure, but Egypt is not the only country where railways have cost more than they are worth ».

وأيا ما كان الأمر ، ففي صيف عام ١٨٦٣ انتشر وباء الماشية (الطاعون البقري) المتقدم الذكر في الوجه البحرى ، وراح يقتل الماشية خلال ساعات قلائل من ظهور أعراضه ، فامتلت فروع النيل البطية الجريان بالآلاف الرمم المتعفنة . وقبل نهاية سبتمبر ، أصبحت أغنى مديريات مصر خاوية من الماشية (٣٤) . ولما كانت مصر لا تعلم غير طرق الوقاية البسيطة لمكافحة الوباء ، فقد امتد أثره سريعا الى الوجه القبلى . وقدرت الخسائر بنحو ٢٥٠.٠٠٠ رأس ٣٠٠.٠٠٠ رأس من الماشية . فساءت حال الفلاح وتمطلت زراعته ، واضطرت الحكومة الى تقديم الأموال المتتابعة لتعويض الأهلىن عما فقدوه ولمساعدتهم في زراعاتهم ، ثم جلبت لهم الماشية والأغنام من إيطاليا واليونان والأناضول وسوريا والمغرب (٣٥) . وتمت هذه الاجراءات بالطبع عن طريق شركات وبيوت مالية محلية مثل بنك « ديرفيو وشركاه » Dervieu et Cie وبنك « أوبنهايم وشركاه » Oppenheim et Cie بالاسكندرية وغيرهما ، والذين أضافوا عيولتهما الكبيرة الى الثمن الباهظ أصلا . وقدرت قيمة التعويضات التى دفعتها الحكومة للفلاحين والنفقات التى تحملتها في كفاح هذا الوباء حتى عام ١٨٧٣ - ١٨٧٤ بنحو ٣.٨٣٧.٥٦٢ جنيتها انجليزيا (٣٦) .

وفي خريف العام نفسه حدث فيضان النيل الذى ازداد فجأة في أواسط سبتمبر ، فأغرق في الصعيد مساحات كبيرة من الأراضي . غير أن المحصولات الزراعية كانت في مخازنها ، فلم يصب الوجه القبلى بخسارة جسيمة مثلما حدث في الوجه البحرى ، حيث أ تلف الفيضان محصول القطن والذرة ، وأغرقت السكة الحديد من كفر الزيات الى منطها قريبا ، فتعطلت المواصلات بين القاهرة والاسكندرية وأصبحت الباخرة هى وسيلة الاتصال السريع الوحيد بينهما . وعلى فرع دمياط ، انهارت الجسور في مواقع متعددة ، وخصوصا عند طلخا (٣٧) . وأما الخسائر التى سببها الفيضان فيصعب تقديرها ، ولو أن محصول القطن وحده لعام ١٨٦٣ كان يقدر بنحو مليوني قنطار بثمان يبلغ ٣٠٠

(٣٤) دافيد لاندز : بنوك وباشوات ص ١٣٣ - ١٣٤

Douin, G : Op. cit, tome 1 ere (Roma 1934), pp. 233-4.

(٣٥)

Craibitès, P : Ismail, The Malignant Khedive, p. 150.

(٣٦)

Douin, G : tome 1 ere, pp. 235-6.

(٣٧)

مليون فرنك ، ولم يصدر منه هذا العام سوى نحو ١٠٠٠٠٠ ٢٨٧٠٠٠ قطار (٣٨) .
وكان من آثار هذا الفيضان ارتفاع أسعار الحنطة والذرة ، وحدث المجاعات ،
فاهتمت الحكومة باستيراد القلال من الخارج وتوزيعها بأثمان مخفضة على
الأهالي حتى وردت الغلات من الوجه القبلى (٣٩) .

يبد أنه لم تلبث أن أصيبت البلاد بكارثة أخرى ، هى انتشار الكوليرا عقب
عودة الحجاج من مكة فى مايو عام ١٨٦٥ . ومع أنه لم يظهر أثر اللوباء فى
السويس ، فلم يمتض شهر واحد حتى حدث أول إصابة به فى الاسكندرية
فى ١١ يونية . وسرى الوباء الى أبى قير وطنطا والقاهرة ، ثم الى رشيد ودمياط
والمنصورة ، وانتشر فى مصر السفلى والوسطى . وفى يولية ، ظهرت الكوليرا
فى بنى سويف ، وانتشرت من ثم فى الوجه القبلى ، فأضطربت الأحوال ، وهاجر
كثيرون من المقتدرين الوطنيين .

أما فى الاسكندرية ، حيث كان الأوروبيون يقبضون على ناصية تجارة
التصدير (٤٠) ، فقد وصف دافيد لاندز الحالة هناك بقوله : « فى أول يوم مات
عدد قليل من الضحايا ، وفى اليوم الثانى زاد هذا العدد قليلا ، ثم وصل الى
عشرات ، ثم مئات . وفى مقابل كل جثة يتم تبليغ السلطات عنها كانت هناك عديد
من الجثث تدفن فى هدوء فى الحدائق الخاصة والأقمية . وفى أحياء الفقراء
تكومت الجثث فى الحضر الضيقة . وسيطر الفزع على المدينة . وعلى الرغم
من أن المرض أصاب فى غالب الأمر الفقراء ، إلا أن الأغنياء الذين كان لديهم
ما يعيشون من أجله هم أول من هربوا . وضرب الخديوى المثل بنفسه . فاذ
كان مبتلئا بالخوف والرعب سارع بالخروج بيخته الى عرض البحر لبضعة أيام
من الراحة . وعاد بعد ستة أسابيع . وعند اقدامه اقتحم الأوروبيون الميناء
وشقوا طريقهم الى السفن المزدهمة ودفعوا مبالغ ضخمة لينقذوا أرواحهم

Doutin, G : tome 1 ere, pp. 235, 238.

(٣٨)

(٣٩) ميخائيل شاروبم : الكاف فى تاريخ مصر القديم والحديث ج ٤ (القاهرة ١٨٩٨) ص ١٤٠ .
وقد حدث فيضان آخر فى عام ١٨٦٦ ، ثم فى أعوام ١٨٦٩ و ١٨٧٠ و ١٨٧٢ و ١٨٧٤ و ١٨٧٥
و ١٨٧٦ على التوالى . راجع إلياس الأيوبي : تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل باشا ج ٢ ص

٢٢٦ - ٢٢٤

Doutin, G : tome 2 eme, p. 124.

(٤٠)

ويسافروا على مراكب صغيرة لم تكن معدة أبدا للملاحة في غير المياه العذبة . ولم تكن لدى السفن التي تدخل الميناء أى فرصة في ائزال شحنتها من البضائع قبل أن تترك الميناء محملة بشحنتها من البشر . وفي فترة أسبوعين نجح حوالى ٣٠ ألف أوروبى^(٤١) في الخروج من مصر . . . لقد ماتت التجارة المصرية بالسكة القلبيه»^(٤٢) .

وعلى هذا النحو تعطلت الأعمال وأغلقت البيوت المالية والتجارية أبوابها . وهذا بالرغم من ارتفاع أسعار القطن ، ذلك الارتفاع العظيم الذى وصل اليه أثناء الحرب الأهلية الأمريكية ، والذى كان من شأنه نشاط الأسواق التجارية .

ولمعرفة أثر الكوليرا البالغ في حياة البلاد الاجتماعية والاقتصادية . يكفى أن نذكر عدد ضحاياها . فقد بلغوا في البحيرة ٢٢٤٠ والغريسة ١٠٠٠٦٤ والمنوفية ٢٦٤٨ والدقهلية ٧٣٥٦ والشرقية ٣٥٩١ والقلبوية ٦٩٩ والجيزة ١٤٧٣ وبنى سويف ١٠٣١ والقيوم ١٣٠٦ والمنيا ١٧٦٦ وأسوط ٤٣٨٧ وجرجا ٥٧٧٥ وقتنا ٣٠٨٤ واسنا والقصير ٧١٣ . وبلغ عدد ضحايا الاسكندرية ٤٠١٨ والقاهرة ٦١٠٤ ورشيد ٣١٦٦ ودمياط ٢٣٠٧ ، وذلك بخلاف ضحايا بور سعيد والسويس والاسماعيلية وغيرها . وبلغ العدد الاجمالى لضحايا الكوليرا حوالى ٦١١٩٢ ، وذلك في وقت كان عدد سكان القطر المصرى يبلغ ٤٨٤١٦٧٧ نسمة^(٤٣) .

واستمر الوباء نحو شهرين ، فأختفى من الاسكندرية في آخر يولية من العام نفسه ، وأخذ يتناقص تدريجيا في الجهات الأخرى منذ أواسط أغسطس حتى تلاشى تماما في أوائل الشهر التالى . ومع أنه من الصعب معرفة ما تكلفته الحكومة بسبب هذا الوباء ، الا أنه من المؤكد أنها قد تحملت في سبيل مكافحته الشيء الكثير ، وذلك بتعميم الوسائل الصحية في البلاد مثل انشاء المستشفيات^(٤٤) وردم البرك والمستنقعات في القاهرة وازالة أكوام التراب

(٤١) بلغ عدد سكان الاسكندرية وقتئذ ١٦٠.٠٠٠ نسمة ، من بينهم ٧٠.٠٠٠ أوروبى . انظر

Sacré, A et Outrebon, L: *L'Egypte et Ismail Pacha* (Paris 1865), p. 70.

(٤٢) دافيد لانفز : بنوك وپاشوات ص ٢٢٥ - ٢٢٦

Doutin, G: tome 1 ere, pp. 236-240.

(٤٣)

(٤٤) بلغت ستا وثلاثين عام ١٨٧٢ . انظر

Régny, E. de: *Statistique de L'Egypte, d'après des documents officiels ...* , 3 eme année, 1872, p. 234.

المحيطة بها ، وإنشاء الأحياء الجديدة والشوارع النظيفة في سبيل تحسين أحوال العاصمة الصحية . فقد كانت إصابات الكوليرا شديدة في القاهرة في الأحياء المكتظة والقديمة خصوصا ، فأربت الإصابات في الأزبكية وباب الشعرية وقيسون وبولاق عن غيرها في الأحياء الأخرى . واختطت الحكومة في الاسكندرية الشوارع والأحياء الجديدة ، واهتمت بأعمال النظافة والصحة ، ومنها تبليط كثير من الشوارع وعمل المجارى لتصريف مياه الأمطار .

وفي نفس العام الذى انتشرت فيه الكوليرا في مصر . حلت بالبلاد نكبة اقتصادية أخرى ، تتعلق بنزول أسعار القطن فجأة عقب نهاية الحرب الأهلية الأمريكية .

وكان القطن من المحصولات التى وجه إليها اسماعيل . - أكبر مالِك زراعى فى مصر (٤٥) - كل اهتمامه وعنايته ، بسبب إغلاق أسواق التصدير الأمريكية خلال الحرب الأهلية وضرورة سد حاجات أوروبا وانجلترا خصوصا من الأسواق المصرية . فقد كان الفراغ الذى نجم عن هذه الحرب كبيرا ، إذ أتتجت الولايات المتحدة الأمريكية مثلا فى عام ١٨٥٨ حولى ثلاثة أرباع محصول العالم من القطن

(٤٥) اتسعت رقعة الأراضي المزروعة في مصر من ٣,٥٥٠,٠٠٠ فدان عام ١٨١٣ إلى ٤,٧٤٣,٠٠٠

فدان عام ١٨٧٧ . أنظر

Issawi, C: Egypt. An Economic and Social Analysis (Oxford 1947), p. 14

وفى تقريره المشهور عام ١٨٧٦ ، ذكر ستيفن كيف أن مساحة أراضي الدائرة السنية أو أملاك الخديوى الخاصة تبلغ حوالى ٣٥٠,٠٠٠ فدان من الأراضي الجيدة في الوجه القبلى . خصوصا ، بالإضافة إلى ١٠٠,٠٠٠ فدان من الأراضي البور غير المزروعة ، وأن الخديوى يؤجر للفلاحين حوالى نصف أراضيهم الجيدة ويحتفظ بنصفها الآخر لى يزرعها بنفسه ، ويخصص من هذه الأراضي الأخيرة زهاء ١٥,٠٠٠ فدان لزراعة القطن والخضروات على اختلاف أنواعها و ٤٠,٠٠٠ فدان لزراعة قصب السكر . أنظر

McCoan, J. C: Egypt as it is, Appendix G, pp. 384—402.

وحسب تقرير ساندروز Sandars عام ١٨٧٧ بلغت مساحة الأراضي التى يمتلكها الخديوى ٤٨٥,٠٠٠ فدان ، منها ١٧٠,٠٠٠ فدان غير مزروعة و ١١٨,٠٠٠ فدان يؤجرها للفلاحين و ١٩٧,٠٠٠ فدان يتولى زراعتها بنفسه . أنظر

The Khedive and His Calumniators. The Finances of Egypt
(London 1878), p. 12.

(أو ٥٨٨.٠٠٠ طن) كانت تصدر منها الى أوروبا ققط ١٦٨٨٧٣ طن (١٦) .
وعندما بدأت هذه الحرب في أبريل عام ١٨٦١ لمتنع عن أوروبا ورود الأقطان
الأمريكية ، فكثرت الطلب على القطن المصرى وأقبل الناس على زراعته . واستلزم
التوسع في زراعة القطن توفير مياه الري وجلب العديد من الآلات الحديثة .
ولهذا الغرض ساعد اسماعيل على انشاء شركة زراعية صناعية (١٧) في أبريل
عام ١٨٦٤ وهى « الشركة الزراعية والصناعية المصرية » *La Société Agricole et Industrielle d'Egypte*
برأس مال قدره مليون جنيه . وكان غرضها بيع الطلبات
والمضخات وتشيد آلات الطحن التجارية والمصانع والمعامل على جوانب النيل ،
وفي الأماكن التى تجهزها الحكومة (١٨) .

وكان من نتيجة ذلك كله أن أخذت مصر مكان الولايات المتحدة الأمريكية
في تصدير القطن . وبعد أن كان متوسط ما صدرته مصر من القطن بين عامى
١٨٥٠ و ١٨٦٠ حوالى نصف مليون قنطار سنويا بشمن يتراوح بين عشرة واثنى
عشر ريالا للقنطار الواحد ، بلغ مجموع ما صدرته منه في عام ١٨٦٣ نحو
٨٣٠.١١٠ قنطارا وفى العام التالى زهاء ١.٣٨٧.٠٠٠ قنطارا وارتفع الثمن أيضا
الى نحو ٤٦.٥ ريالا للقنطار . وفى عام ١٨٦٤ وصل الثمن الى ٥٢ ريالا ، وبلغ

(٤٦) Doulin, G : tome 1 ere, p. 257

(٤٧) كان صاحب مشروعها أنطوان ليكوفتش *Antoine Lucovich* وهو رجل نمساوى
أقام في مصر مدة ٢٨ عاما . بدت له فكرة تأسيس « شركة زراعية ميكانيكية » *Société Agricole
Mecanique* في عام ١٨٦٣ لتوصيل المياه إلى الأرض الزراعية بأجور رخيصة ، سواء بقدر
اتفاقات مع الأفراد لرى أراضيهم أم ببيع الطلبات إليهم .

(٤٨) تعدلت أغراضها في أبريل عام ١٨٦٥ ، فأصبحت شركة تقوم بالأشغال العامة والمقاولات
وشراء الأراضي وبيعها بعد إقامة المباني عليها طلباً لقرىح . ثم لا استغلال المهاجر وغير ذلك من الأشغال
ذات الأرباح الكبيرة . غير أن الأعمال الجديدة سرعان ما تعطلت عندما انتشرت الكوليرا في البلاد حتى
أواخر أغسطس عام ١٨٦٥ ، فلم تتمكن حال الشركة بعد ذلك بالرغم من مساعدات الحكومة لها ، لسوء
إدارتها وكثرة نفقاتها ، فانتهت أعمالها في فبراير ١٨٦٦ ، ودفعت الحكومة لمؤسسيها تعويضات كبيرة .

مقدار ما صدر ١٧٤٠٠٠٠ قنطار • وفي عام ١٨٦٥ ازديادت مقادير الأقطان المصدرة الى ٢٥٠٧٠٠٠ قنطار (٤٩) •

غير أنه سرعان ما هبط مقدار المصدر من القطن في العام التالي (١٨٦٦) فبلغ ١٧٨٥٠٠٠ قنطار ، ولو أن السعر قد ظل محتفظا بمستواه في العام السابق (من ٢٧ الى ٤٢ ريبالا) • وفي عام ١٨٦٧ انخفض الثمن فجأة الى النصف تقريبا ، فأستحكمت حلقات الأزمة التي بدأت في الواقع منذ أن انتهت الحرب الأهلية الأمريكية في أبريل عام ١٨٦٥ وأستعادت الولايات المتحدة الأمريكية مكانتها السابقة في التصدير • فكان لهذه الأزمة آثار شديدة في حياة البلاد الاقتصادية والاجتماعية •

اذ أن الفلاح الذي كان يعيش على الذرة ويكتفى بالقوت والملبس القليل ، كان قد أصبح بفضل الحرب الأهلية الأمريكية في بصوحة من العيش ، وصار يأكل الخبز الأبيض واللحم ويشترى الجوارى من النساء للعمل المنزلي والمتعة ،

Douin, G : tome 1 ere, pp. 257—9.

(٤٩)

وقد أورد ساكريه وأوتريبو الجدول التالي لبيان مقدار ما صدرته مصر من الأقطان (بالبالات) إلى بريطانيا وفرنسا والمسا بين سنتي ١٨٥٧ و ١٨٦٤ ، ومنه يتضح مدى ازدياد مقادير الأقطان المصدرة خلال سنوات الحرب الأهلية الأمريكية .

السنوات	بريطانيا	فرنسا	البحر	المجموع
١٨٥٨—١٨٥٧	٢٠,٢٩٣	٦,٩٠٩	٥,٨٠١	٣٣,٠٠٣
١٨٥٩—١٨٥٨	٣٦,١١١	١٣,٠٦٧	٨,٦٩٤	٥٧,٨٧٢
١٨٦٠—١٨٥٩	٤٧,٢٨٥	١١,٦٢٣	٥,٠٤٥	٦٣,٩٥٣
١٨٦١—١٨٦٠	٥٣,٣٧٣	١٩,١٩٩	٣,٧٥٥	٧٦,٣٢٧
١٨٦٢—١٨٦١	٦٣,١١٢	١٥,٦١٨	٣,٣٨٦	٨٢,١١٦
١٨٦٣—١٨٦٢	٨٦,٧٥٢	٢٤,٨٣٢	٣,٣٠٥	١١٤,٤٣٩
١٨٦٤—١٨٦٣	١٠٠,٢٦٣	٤٠,٣٠٩	٩,٥٦٠	١٥٠,١٣٢

أنظر

Sacré, A et Outrebon, L : L'Egypte et Ismaïl Pacha (Paris 1865), p. 227.

كما صار يطلب الكماليات وينفق عن سعة ويستدين من المرابين (٥٠) من أجل تحسين زراعته وتوسيع نطاقها أملا في الربح ، ولشراء الآلات الزراعية كي ينمي محصول القطن . وفضلا عن ذلك ، فقد أهمل الفلاح زراعة الحبوب والخضروات ، مما كان من شأنه ارتفاع أثمان المأكولات عموما ، فتضاعف ثمن الزيت والخضروات ثلاث مرات ، وارتفعت أسعار الفلال والبقول بنسبة ٤٠٠٪ ولحم الضأن بنسبة ٣٠٠٪ .

فلما انتهت الحرب ونزلت أسعار القطن ، عجز المزارعون عن سداد أقساط الديون ، وأصبحت ثروة البلاد المقارية مهددة بالانتقال الى الأيدي الأجنبية ، فضلا عن تعرض الدولة للبليلة والتوتر الذي يصحب بالضرورة أى مصادرة عامة للأرض . وعلاوة على ذلك ، فقد كان في عدم قدرة الأهالي على سداد ديونهم ضياع ثقة الممولين الأجانب في مصر عموما ، وهذا ما كان يحسب له اسماعيل ألف حساب . وفي الوقت نفسه كانت البلاد مهددة بالمجاعة بسبب قلة المحصولات الغذائية وارتفاع أثمانها . وكان طبيعيا أن يسترعى الموقف اهتمام الحكومة ، فننعت تصدير الغلات الغذائية في عامي ١٨٦٤ و ١٨٦٥ ، واستوردت من الخارج الكميات الكبيرة من القمح الى أن زال خطر المجاعة تماما في عام ١٨٦٦ ، فأصبحت تجارة الفلال حرة ثانية ، ونزلت أثمان المحصولات الغذائية .

وأما مشكلة ديون المزارعين ، فقد عالجتها حكومة اسماعيل بتنفيذ الاقتراح الذي تقدمت به لجنة من رجال الأعمال برئاسة ادوارد ديرفيو أحد أصحاب بنك ديرفيو وشركاه بالاسكندرية وصديق الخديوى وسكرتيره الخاص لفترة

(٥٠) كان المرابون من الأجانب الذين نزحوا إلى مصر في عهد سيد وخصوصا بين عامي ١٨٥٧ و ١٨٦١ بمعدل ٣٠,٠٠٠ أجنبي كل عام . وفي عام ١٨٦٢ دخل مصر ٣٢,٠٠٠ أجنبي ، ثم ٣٤,٠٠٠ في عام ١٨٦٣ ، ثم ٥٦,٠٠٠ عام ١٨٦٤ . ولم يكن هؤلاء الأجانب كلهم من خيار القوم ، بل كانوا إجمالا من المغامرين الذين أرادوا استغلال البلاد واستزاف دماؤها طلبا للثراء السريع . واقتنصا للفرصة السانحة التي أتاحها إنشاء قناة السويس ورواج القطن المصري ، انبث الأجانب - واليونانيون خصوصا - في القرى والأقاليم ، وصادروا يقرضون المزارعين برهون عقارية وبفوائد باهظة تراوحت بين ٣ و ٧ ٪ في الشهر . انظر محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٥٦ ، أحمد أحمد الحنفى : « الأجانب في مصر والسودان ١٨٤٩ - ١٨٦٢ » مجلة الاقتصاد والتجارة . العدد الثاني . السنة السادسة (يوليو - ديسمبر ١٩٥٨) ص ١٨٥ - ٢٢٨ ، دافيد لانغز : بنوك وبائشوات ص ٨٠

طويلة من حياته . ومؤدى الاقتراح أن تتفق الحكومة مع الدائنين على أن تحمّل هي ديون المزارعين والأهالي ذات الضمانة العقارية وتمهلهم حيال ذلك سبع سنوات لسداد ديونهم قبلها على أقساط سبعة بفائدة قدرها ١٢٪ فقط ، وهي فائدة كانت أقل بكثير جدا من الفوائد المطلوبة للدائنين الأصليين . وفي نظير ذلك تصدر الحكومة « أذونات مالية » بقيمة « دين القرويين » وتعطى للدائنين الأصليين الذين قبلوا تخفيض الدين الى ٩٣٪ من قيمته الاسمية وبفائدة ٧٪ .

وفي ٣٠ أكتوبر عام ١٨٦٥ صدر المرسوم اللازم ، وعرفت الأذونات الجديدة باسم « أذونات القرى » وبلغت قيمتها ١٣٨٥٠٠٠ جنيه انجليزي^(٥١) ، أضيفت الى دين مصر السائر ، اذ جعل سدادها للدائنين الأصليين في عشرة أقساط تبدأ من عام ١٨٩٠ . ولما كان من أغراض هذه العملية^(٥٢) حماية المزارعين وحماية ثروة البلاد العقارية ، فقد اتخذت الحكومة التدابير اللازمة حتى لا تتكرر هذه الحالة ، بأن جعلت الضمانة العقارية غير مقبولة أمام المحاكم ، الا اذا تمت بإشراف السلطة المختصة وتقييدت في السجلات المعدة لذلك .

ولكن الصعوبات التي واجهت اسماعيل ، كان مصدرها - الى جانب ما تقدم - سببان رئيسيان : ديون سعيد الثابتة والسائرة ، وما خلفه سعيد من نفقات ومتاعب بسبب الامتياز الذي أعطاه الى « صديقه المخلص » فردتد دلبس لحفر قناة السويس . وكان سعيد قد أصدر الامتياز الأول في ٣٠ نوفمبر عام ١٨٥٤ ، ثم الامتياز الثاني في ٥ يناير عام ١٨٥٦ الذي فصل فيه الامتيازات التي أعدها على شركة قناة السويس ، والتي فاقت ما جاء في الامتياز الأول كما وكيفا . ولم يلبث أن استصدر دلبس من سعيد في ٢٠ يوليو عام ١٨٥٦ « لائحة استخدام العمال الوطنيين في حفر قناة السويس ، وهي

Cattail, J : Le Khedive Ismail et la Dette de L'Egypte (Le Caire (٥١)
1935), pp. 52-3 ; Douin, G : tome 1 re, pp. 282-285.

(٥٢) استهدفت مصلحة الدائنين والمدينين والحكومة حل السواء ، فقد تحولت بموجبها مطالب الأولين إلى « قرض » حكوى وبضمانة الحكومة من جهة ، وحفظت للأهالي من جهة أخرى ثرواتهم العقارية ، وحقت الخزانة من جهة ثالثة بعض المكاسب وهي الفرق بين فائدة ٧ و ١٢ ٪ .

اللائحة التي ساقته الشركة بموجبها المصريين زمرا الى ساحات الحفر وفق نظام السخرة (٥٣) .

أما الديون التي خلفها سعيد فيمكن تلخيصها في دين ثابت قدره ٣٢٩٢٢٨٠٠ جنيه انجليزي ، انتهى الدفع منها في عام ١٨٧٦ ، ثم دين سائر صدرت به سندات مالية قدرها ٢٢٧٥٤٢٠٠ جنيه انجليزي (٥٤) . وهذا عدا المبالغ التي كان قد استولى عليها سعيد من « الأوقاف » ومن محصصات الأرامل واليتامى والشركة المجيدة . وقد بلغت ٥٦٧٥٢٢ من الجنيهات الانجليزية ، فكان مجموع الديون التي خلفها سعيد والتي أمكن حصرها من ثابتة وسائرة ٦٩٦١٤٨٥٢٢ جنيه انجليزيا (٥٥) ، كان على الحكومة أن تبدأ في سداده منذ مجيء اسماعيل الى الولاية .

وأما قناة السويس فقد كلفت مسألته الخزانة المصرية النفقات الطائلة في أيام سعيد ، ثم في أيام خلفه . وتلخص النفقات التي تحملتها حكومة اسماعيل في سداد ثمن الأسهم (٥٦) التي فرضت على مصر في أيام سعيد وعددها ١٧٧٦٤٢ سهما قيمتها الاسمية وقت الاكتساب ٨٨٨٢١٠٠٠ فرنك (حوالى ٣٨٥٥٢٢٨٤٠ جنيه انجليزيا) ، دفعت الحكومة منها في أيام سعيد ٢١٥٦١٥٧ ر ٢١٥٦١٥٧

(٥٣) عبد العزيز الشناوى : « ما تكلفته مصر في إنشاء قناة السويس » ص ١٣٥ - ١٤٠ ، وكذلك

Freycinet, C. de : La Question d'Egypte (Paris 1904), pp. 110—114 ;
Lenczowski, G: The Middle East in World Affairs (New York 1952), pp. 386—7.

Cattani, J : Op. cit, pp. 19—20, 28.

(٥٤)

وقى تقدير آخر بلغ الدين السائر ٢٢٧٥٤٢٠٠٠ جنيه انجليزيا .

(٥٥) قبل وفاة سعيد بحوالى أسبوعين ، بحث القنصل النمساوى شرايتر Schriener في

يناير عام ١٨٦٣ بتقرير مطول إلى حكومته ، كان مما تنولوه فيه مسألة ديون سعيد من سائرة وثابتة ، فقدرها بسبعة ملايين وأربعمائة ألف جنيه إنجليزي (عبد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٦١) . أما اسماعيل فقد قدر الدين الذى ورثه عن سلفه بأحد عشر مليوناً من الجنيهات ، ولكن أحد شقيق باشا يقول : « والحقيقة التي علمنا من أبي - وكان في مية سعيد - أنه بعد تصفية التركة لم يكن الدين ليزيد عن أربعة ملايين ونصف مليون من الجنيهات فقط » . أنظر مذكراتى في نصف قرن ج ١ ص ٤

(٥٦) كانت أسهم شركة القناة وعددها ٤٠٠,٠٠٠ سهم موزعة بالشكل التالى :

٢٠٧,١٦٠	سهما	للمكتبتين الفرنسيين	أو ٥١,٧٩ ٪ من عددها .
١٧٧,٦٤٢	سهما	لحساب الحكومة المصرية	أو ٤٤,٤١ ٪ من عددها .
١٥,١٩٨	سهما	لبقية المكتبتين	أو ٣,٨٠ ٪ من عددها .

فرنكا فقط ، ودفعت حكومة اسماعيل بقية الثمن بين عامي ١٨٦٣ و ١٨٦٧ ، قبلت أول دفعة قبلتها في عام ١٨٦٣ (بالفرنسكات) ١٢٥٠٠٣٠٠٠ وفي عام ١٨٦٤ جاء قرار التحكيم المشهور الذي أصدره الامبراطور نابليون الثالث .

وكانت شركة قناة السويس قد التجأت الى نابليون الثالث في يناير عام ١٨٦٤ للتدخل وفض النزاع القائم بينها وبين اسماعيل حول الامتياز الممنوح لدلبس من سعيد . ولما كان الامبراطور قد أجاب الشركة في التدخل وأرسل وزير خارجيته (Drouyn de Lhuys) الى قنصل فرنسا العام في مصر تاستو Tasto في ٦ يناير ١٨٦٤ برغبة الامبراطور في ألا يوقف اسماعيل الأعمال في القناة قبل أول أبريل (٥٧) تمهيدا للتوصل الى اتفاق مع الشركة ، فان اسماعيل لم يجد مناصا من قبول هذه الوساطة التي طلبها هو بدوره في ٣٠ يناير من العام نفسه (٥٨) . ولا شك أن اسماعيل قد جانبه التوفيق في هذه الخطوة ، لأن نابليون الثالث كان قد احتضن مشروع القناة ، على أساس أنه مشروع من شأنه اعلاء قدر فرنسا في ربوع الشرق . وعلى كل حال ، فقد بادر الامبراطور بتشكيل لجنة استشارية برئاسة توفنيل Thouvenel وكانت مهمة « لجنة التحكيم » هذه البت في لائحة ٢٠ يوليو عام ١٨٥٦ المتعلقة بتشغيل العمال المصريين في حفر القناة وتحديد قيمة التعويض الكافي في نظير الغاء هذه اللائحة .

وعندما أتمت اللجنة بحوثها ، أصدر نابليون الثالث قرار التحكيم المشهور في ٦ يوليو عام ١٨٦٤ (٥٩) . وتناول هذا القرار لائحة ٢٠ يوليو عام ١٨٥٦

(٥٧) Sabry, M: Op. cit, p. 277.

(٥٨) Douin, G: tome 1 ere, pp. 87—88.

(٥٩) Wraycinet, C. de: La Question d'Egypte, p. 123.

وقد سبب هذا القرار عند صدوره دهشة كبيرة لاجساد بنوده ، فان اللجنة - وعلى رأسها الامبراطور لم ترع غير مصلحة الشركة وحاجتها الملحة في هذا الوقت إلى المال اللازم لمواصلة أعمالها . أنظر عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل ج ١ ص ١٩٤ - ١٠٠ ، وكذلك

Sabry, M: Op. cit, pp. 277—288 ; Sammarco, A: Op. cit, pp. 160—165.

وفي رأي المؤرخ الايطالي ساماركو أن من المبلغ الذي حكم به التعويض ، كان حوالى ٦٠ مليون فرنك مشكوك في أصحتها .

فالبسها صفة « التعاقد » وإلزم الطرف المتسبب في قضها - وهو الحكومة المصرية في رأى اللجنة - بتعويض الطرف الآخر عن الأضرار العائدة (على الشركة) من تعطيل « التعاقد » والغاء السخرة . وقدر القرار هذا التعويض بمبلغ ٤٢ر٥ مليون فرنك . غير أنه لما كانت اللجنة قد وجدت « أن على الشركة أجورا متأخرة للعمال المصريين بلغت في تقدير اللجنة أربعة ملايين ونصف مليون فرنك ، فقد رأت أن تخصم هذه الأجور المتأخرة من مبلغ التعويض الذى تقرر عن الغاء السخرة ، فأصبح صافى المبلغ المتعين دفعه هو ٣٨ مليون فرنك . وقد استخدم رجال القانون من أعضاء اللجنة الدهاء في صياغة الحكم لاختفاء حقيقة المبلغ الذى تقرر تعويضا عن الغاء السخرة . فهو يبدو للقارئ العادى لمنطوق الحكم أو للباحث المتعجل أنه ٣٨ مليون فرنك والحقيقة أنه ٤٢ر٥ مليون فرنك » (٦٠) .

وبمقتضى قرار التحكيم أيضا تنازلت الشركة عن « حقوقها » في ترعة المياه المذبة في نظير ٦ مليون فرنك . وهذا مع احتفاظ الشركة بحق الاتقاع بالترعة بعد أن تقوم الحكومة المصرية باتمامها . وكذلك احتفظت الشركة بقدر من الأرض يبلغ ٢٣ر٥٠٠ هكتار تقريبا . وأرجعت الى الحكومة كافة الأراضي الزائدة عن حاجتها وقدرها ٦٥ر٠٠٠ هكتار ، بينما نالت في نظير ذلك كله تعويضا قدره ٣٠ مليون فرنك ، على أساس تقدير ثمن الهكتار الواحد بخمسمائة فرنك ، فبلغ مجموع التعويضات التى نالتها الشركة اذن ٨٨ر٥ مليونا من الفرنكات ، يستزل منها ٥ر٤ مليون فرنك قيمة الأجور المتأخرة للعمال المصريين ، فيصبح صافى المبلغ ٨٤ مليونا .

وفي سبيل تعديل قرار التحكيم السابق ونصوص الامتياز الممنوح لدلسبس بوجه يكفل سيادة الدولة العليا ، لم يلبث أن أبرم اسماعيل مع شركة القناة اتفاقات جديدة . وبموجب اتفاق ٣٠ يناير عام ١٩٦٦ استرد الوالى أراضي الطميلات (١٥ر٠٠٠ هكتار أو ٢٣ر٨٠٠ فدان) في نظير عشرة ملايين من

(٦٠) عبد العزيز الشناوى : « ما تكلفته مصر في إنشاء قناة السويس » ص ١٤٩

الفرنكات (حوالى ٣٩٥٠٠٠٠٠ جنيها انجليزيا) (١١) ، وأصبح للحكومة الحق في اقامة الحصون والاستحكامات في اراضى القناة من غير اعاقه الملاحة وتشيد المصالح والشركات وخلافها في نظير ثمن تدفعه الحكومة للشركة ، كما صار للأفراد حرية الاقامة وامتلاك الاراضى في المنطقة التابعة للشركة على ضفتى القناة ، على أن يدفعوا الضرائب للحكومة ويخضعوا لقوانين الدولة ، وتنازلت الشركة للحكومة أيضا عن مبانها في ضفتى التربة العذبة ، على أن تؤجرها لها الحكومة ثانية . وفى ٢٢ فبراير عام ١٨٦٦ أبرم اسماعيل اتفاقا مع الشركة يتضمن الى جانب استرداد الحكومة لكامل سيادتها (١٢) شروط الامتياز الأول مع التعديلات التى طرأت عليه . وفى اتفاق ٢٣ أبريل عام ١٨٦٩ نالت الشركة تعويضا كبيرا بلغ قدره ٣٠ مليون فرنك (١٨٧٠٠٠٠٠ جنيها انجليزى) تسدد فيما بين عامى ١٨٧٠ و ١٨٩٤ (١٣) .

وعلاوة على هذه التعويضات الضخمة ، فقد تكلفت مصر بسبب القناة نفقات باهظة تمثل فى النواحي التالية : (١٤)

أولا - نفقات الرحلات التى قام بها اسماعيل ووزيره نوبار فى أوروبا ابان النضال مع شركة القناة .

ثانيا - الرشا التى قدمت الى السلطان عبد العزيز ووالدته وبعض موظفى السفارتين البريطانية والفرنسية بالقسطنطينية ابان مفاوضات القناة فى شهرى

(٦١) دفع سعيد عام ١٨٦١ ثمنا لها ما بلغ كما يقول صبرى ١٠٩٩٧.٥٣٧ فرنكا أو كما يقول قلاوى ١٠٨٥٠.٠٠٠ فرنك . أنظر

Sabry, M : Op. cit, p. 294, Cattaul, J : Op. cit, p. 58.

Fitzgerald, P : The Great Canal at Suez : Its Political, Engineering (١٢) and Financial History (London 1876), vol 1, p. 332.

Cattaul, J : Op. cit, p. 82.

(٦٣)

ثم أنظر المذكرة الإيضاحية لقانون رقم ٢٨٥ لسنة ١٩٥٦ بتأميم الشركة العمالية لقناة السويس البحرية (محمد فؤاد شكرى ومحمد أنيس والسيد رجب حراز : نصوص ووثائق فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ٣٨١ - ٣٩٠) .

(٦٤) عبد العزيز الشناوى : « ما تكلفته مصر فى إنشاء قناة السويس » ص ١٤٩ - ١٥١ ،

وكذلك Douin, G : tome 2 ème, pp. 1-36, 283-308 ; Sabry, pp. 311-314 ; Cattaul, J : pp. 82-87.

يونية ويولية عام ١٨٦٣ • فقد قدم نوبار باسم اسماعيل الى والدته السلطان قلادة ماسية ثمنها عشرة آلاف جنيه انجليزي ، وقدم هدايا مماثلة الى رجال البلاط والوزراء • وخص فؤاد باشا الصدر الأعظم ٣٠٠٠٠ قطعة ذهبية من العملة الجيدة لم يقبلها الا بعد أن أذن له السلطان في قبولها • كما قدم نوبار الرشا الى مستر ستيفنس Stephens السكرتير الخاص للسفير البريطاني بالقسطنطينية ، والى مسيو أوتري Outrey المترجم الأول بالسفارة الفرنسية بالقسطنطينية ، وكان كل منهما يطلع نوبار على بريد السفارة •

ثالثا - الرشا التي قدمها نوبار في باريس الى الدوق دي مورني فرنسا ، لكى يساند الحكومة المصرية في موقفها أثناء نزاعها مع الشركة خلال de Morny أخ الامبراطور نابليون الثالث ورئيس الهيئة التشريعية في ستي ١٨٦٣ و ١٨٦٤ •

رابعا - النفقات الجسيمة للحملة الصحفية التي نظمها نوبار في باريس ضد شركة قناة السويس ، والتي استمرت فترة طويلة ، واشتركت فيها خمس جرائد ، كانت الجريدة تتقاضى ستين جنيها عن نشر المقال الواحد •

خامسا - نفقات الاستشارات القانونية التي كان يصدرها أعلام القانون في فرنسا وقتذاك وبعض أعضاء مجلس النواب الفرنسي مؤيدة وجهة نظر الحكومة المصرية في نزاعها مع الشركة • وكان نوبار يطبع أعدادا وفيرة من هذه الاستشارات ويوزعها بالمجان على مختلف هيئات باريس وجمعياتها وأنديتها ودور النشر • وكانت الصحف في باريس تنشر هذه الاستشارات بمد أن تتقاضى خمسة فرنكات عن كل سطر •

سادسا - الخسائر أو النفقات التي نجبت عن اضطراب الحكومة الى اصدار سندات على الخزافة حتى تحصل على الأموال اللازمة لدفع الأقساط المستحقة للشركة •

وفضلا عن ذلك كله ، فهناك نفقات الحفلات التي أقامها اسماعيل ابتهاجا بافتتاح قناة السويس للملاحة العالمية في ١٧ نوفمبر عام ١٨٦٩ ، وهى الحفلات التي حضرها جل ملوك أوروبا وأعلام الثقافة فيها وترأسها الامبراطورة أوجيني

Eugenie زوجة الامبراطور نابليون الثالث ، والتي قالت عنها بأنها لم تر في حياتها ما يماثلها روعة وبهاء . وقد تكلفت هذه الحفلات مليوناً وأربعمائة ألف جنيه (٦٥) .

وحسب البيان الرسمي الذي قدمته الحكومة المصرية الى مجلس شورى النواب عام ١٨٧٦ ، بلغ ما دفعته مصر في انشاء القناة ١٩٠٧٥ر١٦٠٠٠ جنيهها . وهذا عدا آلاف المواطنين الذين ماتوا نتيجة العطش أو الجوع أو الأوبئة في ساحات الحفر .



ولقد ظهر أثر الصعوبات التي خلفها سعيد بعد أقل من عامين فقط من وصول اسماعيل الى الحكم . فقد واجه الوالى ضرورة تسديد الأقساط المستحقة من قرض سعيد الثابت ، ثم ما استحق من ثمن أسهم قناة السويس ، وما كان عليه أن يدفعه عقب قرار تحكيم نابليون الثالث . وهذا عدا النفقات التي استلزمها تنظيم الجيش والبحرية وضرورة مكافحة وباء الماشية الآتية الذكر والضرع السنوى الى القسطنطينية ، وما تكلفته زيارة السلطان عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦) لمصر في المدة من ٧ الى ١٧ أبريل عام ١٨٦٣ (٦٦) ، وهى أول زيارة يقوم بها أحد السلاطين العثمانيين ابان توليته الحكم لمصر منذ أن غزاها السلطان سليم الأول عام ١٥١٧ ، ثم نفقات الحملة المصرية الى الحجاز وعسير (٦٧) .

(٦٥) أحمد شفيق باشا : مذكراتى في نصف قرن ج ١ ص ٢٥

Freydnet, C. de : La Question d'Egypte, pp. 128—130 ; The Cambridge History of the British Empire (Cambridge 1961) p. 589 ; Dicey, E : The Story of the Khedivate (London 1902), pp. 78—82.

Doulin, G : tome 1 ere, pp. 1—18 ; Sahry, M : pp. 126—7 ; Cattauli (٦٦) I : p. 26.

وكان يرافق السلطان خلال هذه الزيارة الصدر الأعظم فؤاد باشا ، الذى قبل من اسماعيل مبلغ ٦٠.٠٠٠ جنيه انجليزى على سبيل الهدية . مقابل الخفيمات التى أداها - أو التى كان من المفروض أن يؤدها - لاقامة علاقات ودية بين السلطان والوالى . أنظر

Dicey, E : The Story of the khedivate, p. 58.

Doulin, G : tome 1 ere, pp. 315—9.

(٦٧)

ولما كانت موارد الدولة لا تكفى المطالب المتقدمة^(٦٨) ، وكانت الحكومة فى أوائل سبتمبر عام ١٨٦٤ عاجزة عن دفع مرتبات الموظفين ، وكان اسماعيل نفسه مفلسا بعد أن استهلك منذ زمن ايراد محصول عام ١٨٦٣ وامتص كلا من بيتى ديرفيو وشركاه وأوبنهايم وشركاه بالاسكندرية حتى الثمالة ، اذ كان مدينا لهما فى سبتمبر بمبلغ ٤٠ مليون فرنك^(٦٩) فقد اضطر الى عقد قرضه الأول مع بيت فرولنج جوشن Fruhling-Goschen الانجليزى الألمانى فى أكتوبر عام ١٨٦٤ . وكانت قيمة هذا القرض الاسية ٢٠٠ر٧٠٤ر٥ جنيه انجليزى : فى حين بلغت قيمته الحقيقية ٦٣ر٨٦٤ر٤ جنيه فقط ، وقيمة الممولة والسفرة ١٣٧ر٨٤٠ جنيا ، وكانت فائدته ٧٪ ويصير سداد القرض فى خمسة عشر عاما من أبريل عام ١٨٦٥ الى أكتوبر عام ١٨٧٩ على قسطن كل سنة ، وضامته ايراد ثلاث مديريات من الوجه البحرى هى الدقهلية والشرقية والبحيرة^(٧٠) .

ودفع اسماعيل من المبلغ المتحصل من هذا القرض الاموال المطلوبة لصندوق اليتامى والمأخوذة من مخصصات الأعمال الخيرية فى عهد سعيد . وهذا غير سداد الدين السائر الذى قدم أصحابه من الملاء والتجار ما أثبت ادعاءاتهم . وبلغ جميع ما دفع فى هذا السبيل ١٢٠ر٣٩٣ر٣ جنيه انجليزيا ، فيكون ما تبقى لدى اسماعيل حوالى المليون ونصف تقريبا من الجنيهات كادت أن تكون كافية لاستقامة الأحوال لولا تفقات رحلة والدته الوالى الى القسطنطينية ومكافحة طاعون الماشية الذى استمر عامين (١٨٦٣ — ١٨٦٥) ثم انتشار وباء الكوليرا ووقوع أزمة القطن المعروفة فى عام ١٨٦٥ ، بالاضافة الى عشق اسماعيل للمظاهر وجه للترف وادمانه للاستدانة ، فكما يقول دافيدلاندى : « أصبح الدين (لديه) كادمان الخمر ، كلما اقترض زادت شهوته الى الاقتراض »^(٧١) .

(٦٨) فى حين دفعت الحكومة المصرية فى عام ١٨٦٤ (بالجنيهات الانجليزية) ١٧٦,٤٢٧,٦ سدادا لبعض الوجوه المتقدمة ، فقد قدرت ايرادات ائذولة السنوية بنحو أربعة ملايين وربع من الجنيهات الانجليزية فقط . أنظر

The Khedive and His Calumniators. The Finances of Egypt, p. 11.

(٦٩) دافيد لاندى : بنوك وباشوات ص ١٩٣

(٧٠) عزيز خانكي : « ديون مصر أمام المحاكم المحتلة » .

Cattoul, J : pp. 51—52 ; Douin, G : tome 1 ere, pp. 280—281.

(٧١) دافيد لاندى : بنوك وباشوات ص ١٩٣

وعلاوة على ذلك ، ففى عام ١٨٦٥ كانت قد ظهرت الحاجة الى تحسين خطوط السكك الحديدية ، بسبب النشاط التجارى والزراعى ابان مدة اشتعال الحرب الأهلية الأمريكية ، وعجز السكة الحديد بين القاهرة والاسكندرية عن احتمال عبء التجارة المتزايدة وحدها . وكان التجار الأجانب قد طالبوا عام ١٨٦٤ بتوفير سبل النقل وسرعتها لتصرف بضائعهم فى الدخول بسهولة ومن غير ابطاء عقب انزالها من السفن فى الاسكندرية خصوصا . فعنى اسماعيل باجابة مطلبهم^(٣) ، وفكر فى عقد قرض جديد لاصلاح السكك الحديدية ، ولانشاء شبكة من الخطوط الحديدية تربط أطراف البلاد من سواحل البحر المتوسط الى أواسط السودان ، ولانشاء شبكة أخرى فرعية تخدم اقطاعاته الواسعة ، ولدفع جزء من الديون السائرة ، وعهد الى نوبار باشا^(٣) بالمفاوضة فى باريس . وكانت مهمة نوبار شاقة ، وذلك لقرب تاريخ القرض الأول ، ولجشع الممولين الأجانب . وكاد نوبار أن يعقد القرض المطلوب بفوائد باهظة ، لولا أن تدخل اسماعيل . فاستؤنفت المفاوضة وتم الاتفاق نهائيا فى ٥ يناير عام ١٨٦٦ على قرض السكة الحديدية مع بيت أوبنهايم بباريس^(٤) . وكانت قيمة القرض الاسمية ثلاثة ملايين جنيه انجليزى والحقيقية ٢.٠٠٠.٠٠٠ ر.٢٠٦٤ ، ونفقاته ٣٦٠.٠٠٠ ر.بفائدة قدرها ٧٪ ومدة السداد ستة أعوام من أول يناير عام ١٨٦٩ . وتم الاتفاق على أن يدفع نصف القرض هذا (١.٣٢٠.٠٠٠ ر.جنيه انجليزى) والباقي تشتري به الحكومة أدوات ومهمات السكة الحديدية ، فيتناول عنها البنك سمرة قدرها ٥٪^(٥) . وقد بلغت أرباح البنك من هذه العملية وحدها

(٧٢) بلغت أميال السكك الحديدية المنشئة حديثا فى عهده ١٢٠٠ ميل كما يقول كيف أو ١١٨٥ كما يقول روزشتين أو ١٠٨٥ كما ذكر على مبارك باشا (الخطط التوقفية ج ٧) تكلفت ١٢,٣٦١,٠٠٠ جنيه انجليزى . وهذا عدا السكة الحديد التى اعتمد بنامها من وادى حنفا إلى الخرطوم لربط السودان بمصر . فقد تم من هذا الخط ٥٧ كيلو مترا ، ولكن تطل العمل فيه عام ١٨٧٨ بسبب الأزمة المالية . انظر Leon, Edwin de : *Egypt under Its Khedives* (London 1882), p. 184.

(٧٣) كان نوبار قد تمين وزيرا للأشغال العمومية فى بداية عام ١٨٦٥ ، واستمر فى منصبه حتى يناير ١٨٦٦ ، فتمين وزيرا للخارجية .

Sabry, M : Op. cit, pp. 131—132.

(٧٤)

Cattaul, J : pp. 55—56 ; Douin, G : tome 1 ere, pp. 286—7.

(٧٥)

٦٦,٠٠٠ جنيه انجليزي^(٧٦) . وجعلت ضمانة هذا القرض السكة الحديدية ، وتم سدادها في أقساط سنوية قدر كل منها ٦٢٩,٣٨٧ جنيه انجليزيا في عام ١٨٧٤ .

غير أن هذا القرض لم يقابل حاجة اسماعيل المتزايدة للمال ، بسبب زيادة الأقساط السنوية الى شركة قناة السويس اثر الاتفاقين المبرمين معها في ٣٠ يناير و ٢٢ فبراير عام ١٨٦٦ . فقد دفعت الحكومة المصرية الى الشركة في أعوام ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٦ نحو ٢٦,٢٥٠,٠٠٠ فرنك^(٧٧) . وكان من المنتظر الآن زيادة الدفعات المطلوبة عملا باتفاق فبراير الآف الذكر حتى تسدد الحكومة كافة تعويضات الشركة وثمان أراضى وادى الطميلات على النحو التالي (بالفرنكات) ، وهو ٣٦,٧٥٠,٠٠٠ في عام ١٨٦٧ ، ثم ١٩,٢٥٠,٠٠٠ في كل من عامي ١٨٦٨ و ١٨٦٩^(٧٨) . بيد أنه كانت هناك عدا ما ذكر تفقات أخرى جديدة ، بسبب الأموال التى بذلها اسماعيل لكسب عطف الباب العالي حتى ينجح في مفاوضات تغيير الوراثة .

فمقد اسماعيل اذن قرض الدائرة السنية الأول مع بنك «الانجلو اجبشيان» The Anglo-Egyptian Bank وهو القرض الذى كلف اسماعيل الخسائر الفادحة بسبب نهم المولدين الأجانب وضغط الحكومة الفرنسية . وكانت قيمة هذا القرض الاسمية (بالجنهات الانجليزية) ٣,٣٨٧,٣٠٠ ، والحقيقة ثلاثة ملايين فقط ، ومدة سدادها خمسة عشر عاما (من ١٨٦٦ الى ١٨٨١) وفائدته ٧٪^(٧٩) .

(٧٦) يضاف لذلك^٩ ربح البنك من الفرق بين القيمة الحقيقية للقرض وهى ٨٨ ٪ من قيمته الاسمية ، وبين السعر الذى اشترى به المليون فى لندن وهو ٩٢ ٪ من القيمة الاسمية أى $(\frac{٨٨ \times ٢,٠٠٠,٠٠٠}{١٠٠})$

مطروحة من $(\frac{٩٢ \times ٢,٠٠٠,٠٠٠}{١٠٠})$ أو ١٢٠,٠٠٠ جنيه انجليزي ، فيكون قد ربح لوينهايم من عملية

هذا القرض ٦٦,٠٠٠ + ١٢٠,٠٠٠ = ١٨٦,٠٠٠ جنيه انجليزي . ويقول أنجلو سماركو أنه ثبت له من الاطلاع على محفوظات سراى عابدين (القصر الجمهورى حاليا) أن مصر دفعت في غضون ثمان سنوات فوائد عن هذا القرض وحده مقدارها ١,١٥٤,٩٩٨ جنهيا . إذ قبضت ٢,٦٤٠,٠٠٠ جنيه وردتها ٤,١٥٤,٩٩٨ جنهيا ، أى بفرق ١,١٥٤,٩٩٨ جنهيا عبارة عن فوائد ربوية فاحشة . أنظر

Sammarco, A : Les Régnes de Abbas, de Saïd et d'Ismaïl, p. 176.

Cattani, J : pp. 48—9.

(٧٧)

Douin, G : tome 1 ere, p. 198.

(٧٨)

Douin, G : tome 1 ere, pp. 287—8 ; Sammarco, A : p. 188.

(٧٩)

وقد وقع جول باستره Jules Pastre أحد مديري بنك « الانجلو » على هذا القرض في ١١ أكتوبر عام ١٨٦٥^(٨٠) ، وافتتح الاكتساب به في مارس من العام التالي .

ومع ذلك ، فلم ينجح هذا القرض بسبب المساعي التي بذلها لاختراق هذه العملية بيت « أوبنهايم » منافس « الانجلو » ، ولاضطراب الأسواق المالية في أوروبا عندما حلت بها أزمة مالية عصفية في يونيو عام ١٨٦٦ ، بسبب اندلاع الحرب البروسية النمساوية^(٨١) . ولما كان « الانجلو » قد احتفظ بقدر كبير من هذا القرض طمعا في الربح عن طريق المضاربة في المستقبل ، فقد وجد نفسه على وشك الافلاس ، وأضطر الى بيع ما قيمته ٦٠٠.٠٠٠ جنيه انجليزي بخسارة ٣٣٪ ، وطلب من اسماعيل تعويضا لا مبرر له عن هذه الخسارة . ولما كان جول باستره يشل في الحقيقة مصلحة المالكين الفرنسيين في مصر لعلاقته بالبنك العقاري الفرنسي Crédit Foncier في باريس ، فقد تدخلت فرنسا لنجدة البنك . واضطر اسماعيل بسبب هذا الضغط السياسي الى عقد اتفاق مع باستره في يولية عام ١٨٦٦ أنقذ به الموقف . اذ قبل أن يسترد السندات الغير مكتوب بها وقيمتها نصف القرض (أو ٣٧.٥ مليوناً من الفرنكات أى ٥٠٠.٠٠٠ من الجنيهات الانجليزية) ، كما قبل أن يدفع للبنك تعويضا عن خسائره وأن يعطيه أيضا حق توريد الفحومات اللازمة للسكة الحديد لمدة عامين . أما ما وصل الخزانة من هذا القرض ، فكان ٢.٧٥٠.٠٠٠ جنيه انجليزي فقط ^(٨٢) .

ولكن جشع المولدين الأجانب لم يلبث حتى ظهر من جديد ، عندما أراد اسماعيل أن يتخلص من سندات القرض المعطلة بين يديه وهو لا يزال في حاجة الى المال بعد العملية الخاسرة المتقدمة . فقد أوفد المليون الفرنسيون من أصحاب المصلحة في البنك لعقاري الفرنسي ميسو تشرنسكى Cernuschi حتى يضع تحت تصرف الدائرة السنية ٢.٢٥٠.٠٠٠ فرنك يتم دفعها للدائرة في ديسمبر

Sabry, M. : p. 133.

(٨٠)

Phillips, W. A. : Modern Europe 1815—1815 (London 1920) pp. 425—448.

(٨١)

Cattaul, J. : pp. 60—65.

(٨٢)

عام ١٨٦٧ ، على أن يودع اسماعيل في نظير ذلك السندات السابقة لدى البنك العقارى الفرنسى كضمانة ، ومع تخويل تشرنسكى المذكور حق التصرف فيها اذا تأخر دفع الأقساط المستحقة ، أو بيعها لحساب الدائرة السنية اذا ما طلب منه ذلك ، على أن تحتسب قيمتها بعد خصم العمولة اللازمة بمقدار ١٩٠٥/١٠٠ . وبذلك يكون اسماعيل قد تحمل خسارة جسيمة بسبب أخطاء بنك « الأنجلو » الأولى . ولكن دخول « البنك العقارى » في هذه العملية كان له أثره . لأن الحكومة الفرنسية كانت المسؤولة مباشرة عن ادارته ، ولأن « الأنجلو » كان وكيل البنك العقارى في مصر^(٨٣) . وقد خصص اسماعيل جزءا من الأموال المتحصلة لشراء أملاك الأمير عبد الحليم بن محمد على ، بثمان قدره ١٢٠٠٠٠٠٠ جنيه انجليزى ، على أن يستلم الأمير من الثمن ٣٠٠٠٠٠٠ جنيه سندات على الدائرة السنية بضمانة الحكومة ، وتمهد الدائرة بسداد ديونه السابقة .

وفي عام ١٨٦٧ عقد اسماعيل قرضا جديدا لشراء ممتلكات الأمير مصطفى فاضل الذى اعترم الإقامة في فرنسا بعد تغير الوراثة . وقد بدأت المفاوضات لمقد هذا القرض الجديد الذى عرف « بقرض مصطفى باشا » منذ نهاية العام السالف ، ولكن الاتفاق لم يتم نهائيا الا في ٢٣ مارس عام ١٨٦٧ ، وذلك مع « البنك العثمانى الامبراطورى » The Imperial Ottoman Bank و«أوينهايم» و « ألبرتى وشركاه » Alberti et Cie ، على أن يفتح الاكتاب في أسواق لندن وباريس لقرض بلغت قيمته الاسمية ٢٠٨٠٠٠٠٠ جنيه انجليزى ، بسعر ٩٠٪ وبفائدة ٩٪ . وبلغت قيمة القرض الحقيقية (بالجنهات الانجليزية) ١٧٦٨٠٠٠٠ بفرق ٣١٢٠٠٠٠ (أى ١٥٪ من أصل الدين) ومدة سداده خمسة عشر عاما من ١٨٦٧ الى ١٨٨١ على قسطين سنويا ، قدرها ٢٥٥٠٣٩٠ وضمنت الدائرة السنية بالاشتراك مع الحكومة هذا القرض . وبلغت سمرة هذه العملية ١٠٤٠٠٠٠ جنيه انجليزى^(٨٤) .

Sabry, M : pp. 126—127 ; Douin, G : tome 1 ere, pp. 290—293. (٨٣)

Cattail, J : p. 66 ; Sammarco, A : pp. 155—156. (٨٤)

ولما كانت البلاد قد أصيبت بضيق اقتصادى شديد عقب هبوط أسعار القطن ، فقد عمل اسماعيل على تلافى هذه الحالة السيئة^(٨٥) ، فأقبل على زراعة قصب السكر بالصعيد^(٨٦) ، وأتفق من الأموال المتحصلة عموماً على إنشاء مصانع جديدة للسكر^(٨٧) فى الفيوم وبني سويف وأسيوط وقنا ، وجلب اليها الآلات الحديثة من أوروبا^(٨٨) . كذلك عنى اسماعيل بتوفير مياه الري ، وذلك بإنشاء القنوات والرياحات وحفر القنوات والترع^(٨٩) .

وفضلاً عن ذلك كله ، فقد شاهد عامي ١٨٦٦ و ١٨٦٧ ثغرات طائلة بسبب إنشاء السبك الحديدية وخطوط الأسلاك البرقية^(٩٠) وأعمال اصلاح الموانئ^(٩١)

(٨٥) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى نهاية عصر اسماعيل (المجلد فى التاريخ المصرى . القاهرة ١٩٤٢) ص ٣٧١

(٨٦) كانت زراعة القصب وصناعة السكر قد أهل شأنهما عند ارتفاع أسعار القطن ، فانخفضت كمية السكر من العشرين أو الخمس وعشرين ألف قنطار بين عامي ١٨٥٣ و ١٨٥٩ إلى أن بلغت ٢٣٠٠ قنطار فى عام ١٨٦٤ ، ثم ١٠٩٠ قنطاراً فقط فى عام ١٨٦٦ واضطرت مصر إلى استيراد السكر المكرر من البلاد الأجنبية مثل فرنسا وبلجيكا .

(٨٧) كان لإسماعيل مصنعان هامان لصناعة السكر وتكريره فى المنيا والروضة ، كما كان لغيره من الملوك مثل الأمير عبد الحليم بن محمد على مصانع أخرى .

(٨٨) بلغ ما تكلفته هذه المجهودات ٦,١٠٠,٠٠٠ جنيه انجليزى .

(٨٩) بلغ عدد الترع التى حفرت فى عهده ١١٢ ترعة فى كافة أنحاء القطر ، كانت أهمها اثنتان : الترع الإبراهيمية لرى الأراضى فى مديريات أسيوط والمنيا وبني سويف ، وبدأ العمل فيها عام ١٨٦٧ وانتهى عام ١٨٧٣ ، ثم الترع الاسماعيلية لرى أراضى الدقهلية والشرقية ومنطقة القناة ، بفرعها الممتدين من الاسماعيلية أحدهما إلى السويس والأخرى إلى بور سعيد . وتكلفت الترع التالية ١٢,٦٠٠,٠٠٠ جنيه انجليزى . أنظر

Mulhall, M. G : «Finance in Egypt», Contemporary Review, XLII, 1882, pp. 526—535.

(٩٠) بلغت أطوال خطوط الأسلاك البرقية فى عهد اسماعيل ما يزيد على ٥٠٠٠ ميل . أما مكاتب البرق فكانت ١٥١ مكتباً ، منها ٢١ فى السودان وحده . وفى عام ١٨٦٥ اشترت الحكومة المصرية مكاتب البريد التابعة «لموتس» الإيطالى الجنسية ، فحولت إلى مصلحة أميرية ، وتقدمت هذه المصلحة لدرجة أن أقر المؤتمر الذى انعقد فى برن عام ١٨٧٥ انضمام مصر إلى الاتحاد البريدى ، وأجاز للحكومة المصرية الحق فى اغلاق المكاتب الخصوصية الأجنبية «فم لما أرادت ، بينا ظلت فرنسا الدولة الوحيدة التى احتفظت لأسباب سياسية بمكاتبها فى الإسكندرية والقاهرة .

(٩١) آمنت حكومة اسماعيل ميناء السويس الذى بدأته حكومة سعيد فى عام ١٨٥٦ ، فتكلفت أحواض السويس التى قاست بها شركة هوسو ١,٤٠٠,٠٠٠ جنيه انجليزى . ثم توفرت حكومة اسماعيل لاصلاح =

وفتح المدارس (٩٣) وتجهيز حملة كريت العسكرية (١٨٦٦ - ١٨٦٩) (٩٤) ، ثم بسبب الاهتمام بزيادة الجيش المصرى عموماً (٩٥) ، حيث كان من المتوقع قرب فتح المسألة الشرقية من جديد لسوء العلاقات بين اليونان وبين العثمانيين خلال اشتعال نيران الثورة فى كريت على الحكم العثمانى . ولا ريب أن العناية بالجيش وإيصاله الى ستين ألف جندى مسلحين بالبنادق الحديثة ، الى جانب العناية بالأسطول وإضافة ثلاث فرقاطات مدرعة اليه ، وتحصين الشواطئ المصرية ، قد كلف حكومة اسماعيل أموالاً كثيرة .

ثم يضاف الى ما تقدم ما كان مطلوباً من الخزينة المصرية دفعه سداداً للأقساط المستحقة فى عام ١٨٦٧ وقيمتها ١٥٠٨٠٦٣١ جنيهًا إنجليزيًا ، ثم لدفع الجزية السنوية للقسطنطينية ، وللمطايا التى صحت فرمان « الخديوية » فى يونية عام ١٨٦٧ . وهذا عدا ما تكلفته رحلة اسماعيل نفسه عندما دعاه الامبراطور نابليون الثالث لحضور معرض باريس الدولى عام ١٨٦٧ . وكان غرض اسماعيل من هذه الزيارة أن « يظهر مصر أمام العالم المتمدنين فى ثوب التقدم والرقى ، وليريه بذخه وجوده وسطوع معروضاتها فى ثوب الثروة التى لا حد لها ، ويقر فى القلوب قمتها غير المتناهية فى قدرتها على القيام بجميع تمهدهاتها المالية مهما بلغت قيمتها وأيا كانت مواعيد سدادها » (٩٦) . وزيادة على ما تقدم ، ففى عام ١٨٦٧ كان المطلوب من الحكومة المصرية لشركة قناة السويس

== ميناء الاسكندرية توسيعه ، فشيدت حوضاً عائماً من الحديد فى عام ١٨٦٨ ، كما شيدت حاجزاً ضخماً لصيانة السفن والميناء من الأمواج والعواصف ، بالإضافة إلى إقامة عدة أرصفة للشحن والتفريغ ، وتكلفت العمل الذى قامت به شركة « جرافيل » ٢٠٥٤٢٠٠٠ جنيه إنجليزى . وعلاوة على ذلك ، فقد أقيمت المنارات على ساحل البحر المتوسط ، ثم على ساحل البحر الأحمر الشرقى وخليج عدن . وبلغ عدد هذه المنارات نحو ١٥ وتكلفت ١٨٨٠٠٠٠ جنيه إنجليزى .

(٩٧) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعمير فى مصر من نهاية حكم محمد على إلى أوائل حكم توفيق (القاهرة ١٩٤٥) .

Douin, G : tome 1 ere, pp. 351—391.

(٩٣)

(٩٤) محمد محمود السروجى : الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر (القاهرة ١٩٦٧) .

(٩٥) أحمد عبد الرحيم مصطفى : علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩

(القاهرة ١٩٦٧) ص ٩٥

هو ٣٦٠٧٥٠٠٠ فرنك • فلهذه الأسباب اذن ، رأى اسماعيل لكى يسد قدرا من النفقات أن يقد قرضا جديدا فى علم ١٨٦٨ •

ولهذا القرض الجديد تاريخ فذ ، لما خف به من مظاهر سوء النية المتوفرة لدى الممولين الأجانب ، ثم لما أدت اليه المفاوضات المتتوية التى لزمته من تمهيد السبيل لبروز شخصية جديدة فى العالم المالى فى مصر ، هى شخصية اسماعيل صديق المفتش ، الذى ازداد بظهوره ذلك الارتباك والتخبط الذى لازم سوء الادارة المالية فى الأعوام التالية خصوصا • فانه ما شاعت الرغبة فى عقد قرض جديد حتى تهافت « أوبنهايم » وجماعته والسادة تشرنسكى وباستريه لعقده • بيد أنه لما كان الخديوى لا يرضى فى هذه الآونة عن أحد منهم لمواقفهم المعروفة فى القروض السابقة ، فقد أغفل اسماعيلهم ، ومال الى الاستماع الى رجل آخر هو دى لاشفاردير de La Chevardiére الذى عرض خدماته باسم بيت كارتريه وشركاه Carteret et Cie بباريس (٩٦) • ووقع وزير المالية (والداخلية) المصرية راغب باشا عقد القرض فى ٣ فبراير عام ١٨٦٨ (٩٧) ، لتوحيد الديون المصرية (بما فيها دين السكة الحديد ، وما عدا أذونات القري) •

غير أنه سرعان ما اتضح أن دى لاشفاردير كان لا يمثل أحد فى باريس ولا يحمل توكيلا ، بل كان من المغامرين الذين لا تعرف هويتهم • وهذا بالرغم من دعاواه المرضية ، ونجاحه فى التأثير على اسماعيل ووزير ماليته ، وحمل الخديوى خاصة على الاعتقاد بأنه ذو صلة — وإن كانت مبهمه — بالحكومة الفرنسية • فما أن انكشف أمر هذه القضية ، حتى غضب اسماعيل وعزل وزير ماليته ، الذى مكن ذلك الفرنسى المغامر من السخيرة بالحكومة المصرية ، بفضل طبيته الكبيرة وغفلته ، وانبرى الوزير الجديد (اسماعيل صديق) عندئذ حتى يتدارك الموقف ، يتدبر الأموال الضرورية لاجتياز الأزمة •

وكان صديق أخا لاسماعيل فى الرضاة و « صديقه وصفيه » (٩٨) ، وهو من أبوين فلاحين ، تنقل فى خدمة اسماعيل منذ حداثة ، فأظهر الاخلاص له ،

Cattaul, J : p. 75.

(٩٦)

Sabry, M : p. 136.

(٩٧)

(٩٨) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ٣٠

وصار يتقرب اليه بما أبداه من ضروب المهارة والنشاط في اجابة مطالبه ، حتى وثق به وولاه التفتيش في عموم الأقاليم ، فاشتهر أمره ، وحذق « المفتش » أساليب جباية الضرائب وجمع المال من الفلاحين (٩٩) ، وعرف بالجرأة والاقدام في ادارته ، وظهرت مواهبه الطيبة في الشؤون المالية ، فصار بعد ممارسة قليلة يدرك كنه العمليات المالية ويعرف كيف يساوم الممولين والوكلاء .

ولكن فاتحة أعمال هذا الوزير الجديد كانت منذرة بدخول الاضطراب على عمليات اسماعيل المالية جملة ، كما يدل على ذلك مسلكه في أول مفاوضة مالية اشترك فيها . فانه بعد أن خرج دى لاسفاردير من الميدان ، تقدم تشرنسكى لاقرض الحكومة . وبعد مفاوضة طويلة والتوقيع على عقد القرض ، « اكتشف » صديق عيوباً في الاتفاق وعمل على تقضه (١٠٠) . وقد يكون صديق محققاً لخوفه من تدخل فرنسا المالى في الشؤون المصرية ، اذ كانت ضمانات القرض المزمع عقده ايرادات الدولة العامة وخاصة ايرادات الجمارك . ولكن « اكتشافه » لميؤب الاتفاق بعد أن وقعه تشرنسكى بإشارة الخديوى ونقضه متأخراً ، كان له وقع سئ لدى دوائر الحكومة الفرنسية (١٠١) .

أما صديق ، وقد تعطل القرض ، فقد لجأ الى وسائل سقيمة لسد حاجة الخزانة الملحة الى المال . فبدأ يخضم سندات مالية بقيمة المليونين من الجنيهات الانجليزية : خضم ثلاثة أرباعها لدى بيت « أوبنهايم » المالى ، والباقي من مصارف القاهرة والاسكندرية . وازداد الدين مرة واحدة الى نحو المائة مليون من الفرنكات ، وهى المطلوبة من التمويض المحكوم به لشركة قناة السويس .

وعند صديق في الوقت نفسه الى اشراك مجلس النواب لتدبير الأموال ، وقد ازدادت الحاجة القصوى اليها . وكان المجلس منعقدا منذ شهر مارس برئاسة عبد الله باشا عزت . وقد ألف الأعضاء لجنة لبحث المسألة المالية بعد أن طلبت الحكومة منهم في خطاب العرش (١٦ مارس عام ١٨٦٨) أن يتذكروا من جديد في مسألة تعديل أقساط الأموال الأميرية الذى اقترحوه منذ العام

Dcey, E : The Story of the Khedivate, p. 89.

(٩٩)

Cattani, J : p. 76.

(١٠٠)

Sabry, M : pp. 142—144.

(١٠١)

الماضي حتى يتمكنوا من التوصل الى حل في مصلحة الخزانة والمزارعين معا .
وحينذاك لم يقدم صديق الوسيلة للتأثير على الأعضاء ، فقدمت اللجنة تقريرها
في ١٨ مايو عام ١٨٦٨ وخلاصته :

أولا - ان الحكومة قد دفعت أربعة عشر مليونا من الجنيهات الانجليزية
لسداد جزء من ديون المهد السابق وفوائدها وتقفات المنشآت العمرانية
والأعمال العامة التي تمت في المهد الحالي . وهذا على الرغم من النقص الذي
ألم بدخل الجمارك لتخفيض ضرائب الصادر من ١٢٪ الى ١٪ ، لأن البلاد
كانت تصدر أكثر مما تستورد ، ولذلك ما كان يتأثر دخلها كثيرا من الاحتفاظ
بنسبة ضريبة الوارد وهي ٧٪ كما حدث .

ثانيا - ان المتبقى على الحكومة والواجب دفعه في الفترة من سبتمبر عام
١٨٦٧ لغاية سبتمبر عام ١٨٧٠ هو ٦٠٠٠٠٠٠٠ جنيه انجليزي بخلاف القوائد .
وعلى ذلك ، اقترحت اللجنة فرض « السدس » وهي ضريبة اضافية على الأراضي
والنخل وغيرها لمدة أربعة أعوام مالية (من سبتمبر عام ١٨٦٧ لغاية سبتمبر
عام ١٨٧١) . ولكن لما كان المتحصل منها لا يكفي لسداد المطلوب من الحكومة
فقد أشارت اللجنة أيضا بمقد قرض (١٢) .

وبذلك حصل صديق على بغيته . وشرع من فوره يخاطر بيت «أوبنهايم»
المالي . فعقد القرض في أول يونيه عام ١٨٦٨ ، وكانت قيمته ست ملايين من
الجنيهات الانجليزية تخصص لسداد الدين السائر . ولكن صديق سرعان
ما أدخل التعديلات المتتالية على عقد القرض ، حتى كان الاتفاق نهائيا في ٧ يوليو
من العام نفسه (١٢) ، وبه أصبحت قيمة القرض الاسية ١١٨٩٠٠٠٠ من
الجنيهات الانجليزية بفائدة ٧٪ ، وصل الخزانة المصرية منه ٧١٩٠٠٠٠ جنيه
فقط ، بفرق ٤٦٧٠٠٠٠ جنيه ، لأن سعر الاصدار كان ٧٥٪ . وكانت مدة
سداد القرض ثلاثين عاما من يناير عام ١٨٦٩ لغاية عام ١٨٩٨ ، وتدفع الحكومة

منه قسطين سنويا قدرهما ٩٥٣ر٣٠٧ جنيهًا • وبلغت قيمة عمولة القرض
وسمسته ١ر٧٢٧ر٥٠٠ جنيه انجليزي (١٠٤) •

ولم يكن القرض كافيا لسداد الدين السائر بأجمعه كدعوى المفتش ، فلم
يتسدد غير جزء منه • وهذا بينما ظلت الديون الثابتة تتحملها الخزنة ، لأنه
كان من المتعذر توحيدها أو سدادها منه • فقد بلغت قيمة الديون الثابتة بعد
القروض السابقة في أعوام ١٨٦٢ و ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٦ و ١٨٦٧ نحو
٩٢١ر٣٦٤ر٣٠٠ جنيه انجليزي ، كان كل ما سدده الحكومة منها هو ٩٢١ر٣٣٠
جنيهاً والباقي عليها ١٦ر٥٤٢ر٩٨٠ جنيه انجليزيا •

ولذلك استمر المفتش يصدر سندات جديدة • غير أنه بالرغم من اشراف
مالية الدولة على الاضطراب ، وبسبب تلبد العيوم في أفق السياسة الدولية عندما
ساعت العلاقة بين اليونان وتركيا من جراء استمرار الثورة الكريتية ، وما أحدثه
ذلك من القلق في نفوس المالين الأجانب في مصر ، فقد استقبلت البلاد عامها
الجديد (١٨٦٩) بالاحتفالات المختلفة ، وكان منها الاحتفال الذي أقامه
اسماعيل ابتهاجا بافتتاح قناة السويس • أما الدعوة التي وجهها الى ملوك
أوروبا وأعلام الثقافة فيها لحضور هذا الاحتفال ، فقد أدت — الى جانب
أسباب أخرى — الى توتر العلاقات بينه وبين السلطان ، حتى صدر اليه في ٢٩
نوفمبر من العام نفسه فرمانا منعت به مصر من عقد القروض الخارجية من غير
موافقة السلطان (١٠٥) •

وفي نوفمبر كانت الثقة القليلة التي عادت الى النفوس في بداية العام قد
زالت • فإن المفتش حتى يحصل على المال ، لم يتورع عن اتباع كافة الطرق
الموصلة الى غرضه ، وكان منها بيع محصل بذرة القطن قدا ، على أن يسلمه
الى التجار بعد مهلة وجيزة (خمسة أو ستة شهور) • ولكن بدلا من ذلك ،
باع المفتش ذات المحصول للمرة الثانية وقبض ثمنه • ولذا لم ير التجار بدا —
وكأنوا جلهم من الأجانب — الا أن يقبلوا التسوية التي عرضتها عليهم الحكومة

Cattaut, J : pp. 75—77.

(١٠٤)

Douin, G : tome 2 eme, pp. 486—7 ; Sabry, M : p. 147 ; Dicey, (١٠٥)

E : p. 84.

خيرا من مقاضاتها ، فباعوها بدورهم بسعر ٧٨ قرشا ما اشترؤه منها سابقا
 بسعر ٧١ قرشا للأردب ، على أن تدفع لهم القيمة سندات مالية بفائدة قدرها
 ١٢٪ سنويا . ووقعت هذه العملية المزرية في صيف عام ١٨٦٩ . غير أن الموقف
 لم يتحسن بسبب ثغرات افتتاح القناة وما تكلفته مجهودات الإصلاح القضائي .
 وهذا الى جانب ما خرج من خزانة الدولة تسديدا لأقساط الديون المستحقة
 ولما هو مطلوب لشركة القناة والخراج للباب العالي ، وقدره جميعا
 ٤٣٣٧٩٣٦ جنيها انجليزيا . فبدأ العام الجديد اذن والحاجة الى المال ملحة .

وفي عام ١٨٧٠ تمكن المفتش من تخفيف شدة الموقف بالوسائل المعروفة ،
 وهي بيع سندات المالية على أن تسدد بعد ثلاثة شهور فقط ، وعلى أن يدفع
 لها ربطا قدره ١٤٪ وعمولة ١/٤٪ ، ثم المضاربة بشراء ما يعرض في السوق
 من السندات المالية ذات الاستحقاقات القريبة ، مما أدى الى تسارع الناس
 لبيع ما في أيديهم ، فندر في السوق هذا النوع من السندات ونزل معدل الخصم
 من كثرة العروض منها من ١٤٪ الى ٩٪ ، وتحول الناس الى شراء السندات
 ذات الاستحقاقات البعيدة لاستثمار أموالهم ، فتمكن المفتش بفضل هذه
 الطريقة من تأجيل مطالبة أصحاب الدين السائر الى مدة سنة ونصف
 تقريبا .

وأما الوسيلة الثالثة ، فكانت عقد قرض جديد مع مجموعة « بيتشوفيم
 و جولد شميد » Bischoffsheim et Goldschmid المالية بباريس ،
 قيمته الاسمية بالجنهات الانجليزية (٧١٤٢٨٦٠) والحقيقية (٤٢٨٥٠٠٠)
 أى بفرق (٢٨٥٧٨٦٠) ، وكانت فائدته ٧٪ وسعر الاكتاب به للجمهور
 ٧٠٪ ، ومدة سداده عشرين عاما في قسطين سنويا قدرهما ٧٦٤٢٣٦ جنيها
 انجليزيا من اكتوبر عام ١٨٧٠ لغاية أبريل عام ١٨٩٠ . وكان سمسار القرض
 « بنك فرانكوا جسيان » Banque Franco-Egyptienne ، وبلغت
 سميرته ٧١٥٠٠٠٠ جنيه ، وهو مبلغ يعادل ثلاثة أرباع رأس مال البنك كله .
 وجعلت ضمانة القرض الدائرة السنوية ، أى أملاك الخديوى الخاصة : الأراضي
 والمقارنات ومصانع السكر وزراعات القصب في الوجه القبلي (١٦) ، وذلك

لأن قرض عام ١٨٦٨ كان يمنع الحكومة من الاقتراض لمدة خمس سنوات .
وهذا الى جانب قيد فرمان نوفمبر الآتف .

على أن قرض الدائرة السنية هذا لم يكن ناجحا . اذ لم يكتب الناس الا في ثلثيه فقط . والسبب في ذلك هو معارضة الباب العالي الذي احتج على هذا القرض واعتبر عقده منافيا للفرمان المتقدم واتخذ الوسائل لتعطيله ، وكذلك معارضة أصحاب قرض عام ١٨٦٨ ، ثم انفجار الحرب السبعينية بين فرنسا وألمانيا (١٧) واضطراب الأسواق المالية ، فسقط سعر القرض ، وارتفع معدل خصم السندات المالية . وهذا بينما كان القسط المطلوب من الخزنة لسداد الديون الثابتة في عام ١٨٧٠ قدره ٣٧٦٥٠٥٦١ جنيا انجليزيا .

لذلك أوجبت هذه الحال السيئة التفكير ، ووجد الخديوى أن خير طريقة ولتسوية مركزه المالى هى توحيد الديون وجعل القسط السنوى مناسبا مع كفاية البلاد ومقدورها . وعلى هذا الأساس طفق وزير المالية (صديق) يصل الجهد لحل الأزمة الى أن هداه تفكيره الخصب الى مشروع « لم يسبقه أحد اليه ، لا فى العالم الغربى مهد التفنن المالى ، ولا فى العالم الشرقى مهد التفنن فى المظالم . ذلك المشروع هو قانون المقابلة » (١٨) .

صدر قانون المقابلة فى ٣٠ أغسطس عام ١٨٧١ (١٣ جمادى الآخرة عام ١٢٨٨ هـ) من ٤٥ مادة ، ومرفق به تقرير مرفوع من المجلس الخاص الى الخديوى يفيض فى بيان الأسباب التى أدت الى سوء الحالة المالية والتى تنحصر خاصة فى سر الفوائد العالية التى تدفعها الحكومة ، والتى أدت بالتالى الى اقتراح المشروع الجديد . وهذا الى جانب اظهار الفرض منه ، وهو أن يتخلص الأهالى من دفع فوائد الديون الباهظة التى ترهق مالية الدولة بالاقدام على شراء الدين ذاته . ولما كان هذا الدين فى اعتبار المجلس الخاص - أو فى اعتبار اسماعيل صديق - يوازى ضعف مجموع الضرائب العقارية فى مدة ست

The New Cambridge Modern History, vol X, pp. 577—602 ; Grant, (١٠٧)

A. J & Temperley, H : Europe in the Nineteenth century 1789—1914 (London 1920), pp. 342—356.

(١٠٨) إلياس الأيوبي : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٨٢

سنوات ، فقد أصبحت طريقة شراء هذا الدين ، هي أن يدفع أصحاب الأراضي الضرائب المقررة على أراضيهم في السنوات الست دفعة واحدة مقدما ، أو في أقساط سنوية لا تزيد مدتها عن ست سنوات أيضا ، علاوة على الضريبة السنوية ، ويحسب للأهالي فوائد عما يدفعونه مقدما قدرها $\frac{1}{3} \times \frac{1}{8}$ ، وينالون في نظير ذلك أيضا إعفاء أطيافهم على الدوام من نصف الضرائب المربوطة عليها ، كما يستمر في المستقبل سعر الضريبة على أطيافهم من غير زيادة ، وألا يطالبهم أحد بأية سلفة مهما كانت الضرورة القاهرة « كشرق أو غرق أو أشغال منفعة عامة » إلا بعد أن يصدق على ذلك مجلس النظار ومجلس شورى النواب (١٠٩) .

ذلك هو قانون المقابلة . وسبب هذه التسمية هو الفائدة التي ينالها الأهالي على الوجه المتقدم في مقابل الفائدة التي تنالها الحكومة ، وهي في الحقيقة التمكن من عقد قرض داخلي بفائدة $\frac{1}{3} \times \frac{1}{8}$ ، أي أقل من الفائدة التي كانت تدفعها الحكومة وقتذاك على دينها السائر . وهذا وقد نصت المادة ٢٩ على أن يتمتع وزير المالية من عقد القروض أو اصدار السندات المالية بعد حصوله على جميع المبالغ المطلوبة .

وكانت تقدر قيمة ضريبة الأرض في عام ١٨٧١ بمبلغ ١٥٠٠٠٠٠٠ جنيهه انجليزي . وعلى ذلك ، انتظرت الحكومة أن تحصل من المقابلة نحو ٣١ مليونا من الجنيهات الانجليزية (١١٠) . ولكن لما كان دفع المقابلة اختياريا وليس اجباريا كما ورد في المادة الثانية من قانونها ، فانه لم يصل الحكومة من هذا القرض حتى نهاية عام ١٨٧١ سوى خمسة ملايين جنيه انجليزي تقريبا (١١١) . وهذا على

Cattail, J : Op. cit, pp. 103—7 ; Annexe IV, Note sur la loi de la Moukabala, pp. 185—196. (١٠٩)

(١١٠) قدر ستيفن كيف قيمة ضريبة الأرض بنحو ٤,٧٩٣,٤٥٩ جنيه انجليزي سنويا ، وقدر بالتالى ما كان ينتظر أن تحصله الحكومة من قانون المقابلة بنحو ٢٨,٧٦٠,٧٥٤ جنيه انجليزي .

(١١١) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ١٥٨ . وقد قدر يوسف تطلوى المبلغ المحصل من هذا القرض حتى نهاية عام ١٨٧١ بنحو سبعة ملايين وخمسمائة ألف جنيه مصرى ، في حين قدره مصطفى الحفناوى بنحو خمسة ملايين جنيه مصرى فقط . أنظر

Cattail, J : Op. cit p. 100 ; El-Hefnaoui M : Brief Survey of the Egyptian Problem, pp. 9—10.

الرغم من التسهيلات العديدة ، اذ جعل الدفع نقدا أو عينا أو بسندات مالية • ولم يدفع المقابلة سوى من أراد التقرب الى الخديوى ورجال الحكم أو أصحاب الأراضي المصروفة « بالخراجى » ، وهى الأراضي التى كانت لا تزال ملكا للحكومة ، وان ظل لأصحابها المقيمين عليها حق استغلالها والتصرف فيها ، على شريطة أنه اذا تأخروا عن دفع الضريبة خمس سنوات عادت الأرض للحكومة • وهذه عادة كانت تبيها بثن يوازى قدر المتأخر من الأموال المربوطة عليها • وأصبح ملاك الأراضي الخراجية أصحابها الحقيقيين نهائيا عند دفع كل قيمة المقابلة •

لم تكف اذن الأموال المحصلة من المقابلة لسداد حاجة اسماعيل المستمرة للمال • فان الاحتفالات التى أقامها ابان شتاء عام ١٨٧١ فاقت فى الأبهة والبذخ احتفالات الأعوام السابقة • وفى مطلع عام ١٨٧٢ أقيمت حفلات زواج أبناء الخديوى الثلاثة : توفيق وحسين وحسن ، واستمرت « أفراح الأنجال » هذه أربعين يوما كاملة^(١١٢) ، وصحبها احتفالات شعبية تكلفت أكثر من ٥٢ مليوناً من الفرنكات^(١١٣) • ولذا فقد عمد صديق - رغم تمهيداته - الى اصدار سندات جديدة على المالية فى أكتوبر عام ١٨٧١ ، وفى يناير ومارس ويونيه من العام التالى ، وجعلت هذه السندات الجديدة قابلة للدفع فى لندن وباريس ، خلاف المتبع فى السندات السابقة التى كانت تدفع قيمتها فى القاهرة والاسكندرية ، مما فتح الباب للمولين الأجانب لارهاق الحكومة المصرية • اذ أصبح متعذرا من الآن التأجيل أو التباطؤ فى تسديد هذه السندات الجديدة فى مواعيدها •

غير أنه ما كان يغيب عن صديق أن هذه الوسائل ما هى الا مسكنات وقتية. ولذا طفق يأخذ العدة لعقد قرض كبير يتمكن به من توحيد الديون وسداد الدين السائر ، واجتهد حتى يقنع الخديوى بوجهة نظره ، ونجح فى ذلك ، وخاصة عندما بلغ الدين السائر فى ربيع عام ١٨٧٣ نحو ٢٦.٠٠٠.٠٠٠ جنيه انجليزى بفائدة ١٤٪ • وهذا فوق الديون الثابتة وفوائدها السنوية ، فقد

(١١٢) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ٦٨ - ٧٠

Sahry, M : Op. cit, p. 184.

(١١٣)

بلغت أقساط الدين الثابت وفوائده في عام ١٨٧١ نحو ٣٧٦٥٥٦١ جنيهها
 انجليزية ، وعام ١٨٧٢ نحو ٣٧٦٥٥٦١ جنيهها انجليزية ، وعام ١٨٧٣ نحو
 ٦٢٣٣١٢٣٢٢ جنيهها انجليزية . فسمى الخديوى من جهته لتكسيير القيود التى
 فرضها فرمان الباب العالى فى نوفمبر عام ١٨٦٩ ، وذلك بأن يستعيد الحق فى
 عقد القروض الخارجية من غير الرجوع الى السلطان . وتكللت مساعيه بالنجاح
 بسبب ما بذله من العطايا لرجال الدولة العثمانية . فنال هذا الحق صراحة فى
 فرمان ٢٥ سبتمبر عام ١٨٧٢ (١١٤) ، وبدأت من ثم المفاوضات للحصول على
 القرض الجامع أو الشامل فى العام التالى . وفى أثناء ذلك كانت تدور مفاوضات
 من نوع آخر مع بيت « أوبنهايم » لعقد القرض الكبير الذى رأى أنه السبيل
 الوحيد للخروج من الأزمة التى بدأت تستحكم حلقاتها .

أما هذا القرض الكبير ، فكان من أسوأ العمليات التى قامت بها حكومة
 اسماعيل . وعقد هذا القرض فى يونيه عام ١٨٧٣ مع بيت « أوبنهايم » . وكانت
 قيمته الاسمية ٣٢ مليوناً من الجنيهات الانجليزية ، وصل الحكومة المصرية منه
 نقداً ١٢٣٧٠٠٧٧ جنيه ، وتعهد مصدر القرض أن يدفعوا تسعة ملايين منه
 سندات مالية وحوالات بسعر ٩٣٪ ، أى بما كانت قيمته ٨٢٣٧٠٠٠٠ جنيه .
 ولما كان متوسط السعر الذى اشترت به هذه الأوراق المالية هو ٧٥٪ ، فيكون
 المصدرون قد ربحوا من هذه العملية الأخيرة وحدها ١٢٦٢٠٠٠٠ جنيه .
 وبإضافة نفقات القرض إليها ، وهى ١١٢٥٩٩٢٣ جنيه : يكون مقدار
 ما حصل عليه الدائنون هو ١٢٨٧٩٩٢٣ جنيه انجليزية ، أى ما يزيد على
 ٦٣٪ من قيمة القرض الحقيقية (٢٠٧٤٠٠٧٧) . وهذا هو أقصى حالات الربا
 الفاحش التى وصلت إليها أطماع المولدين الأجانب فى معاملتهم مع الحكومة
 المصرية .

Douin, G : tome 2 eme, pp. 645—665.

(١١٤)

وفى رسالة إلى لورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية بتاريخ ١٤ أكتوبر عام ١٨٧٢ ، قدر
 السير هنرى إليوت سفير بريطانيا القسطنطينية النفقات التى تكلفها اسماعيل سبيل الحصول على هذا القرض
 بنحو ٩٦٠,٠٠٠ جنيه انجليزية على النحو التالى : ٩٠٠,٠٠٠ جنيه دفعت لسلطان شخصياً ، و ٢٥,٠٠٠
 جنيه لصدر الأعظم و ١٥,٠٠٠ جنيه لوزير الحرب و ٢٠,٠٠٠ جنيه لموظف القصر السلطانى . أنظر

Sabry, M : Op. cit, pp. 154—155.

وكانت فائدة هذا القرض $\frac{7}{100}$ ومدته ثلاثين سنة من أبريل عام ١٨٧٤ الى أكتوبر عام ١٩٠٣ ، يتسدد في قسطين سنويا قدرهما ٢٥٦٥٦٧١ ر.٢٥ جنيها انجليزيا . وتمهدت الحكومة المصرية بأن تمتنع عن عقد أية قروض أخرى لغاية ١٥ يوليو عام ١٨٧٥ ، على أن يكون لها الحق بعد هذا التاريخ في إصدار سندات مالية بما لا يتجاوز عشرة ملايين من الجنيهات للاتفاق منها على السكك الحديدية والأعمال العامة لغاية ١٥ يوليو عام ١٨٧٨ ، فتصبح بعد هذا التاريخ حرة في عملياتها . أما ضمانات هذا القرض فكانت كثيرة : إيرادات البلاد العامة وإيرادات السكك الحديدية في الوجه البحرى والضرائب الشخصية وغير المقررة والمكس على الملح ومليون جنيه من المقابلة ، وكل الإيرادات المخصصة لسداد القروض الأخرى عندما تصبح حرة (١١٥) .

غير أنه بدلا من أن يساعد على سداد الدين السائر أو توحيد الديون ، كان في الحقيقة هذا القرض سببا في ازدياد سير الأزمة وتمقد الأمور ، فان الدين السائر وحده مثلا كان في تاريخ إصدار القرض قد وصل الى ٣٣ مليونا من الجنيهات تقريبا ، في حين كان ما دخل الخزنة قد لا يتجاوز ١٢٣٧٠٠٧٧ ر.٣٧ جنيها . وكان من المنتظر اذن أن تلجأ الحكومة بعد مضي بضع شهور الى عملياتها المعروفة . وهذا بالرغم من تحميل الدولة عبءا ماليا ثقيلا ، سوف يؤدي عاجلا الى ارتباكات ذات عواقب بعيدة . اذ ارتفع بسبب هذا القرض مقدار القسط السنوي الذي تدفعه الحكومة سدادا لديونها الثابتة الى ٧٠١٨٤٥ ر.٥ جنيها في كل من العامين التاليين (١٨٧٤ و ١٨٧٥) ، ثم الى ٦٩٥١٨٩٩ ر.٦ جنيها في كل من الأعوام الثلاثة الباقية من حكم اسماعيل .



وكانت صحف القسطنطينية قد أكدت في ٦ أكتوبر عام ١٨٧٥ ما سبق أن أعلنه الباب العالي منذ يومين بخصوص العجز في ميزانية الدولة والاجراء الذى سوف يتخذ حيال الدين العثماني العام ، فقالت انه قد تقرر أن يدفع نقدا نصف الفائدة المستحقة على هذا الدين وكوبونات استهلاكها ، وأن النصف الباقي سيستلمه الدائنون على شكل سندات على الخزنة بفائدة قدرها $\frac{5}{100}$ ، وهو

القرار الذي لم يلبث أن ضمنه الباب العالي مرسوم ٩ أكتوبر عام ١٨٧٥ (١١٦) .
وكان معنى هذا القرار اعلان افلاس الحكومة العثمانية ، الأمر الذي أزعج
دائتي مصر وجعلهم يخشون أن يقتدى الخديوى بالسلطان ويعلن افلاسه (١١٧) .

ولكن الخديوى سرعان ما عرض على الحكومة الفرنسية بيع أسهم مصر
في قناة السويس بشمن قدره مائة مليون فرنك ، ودخل بهذا الصدد في مفاوضات
مع المالىين الفرنسيين . ورغم موافقة اللوق ديكاكز Décazes وزير الخارجية
الفرنسية على شراء هذه الأسهم ، فإن المفاوضات لم تلبث أن توقفت بسبب
امتناع مجلس الوزراء الفرنسى عن تأييد تلك العملية (١١٨) خشية اغضاب
بريطانيا التى كانت قد أبدت على لسان وزير خارجيتها لورد دربي Derby
اهتمامها بالقناة (١١٩) ، كنتيجة لازدياد استخدام السفن البريطانية لها (١٢٠) .
وعلى مسؤوليته الخاصة ، ودون الحصول على موافقة البرلمان الذى كان وقتئذ
في عطلة (١٢١) ، أسرع بنيامين دزرائيلى Disraeli رئيس الوزارة البريطانية
(١٨٧٤ - ١٨٨٠) بالحصول من بيت روتشيلد على أربعة الملايين جنيه

Blaisdell, D. C : *European Financial Control in the Ottoman* (١١٦)
Empire, p. 80.

(١١٧) أحمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية (القاهرة ١٩٦٥) ص ٢٥

Freycinet, C. de : *La Question d'Egypte*, p. 151. (١١٨)

(١١٩) كانت بريطانيا قد أثارت بادئ ذي بدء معارضة شديدة لتعطيل مشروع قناة السويس في عهد
سميد ، لأنها إلى جانب خوفها من ضياع نفوذها في مصر كانت تخشى أن يهدد الطريق الجديد مصالحها في
الهند وفي الشرق عموما بوقوعه في قبضة الفرنسيين ، وهذا بينما كانت بريطانيا تبذل في الواقع كافة جهودها
لمنع الفرنسيين من التفاد إلى البحر الأحمر أو بسط نفوذهم في المحيط الهندي . ولذا عملت بريطانيا لتعطيل
المشروع ، فأخذت تثير الباب العالي وتبث الدسائس ضد سميد في الآستانة ، ثم وقفت إلى جانب اساميل
في نضاله ضد شركة القناة . ولكن خطة بريطانيا حيال القناة ذاتها كانت قد تغيرت منذ أن سارت أعمال
الحفر حيثما ، فضف عداؤها لها تدريجيا ، ولم يلبث أن انتهى الصراع الطويل بينها وبين فرنسا حول القناة
بافتتاح هذا المجرى المائى الملاحة العالمية في عام ١٨٦٩ . أنظر

Numair Saif al Din, I : *England's Opposition to the Suez Canal Project*, M. A.
Thesis (1934); Halberg, ch. W : *The Suez Canal ...* (New York 1931), p. 207
seqq ; Freycinet, c. de : *Op. cit*, pp. 116—121 ; Douin, G : tome 1 ere, pp. 189—193.

Hoskins, H. L : *British Routes to India* (New York 1928), pp. (١٢٠)
469—470.

Lenczowski, G : *Op. cit*, p. 384. (١٢١)

الانجليزى (مائة مليون فرنك) المطلوبة لشراء الأسهم المذكورة ، ووقع مع الخديوى فى ٢٥ نوفمبر عقد البيع (١٣٣) . وفى اليوم التالى ، أودعت تلك الأسهم القنصلية البريطانية العامة بالقاهرة .

وكان الخديوى - أملا فى دعم مركزه المالى لدى الدول الدائنة - قد طلب منذ أواخر أكتوبر من بريطانيا أن تعاونه على اجتياز مصاعبه المالية ، بارسال « موظفين حكوميين يتميزان بالكفاءة ، ولهما خبرة وثيقة بالنظام المتبع فى وزارة مالية صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا » لكى يساعدوا وزير مالىته على اصلاح الادارة المالية بالبلاد . ولكن بريطانيا بدلا من أن تبث بالموظفين المطلوبين ، أرسلت بعثة خاصة Special Mission برئاسة ستيفن كيف عضو مجلس العموم البريطانى لاجراء تحقيق حول أوضاع مصر المالية (١٣٣) . وفى ١٦ ديسمبر عام ١٨٧٥ وصلت البعثة الى الاسكندرية وبارحت البلاد فى ٢١ فبراير من العام التالى . ورغم أن كيف لم يخول رسميا فحص أحوال المالية المصرية ، فقد تلقى بيانات واحصائيات من الموظفين المصريين مكنته من أن يضع تقريره المشهور ، الذى نشر فى ٢ أبريل عام ١٨٧٦ بصحيفة «التييمز» اللندنية . أما هذا التقرير فقد عرض لتفاصيل دخل مصر ومصروفاتها ، واقترح لانهاء الارتباك المالى تثبيت وتوحيد الديون بفائدة معتدلة وتناسب مع موارد البلاد ، وتخصيص نصف هذه الموارد لخدمة الديون ، كما نصح لضمان الدقة

(١٢٢) Dacey, E : Op. cit, pp. 98—104. وكان عدد الأسهم المباعة لبريطانيا كما ورد فى عقد البيع هو ١٧٧,٦٤٢ سهما . وهو العدد الذى اكتب به سعيد فى أسهم شركة القناة لحساب الحكومة المصرية . بيد أنه اتضح بعد ابرام الصفقة أن الحكومة المصرية قد قصرت فى ١٠٤٠ سهما ، فخصم ثمنها وهبط المبلغ إلى ٣,٩٧٦,٥٨٠ جنيها . فضلا عن ذلك ، فقد استردت الحكومة البريطانية من الحكومة المصرية الجزء الأكبر من هذا المبلغ بطريقة ماهرة خادعة . إذ كان اسماعيل قد تنازل لشركة القناة طبقا لاتفاق ٢٣ أبريل ١٨٦٩ عن فوائد أسهم مصر لمدة ٢٥ سنة تنتهى فى عام ١٨٩٤ . فلما باع اسماعيل أسهم مصر لانجلترا ، طلبت الأخيرة أن تدفع لها مصر فوائد بنسبة ٥ ٪ من قيمة الثمن مقابل حرمان الحكومة البريطانية من أرباح الأسهم طوال هذه المدة . أنظر

The Cambridge History of British Foreign Policy, vol 3, p. 157.

Dacey, E : Op. cit, p. 124.

(١٢٣)

في سير الأعمال والاقتصاد في النفقات بوضع الادارة المصرية تحت « المراقبة المالية » (١٢٤) .

ولم يلبث أن بدأ التدخل السياسى في شئون مصر ، حينما أرغم الخديوى على الموافقة على تسليم موارد البلاد المخصصة للديون « لصندوق الدين العمومى » Caisse de la dette publique ، الذى أصدر اسماعيل مرسوما بإنشائه في ٢ مايو عام ١٨٧٦ لتسلم إيرادات المصالح المحلية : الجمارك والسكك الحديدية وبعض المديرات وغير ذلك مما يبلغ دخله في العام ٨٠٠.٠٠٠ جنيه ، بالإضافة الى دخل أراضي الدائرة السنية وقدره ٦٨٤.٠٠٠ جنيه (١٢٥) . وفي ٧ مايو أصدر الخديوى مرسوما آخر توحدت بموجبه الديون من ثابتة وسائرة في دين واحد قيمته ٩١ مليوناً من الجنيهات الانجليزية بفائدة ٧٪ ومدة استهلاكه ٦٥ سنة . وكان من نتيجة ذلك أن تساوى حاملو سندات الدين السائر مع حاملى سندات الدين الموحد . وفي ١٤ مايو أصدر الخديوى مرسوما ثالثاً لانشاء مجلس أعلى للمالية مهمته التفتيش على إيرادات وخزائن الحكومة وملاحظة الدخل والمنصرف ومراجعة الحسابات والتحقق من صحتها ، ثم بحث بمشروع الميزانية الذى تقدمه الحكومة كل سنة (١٢٦) .

وفي ٨ أبريل عام ١٨٧٦ أصدر الخديوى مرسوما بتأجيل دفع أرباح سندات الخزائنة — التى تستحق الدفع في هذا الشهر والشهر التالى — لمدة ثلاثة شهور (١٢٧) ، فخشى الدائنون الفرنسيون أن يكون هذا المرسوم ممهداً لإعلان إفلاس الخديوى ، ومن ثم صاروا يضغطون بشدة على حكومتهم للتدخل واقناع الخديوى بتأجيل اعلان إفلاسه . وسرعان ما أقدمت الحكومة الفرنسية

The Cambridge History of British Foreign Policy, vol 3, p. 159. (١٢٤)

(١٢٥) روزشتين : ص ٢٥ وكذلك

Compte Rendu des Travaux de la Commission de la Caisse Spéciale de la Dette Publique d'Egypte, du 15 Jan. 1877 au 31 Jan. 1878 (Le Caire 1898), pp. 9—13 ; Freycinet, c. de : Op. cit, pp. 157—9 ; Robinson, R ; Gallagher, J ; Denny, A : Africa and the Victorians. The Official Mind of Imperialism (London 1961), p. 84

(١٢٦) محمد قزاد شكرى : مصر والسودان ص ١٦١

The Cambridge History of British Foreign Policy, vol 3, p. 159. (١٢٧)

على تنسيق جهودها مع الحكومة البريطانية ، التي أطلقت أيدي حملة السندات الانجليز في التوصل الى اتفاق مع اخوانهم الفرنسيين ، حتى يستطيع الفرقان أن يعمل معا على صفاء النيل ، الأمر الذي كان من نتيجته ارسال بعثة الى مصر تمثل أصحاب الديون الثابتة الذين ألحق بهم الضرر توحيد الديون ، لكي تقوم هذه البعثة بتصفية عامة للمسألة المالية . وفي اكتوبر عام ١٨٧٦ جاءت الى مصر بعثة جوشن Goschen وجوير Joubert . وكان جوشن يمثل الدائنين الانجليز ، في حين كان جوير يمثل الدائنين الفرنسيين .

وتضمنت تسوية جوشن وجوير للمسألة المالية المصرية وجهين ، أحدهما مالى والآخر سياسى . فمن الناحية المالية اقترحت التسوية تحويل الدين السائر الى دين ثابت مع تخفيض الفائدة التي تمنح لحملة سندات الى ١٠٪ . ومن جهة أخرى ، لا يدخل دين الدائرة السنية الخاص بالخدوى في هذا الدين الثابت ، بل يضم الى الدين السائر ويكون منهما دين واحد فائدته الاسمية ٥٪ . وفضلا عن ذلك ، لا يدخل في الدين الثابت العام القروض القصيرة الأجل (emprunts court terme) التي عقدها الخدوى مع بيت فrolنج-جوشن أساسا ابان سنوات ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧ و قيمتها ٤٣٩٢٠٦٦ رطل اعتبارات فنية كما قيل والحقيقية لمصلحة فrolنج - جوشن ، بل تعتبر ديناً ممتازا Dette Privilegiée قائما بذاته وتظل فائدته ما بين ١٠٪ و ١٢٪ . وهذه الوسائل ينقص الدين الثابت الحقيقى الى ٥٩ مليوناً بفائدة ٧٪ من قيمته الاسمية . ولاجراء هذا التحويل يعقد قرض ممتاز جديد قدره ١٧ مليوناً وفائدته ٥٪ ، وبذلك كله تصبح الأموال المخصصة لخدمة الديون والتي يكون على مصر أدائها سنوياً ٦٥٠٠٠٠٠٠ رطل جنيه أى نحو ٦٦٪ من دخلها الرسمى .

وأما من الناحية السياسية ، فقد اشترطت التسوية انشاء نظام « المراقبة الثنائية » ، وذلك بتعيين مراقبين عامين غير هيئة صندوق الدين العمومى ، أحدهما لمراقبة ايرادات الحكومة والآخر لمراقبة مصروفاتها ويشتركان في اعداد الميزانية ، على أن يسلم المراقبان الانجليزى والفرنسى الايرادات الى لجنة للدين العام ، فتضع هذه ما كان مخصصا من تلك الايرادات لخدمة الديون في بنكي

انجلترا وفرنسا ، بالإضافة الى انشاء « هيئة خاصة » أو لجنة مختلطة من انجليز وفرنسيين ومصريين لادارة السكك الحديدية (١٢٨) .

وكان بسبب الضغط الذى تعرض له الخديوى من جانب قنصلى بريطانيا وفرنسا : اللورد فيفيان Vivian والبارون دى ميشيل de Michels ، والذى وصل الى حد التهديد بالخلع اذا هو أقدم على اشهار افلاس مصر (١٢٩) أن اضطر اسماعيل الى تنفيذ تسوية جوشن وجوير بوجهها المالى والسياسى ، وذلك باصدار مرسوم ١٨ نوفمبر عام ١٨٧٦ (١٣٠) ، الذى أنشأ « المراقبة الانجليزية الفرنسية » Condominium Anglo-Francais على المالية المصرية ، وعضاؤها الانجليزى رومين Romaine للاشراف على الايرادات والفرنسى البارون دى مالاريه de Malaret للاشراف على المصروفات ، بالإضافة الى انشاء اللجنة المختلطة لادارة السكك الحديدية وميناء الاسكندرية ، وتألفت اللجنة من خمسة مديرين : اثنان من الانجليز واثنان من المصريين وواحد فرنسى (١٣١) .

ومع ذلك ، فقد استمر ضغط فرنسا وبريطانيا على اسماعيل ، ووصل الى حد التهديد بالقضاء على الخديوية ذاتها . ومن ثم ، فقد اضطر الخديوى الى قبول تشكيل « لجنة تحقيق عليا » Commission Supérieure d'Enquête ووقع فى ٢٧ يناير عام ١٨٧٨ بتأليف هذه اللجنة وآخر فى ٣٠ مارس من العام نفسه لتنظيمها وتحديد اختصاصاتها . وكان فرتند دلبس رئيس اللجنة ، وسير ريفرز ويلسون Rivers Wilson نائبا أول للرئيس ورياض باشا نائبا ثانيا للرئيس ، فى حين كان أعضاؤها : بارافالى Baravelli الايطالى وبارنج Baring (لورد كرومر Cromer فيما بعد) الانجليزى ودى بلنير de Blignières الفرنسى ودى كريم de Kremer النمساوى ، وهم أعضاء صندوق الدين

(١٢٨) روزشتين : ص ٢٨ - ٢٩ وكذلك

The Khedive and His Calumniators. The Finances of Egypt, pp. 7-8; Sabry, M : pp 185-6 ; Dicey, E : p. 153

(١٢٩) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ١٦٢

(١٣٠) Compte Rendu des Travaux de la Commission de la Caisse Spéciale de la Dette Publique d'Egypte (Le Caire 1893), pp. 29-33 ; Cattaul, J : pp. 137-142 ; Freychet, c. de : pp. 162-4.

(١٣١) انخفض عدد أعضاء اللجنة فيما بعد إلى ثلاثة : واحد انجليزى وآخر فرنسى وثالث مصرى .

العمومي . وبفضل مرسومي ٢٧ يناير و٣٠ مارس عام ١٨٧٨ (١٣٣) ، سيطرت لجنة التحقيق على كل شئون المالية المصرية ، كما تعرضت مصر منذ انشاء هذه اللجنة « للتدخل الأوروبي الصريح أو بالأحرى للتدخل الفرنسي الانجليزي » . فالهدف الضمني من التحقيق هو محاكمة الخديوى والتأكد من مقدرة مصر على الاستمرار في دفع نسبة الأرباح السارية على الديون ، واستبدالها بنسبة أخرى اذا عجزت عن الدفع (١٣٣) .

ولم تلبث أن رأت لجنة التحقيق (١٣٤) أن من الضروري الحد من سلطة الخديوى كشرط أساسى لأى اصلاح مالى ، فصدر أمر الخديوى في ٢٨ أغسطس عام ١٨٧٨ بانشاء الوزارة المسئولة عن الحكم ، وهى الوزارة التى تولى رئاستها نوبار الأرمنى وعرفت بالوزارة المختلطة أو الأوروبية الأولى ، حيث كان من أعضائها الانجليزى ريفرز ويلسون وزيرا للمالية والفرنسى دى بلنير وزيرا للأشغال العمومية (١٣٥) . وقد علق روزشتين على تأليف هذه الوزارة فقال : « ان أوروبا كانت لا تحفل كثيرا بإدارة مصر ما دام حملة السندات يجدون ما يرضيهم ، وأن الفرض الوحيد من وزارة نوبار وويلسون هو أن تصل على تحقيق هذا الارضاء ، ولكن تحقيق هذا الارضاء كان من الصعوبة بمكان ، فقد أخذ من المصريين منذ أقرت تسوية جوشن وجوير الى أن الفت وزارة نوبار مالا يقل عن ١٢٣٣١٠٠٠ جنيه ليس فيها ما دفع من فوائد دين الدائرة السنية ، وفوق ذلك كانت موارد البلاد الاقتصادية قد بلغت غاية الانحطاط ،

(١٣٢) تلقى كل عضو من أعضاء لجنة التحقيق العليا في ٣١ مارس عام ١٨٧٨ من فردند دلبس بصفته رئيسا للجنة خطابا رسميا مرققا به صورة من مرسوم وقعه الخديوى في اليوم نفسه ، يتيح أعضاء اللجنة سلطات مطلقة لفحص « كل عناصر الموقف المالى » . أنظر

Compte Rendu des Travaux de la Caisse Spéciale de la Dette Publique d'Egypte du 1^{er} Jan. 1878 au 31 Déc. 1878 (Le Caire 1879) p. 3.

(١٣٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمساءلة المصرية ص ٦١

(١٣٤) عقدت اللجنة أول جلسة لها في ٣٠ أبريل عام ١٨٧٨ وأخر جلسة في ١٠ أبريل عام ١٨٧٩ ، وبلغ عدد جلساتها ٧٣ . ورأس دلبس خمس عشرة جلسة الأولى ، ثم تغيب معظم الوقت في الاسماعيلية ، فرأس ريفرز ويلسون بقية الجلسات وعددها ٥٨ ، مما أتاح له فرصة الانفراد بالسلطة الفعلية للجنة . أنظر

Cattaui, J : Op. cit, pp. 143—144.

Sabry, M : Op. cit, p. 203.

(١٣٥)

أعمالها بالسخط والنفور من جميع طبقات الأمة ، وعلى الأخص من اسماعيل ،
اذ استأثرت بالسلطة . فكانت تعقد جلساتها مرتين في الأسبوع وتقرر ما تراه
من الأوامر ، ثم تعرضها على الخديوى لمجرد التوقيع عليها ، فمز ذلك على أمير
مبكت طوال السنين مطلق الحكم نافذ الكلمة ، وكبر على نفسه أن ينزل فجأة
عن تلك المنزلة العالية الى منزلة المنفذ لقرارات نظارته ، دون أن يكون له رأى
فيها أو يد فى إدارة الأعمال ، فلم يكن غريبا أن يشتد سخطه عليها « (١٣٨) » .

ولم يلبث أن اعتمد الخديوى على مظاهرة ١٨ فبراير عام ١٨٧٩ التى دبرها
« صنيعة المشهور » جاهين باشا كنج (١٣٩) ، والتى أهين فيها نوبار ورشترز
ويلسون اهانات بالغة ، فأقال الوزارة الأوروبية الأولى فى اليوم التالى ، وتشكلت
الوزارة الأوروبية الثانية برئاسة الأمير محمد توفيق فى ٢٢ مارس ، وفيها
العضوان الأوروبيان اللذان احتفظ لهما بحق الاعتراض على الأمور التى لا يوافقان
عليها بدعوى المحافظة على مصالح الدائنين ، ومن ثم أصبح لهما - ولفرنسا
وبريطانيا كذلك - بفضل هذا الحق الكلمة العليا فى شئون البلاد الهامة ، فى
حين ظلت سلطة الخديوى مقيدة .

ولكن اسماعيل سرعان ما اعتمد على التجمع الشعبى الذى أسفر عن لائحة
٢ أبريل عام ١٨٧٩ ، وقام فى ٧ أبريل « باقتلاب حكومى » كان من نتيجته أن
قدم الأمير محمد توفيق استقالته بحجة أن زملاءه الوزراء لم يستشيروه فى
المسائل الهامة منذ أن تولى رئاسة الوزارة ، وأنه لم يعد يحتمل شغل هذا
الوضع الثانوى . وفى ٨ أبريل تشكلت « الوزارة الوطنية » برئاسة محمد
شريف . وبعد يومين أو أكثر ، قدم أعضاء لجنة التحقيق العليا استقالتهم محتجين
على تشكيل وزارة شريف ، وأبأنوا فى احتجاجهم أن الإصلاحات المالية لن يتم

(١٣٨) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ٣٢

(١٣٩) أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار . . . (القاهرة ١٩٣٢) ج ١ ص ٤٤ وكذلك

Dacey, E : Op. cit, pp. 201—202 ; Sabry, M : Op. cit, p. 346.

تنفيذها الا على يد وزارة يتمثل فيها العنصر الأوروبي . وفي ٢٢ أبريل أصدر الخديوي مرسوما يتضمن مشروع اللائحة الوطنية لتسوية الديون وينكر افلاس البلاد ، وأخذت وزارة شريف تجرى على سياسة اصلاح واسعة في الادارة المصرية .

وفي أثناء ذلك ، كان آل روتشيلد - تحت تأثير ريفرز ويلسون (١٤٠) - يستخدمون كل ما لديهم من نفوذ سياسى للضغط على الحكومات في باريس ولندن وبرلين من أجل التدخل الفعلى السريع في المسألة المصرية . ومن ناحية أخرى ، كانت فرنسا وبريطانيا تعتقدان خطأ أن اسماعيل وراء انبعاث الحركة الوطنية المصرية المطالبة باهاء التدخل الأوروبي المالى والسياسى في شئون البلاد . ولذا فقد لجأت الدولتان - وانضمت اليهما ألمانيا البسماركية - في مطالبة الباب العالي بمزل اسماعيل (١٤١) ، فعزل في ٢٦ يونية عام ١٨٧٩ ، وغادر مصر منفيا إلى نابولي بإيطاليا .

وبعزل اسماعيل وصل التدخل الأوروبي المالى والسياسى في شئون مصر الى غايته ، ولم يلبث أن انتهى الى نتيجته الحتمية باحتلال مصر بعد ذلك بثلاث سنوات .

(١٤٠) كان ريفرز ويلسون يعتبر الخديوي مشغولا عن الإمانات التي لحقت به ، وعن الانقلابات التي وقعت لانهاى السيطرة الأوروبية ، ومن ثم قصد مباشرة إلى باريس بعد خروجه من مصر لمقابلة آل روتشيلد ، واجتهد في اقناعهم بأن أموالهم مهددة بخاطر الضياع بسبب الحوادث الأخيرة في مصر ، لأن الخديوي - كما قال - يعتزم عدم الوفاء بدينونه تحت ستار انشاء الحكومة الدستورية ، وأن آل روتشيلد اذا لم يبذلوا جهدهم لمنع إنشاء الحكومة الدستورية ضاعت عليهم أموالهم .

(١٤١) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ١٧٦ - ١٧٧ وكذلك

Dacey, E : Op. cit, pp. 213—226 ; Sabry, M : Op. cit, pp. 367—369 ; Freycinet, c. de : Op. cit, pp. 177—178.

الإسلام واللغة العربية في غرب أفريقيا

للدكتور إبراهيم على طرخن

استاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب

جامعة القاهرة - بالخرطوم

— ١ —

الإسلام واللغة العربية والحضارة الإسلامية - تحديد غربى
أفريقية أو نجرينيا - متابع التأثير الإسلامى - الأدلة التاريخية على
قدم الإسلام في بلاد السودان الأوسط والغربى - تفسيرها -
مراحل انتشار الدعوة الإسلامية - موقف المستعمرين الأوربيين
من المسلمين - طبيعة انتشار الإسلام - بين انتشار الإسلام
والمسيحية في غرب أفريقيا - أثر العقيدة الإسلامية .

موضوع الإسلام واللغة العربية في غربى أفريقيا مرتبط أوثق الارتباط
بالتاريخ القومى الأفريقى ، وكلمتا الإسلام واللغة العربية ، كلتاها مرادف للحضارة
العربية الإسلامية في أى بقعة من بقاع العالم الإسلامى ، حتى التى تأثرت بهذا
النوع الروى . ولم يكن دينها الإسلام أو لم يعد الإسلام لها ديناً . وكذلك الشأن
بالنسبة للغة العربية .

فمثلا تأثرت الدول الأوربية في مدينتها بالحضارة الإسلامية العربية منذ
العصور الوسطى عن طريق الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا وغيرها ، وذلك
في شتى نواحي المعرفة من علوم وآداب وصناعات .

وكان النوع العربى الإسلامى أبرز العناصر في نهضة أوروبا الوسيطة ، كما كانت
أعمال الفلاسفة المسلمين من مصنفات وترجمات وشروح وتعليقات ، أساس
الدراسة في جامعات أوروبا الناشئة في القرن الثانى عشر الميلادى ، ولا سيما في
جامعة باريس أم جامعات الشمال ، حيث كان أبرز مظاهر الحياة الفكرية فيها
خلال القرن الثالث عشر ، ترجمات أرسطو وشراحه الإسلاميين ، وكما اعتبر
أساتذة جامعة باريس تاويل ابن رشد للمذهب أرسطو أصديق صورة له وأكمل

مظهر العقل ، كما رأوا أن المثل الأعلى للعلم ، هو في كتاب المناظر للحسن بن الهيثم ، أكثر منه في طبيعيات أرسطو^(١) .

ثم إن ميخائيل سكون العالم الأسكتلندي (١٢٣٥) ترجم كتاب الحيوان لابن سناء ، وهو أول من ترجم شروح ابن رشد عن أرسطو وهكذا ، وحتى في اللغات الأوربية الحديثة ، تركت العربية آثارها اللغوية^(٢) .

وفي الشق الشرقي من العالم ، ولا سيما في تركستان ، برزت معالم العربية فيها منذ انتشار الإسلام بها ، وازداد منذ القرن التاسع الميلادي حتى أخذت جميع مظاهر الحياة طابع العروبة ، كما صارت اللغة العربية وهي لغة القرآن ، الإطار الثقافي للبلاد ، فثلا كانت الأولوية في نظر المحاكم التركستانية للوثائق التي تكتب باللغة العربية مثل حجج الأملاك ومسائل الخصومات ؛ ومن تركستان ظهر المسيطرون على فنون المعاني والبيان في العالم الإسلامي بأجمعه ، كما ظهر علماء الحديث والفقه والتفسير والفلسفة وعلم الفلك والرياضيات والجغرافية والتاريخ ، ومنهم على سبيل التمثيل لا الحصر : البخاري - خان الله الزنجشري - يوسف السكاكي - سعد الدين التفتازاني - سديد الدين كاشغري - أبو البركات عبد الله ابن أحمد النسفي - أبو منصور الماتريدي - الأديب أبو بكر الخوارزمي وغيرهم^(٣) .

وفي غربي أفريقيا ، موضوع البحث ، نجد أنه ليس من باب الصدفة أن المساحات التي يضمها ، كانت أسبق في تحطيم قيد العبودية والاستعمار ، عن غيرها من البقاع الإفريقية الأخرى التي لم يصلها الإسلام ، أو اللغة العربية ، أو لم يمس إلا مساً خفيفاً عابراً .

ويعبر عن غربي أفريقيا كذلك ، باسم نيجرتيا Nigritia ، وهي تلك المنطقة التي تحفها بحيرة تشاد من الشرق والمحيط الأطلسي أو بحر الظلمات من الغرب ، وهي بلاد السودان ، كما عناها العرب^(٤) وإن اتسع مدلول هذا المصطلح ليشمل ما بعد تشاد شرقاً إلى مشارف وادي النيل ، وهي من باب التحديد بلاد السودان الأوسط والغربي .

أطلق القدماء من المؤرخين والجغرافيين ، هذه التسمية نسبة إلى نهر النيجر ، وأول من أشار إليها المؤرخ الروماني القديم بليني الكبير Plinius (ت حوالي ١١٥ م) ، فهو الذي أطلق على نهر النيجر اسمه الذي اشتهر به Nigris ، أي

نيل الأجناس السوداء ، ثم استعار كتاب العصور الوسطى بغرب أوروبا هذا المصطلح ونسبوا جميع المنطقة المحيطة بهذا النهر إليه ، فعرفوا سكانها بالنجريتيين (٩) Nigritae

ومن الناحية الجغرافية ، يملأ النيجر وروافده هذه المنطقة ، فن الشرق يصل رافده الكبير نهر بنوى Benué إلى قرب بحيرة تشاد ، بل تصل أعاليه بنهر شارى الذى يصب فى تشاد ، وكذلك تقترب أعلى روافده الغربية مثل سنكارانى Sankarani وتنكسو Tinkisso ودليبا Doliba ، من ساحل المحيط الأطلسى ، وحوض النيجر ، والحزام السودانى عامة ، من أغنى المناطق الإفريقية من الناحية التاريخية .

ظفر الإسلام واللغة العربية بنجاح كبير فى هذا الإقليم ، مما يدعو إلى دراسة النور الكبير الذى قام به هذا الدين ولغته فى تلك البلاد وتطورها ، فقد أصبحت عن طريق الإسلام والعلوم الإسلامية العربية عظيمة الحضارة والتقدم ، وسرعان ما شكل الإسلام عادات السكان وطور أحوالهم ، حتى صار مستوى التفكير والثقافة يقارن بنظائره أو يفوقه فى الدول المعاصرة فى أوروبا المسيحية ، ولذلك ليس من سرف القول : إن العصور التاريخية الزاهرة لبلاد السودان الغربى والأوسط تقتزن بالإسلام ، وبالإسلام ، كما يقول جوى Gouilly ، يبدأ العصر التاريخى لأفريقيا السوداء (١٠) . والإسلام والعلوم العربية الإسلامية ، هى التى أدت إلى قيام الإمبراطوريات الإفريقية الإسلامية الكبرى : غانا ومالى وصنغى ثم برنو فامبراطوريات الموسا والتكارره والفولانيين أو القلاتا (١١) .



لقد تطلعت بلاد السودان الأوسط والغربى إلى البلاد الإسلامية فى الشمال والشمال الشرقى ، من أجل العقيدة والمدنية ، ولم تحل وعورة الصحراء دون اجتيازها ، فطرق القوافل التى تعد بالعشرات ، تخرقها منذ أقدم العصور .

ويمكن انتماس ثلاثة منابع رئيسية للتأثير الإسلامى فى أفريقيا السوداء عامة :
١ - المنبع المصرى عن طريق النوبة وطرق القوافل الشرقية إلى برنوفبلاد الموسا .

٢ - الحبشة إلى أوروبا والأشاتي .

٣ - من شمال أفريقيا عبر الصحراء إلى حوض النيجر الأوسط والأعلى .

وعن المنبعين الأولين وصلت الآثار المصرية والإسلامية العربية إلى العناصر السوداء ، وساعد في ذلك وقوع مصر في طريق الحج ، واهتمام أولى الأمر فيها بتيسير أمور السفر إلى الأراضي المقدسة ، منذ فجر الإسلام ، بل إن وادى النيل عامة ، كما يقول ديشان Deschamps : كان أهم المراكز أو المتابع التي زحفت منها الدعوة الإسلامية ، وكانت مصر أسبق الأقطار لاعتناق الإسلام ، ثم زحف الإسلام جنوباً ، وعاقه بعض الوقت وجود مملكة دنقلة المسيحية^(٨) .

وعن المنبع الثالث ، وصلت الدعوة الإسلامية إلى أواسط النيجر وحوض السنغال^(٩) .

والإسلام قديم في بلاد السودان الأوسط والغربي ؛ ومن الأدلة التاريخية على ذلك ، ما ذكره أحمد بابا مؤرخ صنها ، من أنه حوالي عام ٦٠هـ - ٦٧٩م ، كان يوجد بالبحر الإسلامي بمدينة غانا أو كومبي صالح ، عاصمة إمبراطورية غانة ، إثنا عشر مسجداً^(١٠) ، وما أورده البكري ، من أن بني أمية أرسلوا جيشاً في صلب الإسلام ، لفتح بلاد السودان ، وأن ذرية هذا الجيش استقرت في بلاد غانة^(١١) وأن حملة إسلامية كانت موجهة لمطاردة البربر ، وصلت في حركتها إلى بلاد السنغال حوالي عام ١٠٢ هـ - ٧٢٠ م ، وعادت بكميات كبيرة من الذهب^(١٢) ؛ وعن القلقشندي ، أن أهل غانة أسلموا أول الفتح^(١٣) ؛ وقد أسلم أحد ملوك غانة في القرن التاسع الميلادي ، وهو تلوتان بن تكلان (٨٣٧ م) ، ويقال إنه شن حرباً دينية ضد جيرانه الوثنيين^(١٤) ؛ ويقال كذلك إن أربعة من جيش عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠٠ هـ = ٧١٧ - ٧٢٠ م) هاجروا إلى كانم^(١٥) ، وأن بعض بني أمية توجهوا إلى كانم عند محنتهم ببني العباس^(١٦) .

ولا شك أن لهذه التحركات الإسلامية تأثيراً جزئياً في التعريف بالإسلام في تلك البلاد منذ زمن مبكر .

ثم إن مدينة أودغست السونكية الأصل ، نسبة إلى قبائل السوننك Soninks التي كونت إمبراطورية غانة ، البربرية الطابع ، كانت مركز إمبراطورية إسلامية

واسعة ، على حافة الصحراء الجنوبية ، امتدت خلال القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي، من المحيط الأطلسي غرباً إلى قلب الصحراء شرقاً^(١٧)، وتستغرق مساحتها ، فيما يقوله البكري : « مسيرة شهرين في مثلها »^(١٨) ، نشط سادة هذه الإمبراطورية من قبائل لتونة البربرية الصنهاجية في نشر الإسلام ، جنباً إلى جنب مع تنشيط حركة التجارة بين بلاد السودان وشمال أفريقيا ، وكانت أهم السلع المطلوبة في بلاد السودان الملح ، يقول ابن حوقل : « وحاجة ملوك السودان إلى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام ، فانه لا قوام لهم إلا به »^(١٩)

ومن سادة المتونة الذين عملوا في نشر الإسلام بين قومهم وبين الزنوج المجاورين ، تيبوتان Tiboutan (ت ٢٢٢ هـ - ٨٣٧ م)^(٢٠) : وأشهر ملوك أودغست تين يروتان بن وينسو بن نزار الصنهاجي (كان يحكم حوالي ٩٦١ ، ٩٧١ م) ، فقد دان له ، فيما يقول البكري : « أزيد من عشرين ملكاً من ملوك السودان »^(٢١) .

ومعنى هذا ، أن إمبراطورية أودغست الإسلامية ، ساهمت بتبصيص قل أو أكثر ، في نشر الإسلام والتعريف به في بلاد السودان ، قبل عهد المرابطين بنحو قرن .

وفي مطلع القرن الحادي عشر الميلادي ، أسلم الملك الخامس في سلسلة الملوك من أسرة الأزواء الحاكمة في صنغي ، وهو زاكاسي Za - Kasi حوالي عام ٤٠٠ هـ - ١٠٠٩ م^(٢٢) ، ونما في جاو عاصمة صنغي ، حتى إسلامي مثل الحى الذى قام في مدينة كوسبي صالح عاصمة غانا^(٢٣) .

كذلك أسلم ملك التكرور وارجاني بن رايس (ت ٤٣٢ هـ - ١٠٤٠) ، وكان إسلامه عاملاً أساسياً في نشر الدعوة الإسلامية فيها حوله ، وهو صاحب الفضل في إسلام أهل (سلى) من أعمال تكرور^(٢٤) .

هذا ويدل حادث إسلام كويو كمبر Koyo Komboro ملك جنى ، المالكى حوالي القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، على قدم الإسلام في بلاده ، رغم تأخر إسلامه هو ، ففي الوقت الذى هداه الله فيه إلى

الإسلام ، أمر بمحشر العلماء المسلمين في بلاده ، فاجتمع له فيما يقول السعدى ، نحو أربعة آلاف ومائتى عالم ، وأسلم على أيديهم ، وبديهي أن مثل هذا العدد أو ما يقرب منه ، لا يعقل أن يكون قد تكون أو وجد خلال فترة قصيرة ، أو أن هذا العدد أو حتى النصف أو دون النصف ، لم يكن له عمل في نشر العقيدة الإسلامية ، بل المعقول أنهم وجلوا ، بصرف النظر عن عدتهم ، قبل القرن الثانى عشر بزمان طويل ، وأنهم دعوا إلى الإسلام في جنى وغيرها من بلاد مملكته التى أحصاها السعدى بنحو ٧٠٧٧ قرية ؛ وعلى أثر إسلامه خرب دار السلطنة وحوّلها إلى مسجد ؛ وهو المسجد الجامع (٢٥) .

وقد طلب كثر ملك جنى أو « جنكى » (٢٦) من هؤلاء العلماء أن يدعوا الله تعالى بثلاث دعوات لمدينة جنى : كل من هرب إليها من وطنه ضيقاً عسراً ، أن يبدلها الله له سعة ويسراً حتى ينسى وطنه ، وأن يعمرها الله بغير أهلها ، وأن يسلب الصبر من وارديها من التجار حتى يملوا فيبيعوا ما معهم لأهلها بتناقص الثمن ، فبرحوا منها . ففروأوا الفاتحة على هذه الدعوات . تقول الرواية : فكانت مقبولة (٢٧) .

تلك هى خلاصة الأدلة التاريخية على قدم الإسلام في بلاد نيجرتيا ؛ وتفسير ذلك ، أن العلاقات بين هذه البلاد وشمالى أفريقية وآسيا وأوروبا ، ترجع إلى الزمن السحيق ، إلى ما قبل عهد هيرودوت (حوالى عام ٤٥٠ ق. م.) ، وهى علاقات تجارية تبودلت فيها منتجات وسط أفريقية وغربها بالسلع الخارجية عن طريق القوافل ، ثم بواسطة السفن الفينيقية إلى بلاد البحر المتوسط وأوروبا ، ونشطت حركة التبادل التجارى والمواصلات بعد دخول الحمل أفريقية حوالى القرن الأول قبل الميلاد ؛ كما أن الفتوح الإسلامية لمصر وشمالى أفريقية ، قد أدت إلى دفع المسلمين شمالاً حتى الأندلس وفرنسا وقلب أوروبا ، وجنوباً إلى قاب الصحراء (٢٨) .

ولذلك يمكن القول ، إن أفريقية لم تنزل تجارياً وحضارياً عن أوروبا وآسيا في أى فترة من فترات التاريخ ، وكان لهذا الإتصال المستمر أثره العميق في حياة الزنوج في نيجرتيا ، فضلاً عن الآثار الاقتصادية والحضارية والثقافية ، ومن

بينها الإسلامية العقائدية بدرجة ما ، وهناك الأثر البشرى ، فقد أدى ضغط العناصر البيضاء من البربر والعرب على تلك البلاد منذ أزمنة موعلة في القدم ، واختلاطهم بأهلها ، أدى هذا إلى امتزاج دمائهم بالدماء الزنجية حتى تغيرت ألوانهم مما يصعب معه وصفهم بالزنج ، ومن ثم كان استخدام كلمة (أسود) للدلالة على سكان منطقة السافانا أدق من استخدام كلمة زنجي ، فالزنجي النقي أو الحقيقي يصعب العثور عليه في تلك الأقاليم ، لأنه هاجر تدريجياً نحو الجنوب ، أمام ضغط العناصر البيضاء . ويشبه هذا الإختلاط ما حدث في بريطانيا زمن الغزو الأنجلو سكسوني في القرن الخامس الميلادي ، والغزو النورمانى في القرن الحادى عشر ، فقد امتزجت دماء الفاتحين بالبريطانيين الوطنيين لدرجة كبيرة (٢٩).

ومن أجل هذا الإلتماج واختلاط الدماء ، جاء وصف المؤرخين والجغرافيين العرب لبلاد السودان دقيقاً ، فيقول الأصطخرى مثلاً عن السودان : « إنهم ليسوا بنوبة ولا بزنج ولا بجش ولا من البجة ، إلا أنهم جنس أشد سواداً من الجميع وأصفى » (٣٠).

الخلاصة : لقد وجد الإسلام طريقه إلى بلاد السودان الأوسط والغربى ، منذ القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) ، وذلك لاعن طريق الفتح الحربى والضغط والقهر ، ولكن عن طريق التجارة والمصاهرة والإندماج والكتب والمدارس والمساجد ، لأنه يصعب إخضاع وقيادة القبائل الكبيرة القوية عن طريق الحرب ، بدليل أن الإسلام في تلك البلاد ظفر بأقوى القبائل وأشجعها وأكثرها عدداً وليس بالمستضعفة منها ، ثم نما وترعرع في المدن الكبرى التى أقامها المسلمون أو استقروا فيها ، فنمت وكبرت واشتهرت ، كما أدى إلى قيام الأمبراطوريات التاريخية الأفريقية الكبرى .

أما مراحل انتشار الدعوة الإسلامية في بلاد السودان الأوسط والغربى ، فالواضح أن هذه الحوادث الدالة على قدم الإسلام بتلك البلاد نتيجة الإتصالات المستمرة والمتنوعة خلال الفترة السابقة على منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، هى فى الواقع المرحلة الأولى من مراحل انتشار الإسلام .

وجاءت المرحلة الثانية على أيدي المرابطين البربر من صنهاجة أكبر قبائل البربر ، ولصنهاجة دولتان بالمغرب هما : دولة بني زيري بن مناد الصنهاجي بأفريقية ، وهذه ورثوها عن الفاطميين ، ودولة الملثمين بالمغرب الأقصى والأوسط ، وهي التي تعيننا .

قام المرابطون أو الملثمون^(٣١) بنشر الإسلام بين البربر أولاً ؛ واقنعوا الروحي لحركتهم هو عبد الله بن ياسين الجزولي (ت ٤٥١ هـ - ١٠٥٩ م) ، ثم اتجهوا جنوباً إلى بلاد السودان حيث كانت إمبراطورية غانه لا يزال ملوكها المعاصرون على الوثنية ، رغم انتشار الإسلام فيها ، ورغم أن أحد ملوكها في القرن التاسع الميلادي كان قد اعتنق الإسلام^(٣٢) . فتح المرابطون مدينة أودغست عام ١٠٥٥م وكانت خاضعة لغانه يومئذ ، ثم مدينة كومبي صالح عاصمة غانه ١٠٧٦م ومنذ ذلك الوقت صارت إمبراطورية غانه السوننكية دولة إسلامية ، وانفصلت بعد ذلك عن المرابطين في الشمال بعد ضعف نفوذهم على أثر مقتل أميرهم أبي بكر بن عمر اللمتوني عام ٤٨٠ هـ - ١٠٨٧ م ، واتصلت بالخلافة العباسية مباشرة . ولقد اشتهرت قبائل السوننك ، وهي من فروع الماندنغو ، بحماسها ونشاطها في الدعوة الإسلامية فيها بعد ، حتى إن كلمة (سوننك) Soninke غدت مرادفة للكلمة (داعية) في أعلى نغيبيا^(٣٣) . ودور المرابطين هام في نشر الإسلام بنجرتيا ، لنشاطهم وحماهم ، إذ كانوا يرسلون الدعاة والعلماء بين القبائل السودانية ، وبفضل حركتهم ازداد انتشار الإسلام كما ازداد الإنصال التجاري والثقافي بالبلاد الإسلامية عامة ، حتى الأندلس في أوروبا ؛ والمرابطون هم الذين أنشأوا مدينة تنبكت وكانت من قبل قرية صغيرة . ومع أن قبائل الفولانيين وموش قاومت الإسلام زمن المرابطين ، إلا أنهم أسلموا بعد ذلك^(٣٤) .

وتشبه حركة المرابطين وهي حركة دينية حربية ، حركة الفرسان المسيحيين ، الذين قاموا لنفس الغرض لخدمة المسيحية الغربية ، وأشهر هذه الحركات ما ظهر خلال الحروب الصليبية ، مثل حركة الفرسان الداوية Knights Templars وهي التي تأسست في القدس الصليبية عام ١١١٨ م ومهمتها دينية حربية ، وكذلك فرقة الفرسان التيوتون Teutonic Order & Knights التي تأسست في الشرق

(١١٩٧ م) للدفاع عن الإمارات الصليبية ، لكنها أدركت عدم جلوى الكفاح بسبب نتائج انتصارات صلاح الدين المتلاحقة ، فحولت جهودها إلى البلاد الوثنية بشرق ألمانيا وبولندا ولتوانيا وليفونيا وغرب روسيا^(٢٥).

أما المرحلة الثالثة من مراحل انتشار الإسلام في نجرانيا فكانت على أيدي سادة إمبراطورية مالى الإسلامية ، فقد كان الماننجو مؤسسوها أكثر السود تحمساً للإسلام والدعوة له ، وتدلنا قصة إسلام أول ملوكها (١٥٥٠ م) على مدى الحماس الذى صحب اعتناق العقيدة الإسلامية . يقول البكرى .

« عرف ملك مالى بالمسلماني لأن بلاده أجذبت عاماً بعد عام : فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها . وكان عندهم ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة » . ووجود هذا المسلم الداعية من أدلة وجود الإسلام في بلاد مالى ، قبل حادث إسلام هذا الملك . فشكا إليه الملك مادهم من ذلك ، فقال له : « أيها الملك ! لو آمنت بالله تعالى . وأقررت بوحدايته . وبمحمد عليه الصلاة والسلام ، وأقررت برسائله واعتقدت شرائع الإسلام كلها . لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحل بك وأن تعم الرحمة أهل بلدك وأن يحسدك على ذلك من عاداك وناواك ، فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته وأقرأه من كتاب الله ماتيسر عليه وعلمه من القرآن والسنة مالا يسع جهله : ثم استسقى : فنزل المطر : فأمر الملك بكسر الدكاكير — الأصنام — وإخراج السحرة من بلاده : وصح إسلامه وإسلام عقبة وخاصته^(٢٦) » . ولما كان الكثير من رعاياه لا يزالون على الوثنية ، فقد سموه « بالمسلماني » . وعبر العمرى والقلقشندي عن حماس ملوك مالى في الدعوة إلى الإسلام . يقول القلقشندي : « وملك مالى في جهاد دائم وغزو ملازم لمن جاوره من كفار السودان »^(٢٧) . وإلى ملوك مالى يرجع الفضل في نشر الإسلام في بلاد الهوسا .

ثم جاء الدور الرابع أو المرحلة الرابعة من مراحل انتشار الإسلام في نجرانيا على أيدي إمبراطورية صنفي الإسلامية ، وهى التى ورثت مالى في تلك البقاع . عملت صنفي منذ أسلم أول ملوكها زاكاسى حوالى عام ١٥٠٩ م ، على نشر الإسلام بين الوثنيين كما كان الشأن بالنسبة للمالى ؛ وفي زمن أسرة سن على

(ت ١٤٩٢م)، ازداد انتشار الإسلام حتى وصل إلى فروع النيجر الشرقى ، كما أن أسرة الأساكى التى تبدأ بأسكيا الأكبر ، (ت ١٥٢٩) ، قامت بأعظم دور فى نشر الإسلام ، وبلغت إمبراطورية صنغى زمن أسكيا الأكبر ، أنهى اتساعها وعظمتها . ظفر أسكيا بلقبى « إمام » ، « أمير المؤمنين » ، كما ظفر علماء الإسلام فى عهد هذه الأسرة بمنزلة سامية ؛ لم يقتصر نشاط هذه الأسرة على الدعوة إلى الإسلام بين الوثنيين ، بل شمل الكفاح كذلك تنقية العقيدة من البدع ، فثلا لم يقف أسكيا الأكبر مكتوف اليدين أمام متنبىء فولانى ظهر فى عهده ، هو تينض Tayned ملك فوتا ، ويعرف باسم « فوط كنك » فحاربه عام ٩١٨ هـ - ١٥١٢ م وقته (٧٨) .

كذلك يضم إلى هذا الدور ، ما قامت به امبراطورية برنو ، والمشهور أن الإسلام وصل إلى كاتم من مصر مباشرة (٢٩) ، ومن أشهر دعاة الإسلام فى كاتم ، محمد بن مانى (القرن الحادى عشر الميلادى) وهو سلف الأمام أحمد بن فرتوا ، مؤرخ بلاط برنو زمن المالى إدريس ألوما (ت ١٦٠٢ م) . عاش ابن مانى حوالى ١٢٠ سنة ، وعاصر خمسة من مايات برنو وقرأ معهم القرآن وسيرة النبي (ص) ، ويقال أنه قرأ مع ابن الملك سالما بن بكر (ت ١٢٢٠ م) نحو ١٥٠ كتابا دينيا (٤٠) .

واشتهر مايات برنو بحماسهم للدعوة الإسلامية بين القبائل الوثنية ، حتى إن المالى عثمان بن زينب (١٣٠٠) ادعى أنه من نسل عثمان بن عفان ، وفسر بعض الكتاب بأن الهادى العثمانى الذى اشتهر بالدعوة الإسلامية فى السودان الأوسط ، هو المالى عثمان هذا (٤١) .

وكانت المرحلة الخامسة على أبدى قبائل الفولانيين أو الفلاتا زمن ازدهار إمبراطوريتهم فى القرن التاسع عشر الميلادى ، على أن اسلام الفولانيين يرجع الى حوالى القرن الرابع عشر ، وكان منهم دعاة انبثوا فى أرجاء السودان لنشر الإسلام ، منهم اثنان وصلا إلى بلاط برنو زمن عثمان بن زينب حيث نشطا فى نشر الإسلام (٤٢) .

أسس الفولانيون أكثر من دولة : أشهرها تلك التى قامت فى بلاد الهوسا ، على أبدى الشيخ الصالح عثمان دان فودى أوائل القرن التاسع عشر . فام هذا الشيخ

بحركة جهاد واسعة النطاق خلال الفترة من ١٨٠٤ إلى ١٨١٠ وتمكن من إخضاع بلاد الهوسا ومعظم بلاد برنو وسمى نفسه (أمير المؤمنين) Sarkin Musulmi واتخذ له قاعدتين في سوكونو وكانوا : ثم سار ابنه وخليفته محمد بلو على نهجه ، والسلطان بلو هو الذى استقبل الضابط الإنجليزى كلا برتون Clapperton عام ١٨٢٢ ، ولم يأذن له بالتقدم نحو النيجر ، فعاد هو وزميلاه عام ١٨٢٥ (٤٣) .

وخلال نفس الفترة ، نهض التكاوة في إمبراطوريتهم الواسعة من أواخر القرن الثامن عشر الى أواخر القرن التاسع عشر ، وسيد هذه الإمبراطورية ، الحاج عمر (ت ١٨٦٤م) . ونواة إمبراطورية التكاوة في فوتاتورو بالسنگال وفوتاجالون وغينية ، وفوتاتورو موطن التكاوة الأصلية ، من أكبر مراكز الدعوة الإسلامية والحامس لها ، وزادهم حماساً اتصالهم بطريقتي القادرية والتيجانية اللتين وصلتا إليهم من شتالي أفريقية . وأسلم على أيدي التكاوة قبائل الولوف أو الجلف ، وكذلك بفضل التكاوة ، أسلم من بقى على غير الإسلام من جيرانهم الفولانيين والبابابارا ، ولحاج عمر وابنه أحمدو (أما دوا) تاريخ حافل في كفاح الإستعمار الفرنسى .

يضم إلى هذا الدور أو هذه المرحلة كذلك، جهاد سامورى التورى Samori Turé جد أحمد سيكورى رئيس جمهورية غينية الحالى ، أخذ لقب إمام Alimami ودوخ هو وابنه سارانتى Sarantie ، الفرنسيين نحو ثلاثين عاماً (١٨٧٠ - ١٩٠٠م) (٤٤) .

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر ، وبعد أن استقر المستعمر الأوروبى في نيجريا ، كان موقف المستعمر متضارباً من الإسلام والمسلمين ، فالقائد الفرنسى فيلدرب Paidherbe ، رغم قتاله المسلمين في الجزائر ثم جيوش الحاج عمر التكرورى ، اضطر إلى سياسة التقرب والتفاهم مع زعماء المسلمين لقوتهم ومكانتهم ، أما القائدان أرشينار ومانجان Archinard & Mangin ، فقد اصطبغت حروبهما الإستعمارية ضد الحاج أمادو بن الحاج عمر بالروح الصليبية المتعصية . ثم إن الحاكم الفرنسى بريفى Brevié ، أصدر في عام ١٩٢٣ م كتاباً عنوانه (الإسلام ضد الوثنية في السودان الفرنسى) أوضح فيه خطر الاعتماد على الجماعات الإسلامية (٤٥) .

ومع كل هذه العقبات التي اعترضت ازدياد انتشار الدعوة الإسلامية ، ورغم نشاط البعثات التبشيرية المسيحية - استمر انتشار الإسلام بين القبائل التي ظلت على وثنيها مثل قبائل موش Mosi أغلب سكان جمهورية فولتا العليا الحالية ؛ كما وصل الإسلام إلى المناطق الساحلية التي تركز فيها نشاط البعثات التبشيرية ، والعجيب أن هذه المناطق المتطرفة ظلت بعيدة عن تناول نشاط الدعوة الإسلامية زمن الأمبراطوريات الإسلامية الكبرى أمثال مالي وصنغاي .

ويقوم اليوم في نيجيريا ، وهي جزء من نيجيريا - حركة لتطهير الإسلام من الشوائب والبدع وآثار الوثنية - أساسها الطلبة النيجيريون الذين درسوا وتعلموا في الأزهر ، وأنفقوا اللغة العربية التي استخدموها في التخاطب . وكذلك اشذت أواصر الصداقة بين مسلمي حوض تشاد وبين السودان الشرقي ومصر . وسارت نهضة الإسلام مع انتشار اللغة العربية في شتى بلاد السودان الأوسط والغربي (٤٦) .

والمذهب الغالب عند مسلمي نيجيريا هو مذهب الإمام مالك ؛ على أنه يوجد في كانم وبرنو بعض الشافعية ، مما يؤكد أثر النبع المصري في إسلام كانم . كما أن أهل كانم أسسوا مدرسة للمالكية في فسطاط مصر ، زمن الأيوبيين - وهي المشهورة باسم مدرسة ابن رشيقي (٤٧) . انتشرت بينهم الطرق الصوفية - وأشهرها القادرية - وهي على مذهب مالك - وعنها تفرعت طريقة في السنغال عرفت باسم (المريضية) هي التي أسسها أمادوبامبا من الولوف (٤٨) ، كذلك اشتهرت طريقة التيجانية - التي تبعها الحاج عمر التكروري ؛ حارب الحاج عمر الطريقة الشاذلية التي انتشرت في فوتالون ؛ وعن التيجانية ، تفرعت شعبة (الحماله)نسبة إلى الشيخ حما الله في نيورو شرق السنغال. هذه الشعبة - متطرفة حتى أن أتباعها جعلوا قبايلهم مدينة - نيورو وليست مكة (٤٩) ، كذلك وجدت الطريقة السنوسية التي ظهرت في القرن التاسع عشر - وشقت طريقها إلى بلاد السودان الأوسط والغربي - كما وجدت (المهدية) بعض الأتباع لكن الكثرة في كانت السودان الشرق وشرق تشاد (٥٠) .

أما عن طبيعة انتشار الإسلام في تلك الجهات ، فقد أجمع المؤرخون والرحالة الأوروبيون ، على أن السلم والإقناع كان الطابع الأساسي لنشر الدعوة الإسلامية مما جعل الأفريقيين يقبلون على اعتناق الإسلام إقبالا شديداً ، فلم يشهر حملة آواء

الدعوة ، السيف إلا في الحالات الدفاعية التي خلفها تكتل الوثنية ، وكان الداعي يعقب الفاتح ليدخل الطمأنينة في النفوس وليقرب العقيدة الجديدة ؛ و فرق بين انتشار الإسلام والفتوح الإسلامية (٥١) . نشط الدعاة كما نشط التجار نشروا الإسلام ، والتفوا حول الملوك وحببوا الدين إليهم وشرحوا لهم أحكامه ، فثلا كان في حاشية ماناسموسى ومانسا سليمان من سلاطين مالى ، عدد كبير من العلماء ، كذلك كان الشأن بالنسبة للأساكى مثل أسكيا داوود من حكام صغنى ، ومايات برنوا وسراكنة الهوسا وملوك الفولانيين .

ومما ساعد على قبول الإسلام ، ذلك الاندماج والمصاهرة التي تمت بين التجار والدعاة المسلمين من العرب والبربر من جهة ، وبين الأفريقيين الوثنيين من جهة أخرى ، وبهذه الطريقة المأدبة . دخل الأمراء ورؤساء القبائل في الإسلام وتحمسوا بدورهم لنشره والدعوة له بين الجيران الوثنيين .

يقول كرمل Crummel في كتابه (مستقبل أفريقية) : « انتشر الإسلام بسرعة في هدوء بين جميع قبائل نيجيريا حتى البلاد المسيحية في ليبيريا » .

كذلك يسر سرعة انتشار الإسلام أنه دين الفطرة ، سهل تناول لا لبس فيه ولا مخموض ولا تعقيد ، لم ترتبط به صور مقدسة أو أيقونات Icons ، فهو لا يتطلب من الشخص لإعلان إسلامه أكثر من انطق بالشهادتين ، ثم أداء الفروض في بساطة ويسر : ثم إن فكرة التوحيد التي جاء بها الإسلام والأديان الساجية الأخرى لم تكن غريبة على الأفريقيين الوثنيين : إذ كانوا في وثنيهم : وإن تعددت آلهتهم ، يعتقدون في وجود إله أعظم خالق الكون (٥٢) .

ولعل أكبر ما يميز طبيعة انتشار الإسلام ويفسر سرعة قبوله والحماس له : أنه جاء إلى أفريقية السوداء وأهلها سادة في بلادهم ، يتمتعون بكامل حرياتهم وسيادتهم واستقلالهم ويمارسون حكوماتهم وينظمون شئونهم الخاصة ومجتمعاتهم وفق تقاليدهم ، وظنوا كذلك بعدد خول الإسلام : بل ازدادوا به قوة كما ازداد نفوذهم اتساعاً وسيطرة .

لم يكن للدعاة المسلمين من العرب أو البربر أو من الأفريقيين السود أنفسهم أدنى قسط من السيطرة . كما لم يلجأوا إلى وسائل الإغراء فلم يكن معهم مال للرشوة

خلال تجوالهم بين القبائل الوثنية ، أو عود للأفراد ، فهم قد دعوا إلى دينهم في هدوء ، وكان للوثني كامل الحرية في أن يختار بين القبول أو الرفض ، حتى شعر الأفريقيون بالأخوة مع الدعاة المسلمين ، ولذا قبلوا الإسلام وتحمسوا له وقاموا بدورهم بنشره .

ومعنى هذا أن الإسلام لم يؤد إلى تدمير النظم المحلية ، بل إن الوطنيين أنفسهم هم الذين اختاروا الصور الجديدة للحياة بمحض اختيارهم ، ومن أجل هذا نظر المسلمون السود إلى الإسلام على أنه دين السود ، وإلى المسيحية التي جاء بها المستعمر ، على أنها دين الأوربيين البيض .

يقول سميث Smith في كتابه (محمد والإسلام) Moh. & Mohammanism :
« احترم الدعاة المسلمون العادات والتقاليد والعقائد المحلية ولم يحرقوها ، وهذا أحد أسباب نجاحهم ، وهو ما ينبغي أن تحنو البعثات التبشيرية المسيحية حلوه » (٥٣) .

ظلت الجماعات الإسلامية الأفريقية محتفظة بكيانها واستقلالها وعظمتها وسيادتها ، ونفث فيها الإسلام قوة روحية جديدة ، كما أسبغت العقيدة الإسلامية على معتقيا احتراماً وتقديراً بين مواطنيهم .

والمهم في هذا ، أن الدول الإسلامية الأصلية التي جاء فيها الإسلام والعلوم الإسلامية ، فضلا عن النظم السياسية والاجتماعية ؛ حتى في مظاهر الزي ، لم يكن لهذه الدول أي جانب من جوانب السيطرة أو السيادة السياسية أو أي نوع من أنواع الإشراف أو الحماية أو الوصاية على تلك البلاد . لقد ترك الإسلام الوطنيين في أفريقية السوداء لأنفسهم وبلادهم .

أما المستعمر الأوربي فقد جاء بالمسيحية إلى الأفريقي ، كما يقول الدكتور بليدن Blyden ، أحد المثقفين المسيحيين الأفريقيين في القرن التاسع عشر ، باعتباره عبداً ، أو على الأقل بوصفه خاضعاً محكوماً ، فعلم الزنجي وبنوه من بعده بجانب تعاليم المسيحية ، أنه جنس منحط عديم الأهلية والكفاءة وأنه دون حكامه البيض ومعلميه .

لقد دهمهم المستعمرون وأجبروهم على اعتناق المسيحية بمختلف الوسائل والإغراء ، واستولوا على بلادهم بالصف والقهر والتفرقة - وأنزلوهم منزلة دون منازل الإنسانية ، لذلك بات أعظم المثقفين من الزوج المسيحيين يتطلعون إلى اليوم الذي يزول فيه أثر لندن وباريس ولشبونة : وقد زال حديثاً إلا القليل (٥٤) .

وبينا شعر الأفريقي المسلم أن الإسلام لم يقطعه عن ماضيه أو عن مجتمعه - نجد الإستعمار الأوربي قد جعل الأفريقي المسيحي حائراً ضائعاً - فلا هو قريب من مجتمعه ولا هو مرضى عنه الأوربي من المستعمر لكي ينتسب إلى الحضارة الأوروبية المسيحية ، فحرمه الثقافة العادلة والحقوق الإنسانية الطبيعية المتاحة للمسيحي الأبيض ، وذلك على عكس الإسلام الذي اعترف منذ أول وهلة بالمساواة التامة ، وكفل للمسلم جميع حقوقه ، دون نظر إلى لون أو جنس .

يقول الرحالة منجو بارك : Mungo Park : (لقد عمل الإسلام على تطوير بلاد الزوج ولا يزال يعمل) ويقول القمص ستانلي Dean Stanley كتابه عن الكنيسة الشرقية Eastern Church : (لا يمكن أن ننسى أن الإسلام هو الديانة السامية الوحيدة التي أدت إلى تقدم وتطور قارة أفريقية الواسعة ، ومهما كان مستقبل المسيحية في أفريقية فليس هناك أدنى شك في أن هذا المستقبل سوف يتأثر بالجانب الحماسي عند الزوج المسلمين) . (٥٥)

لقد ظهرت المسيحية قبل الإسلام بخمسة قرون ، ومع ذلك كان الإسلام أسبق في الوصول إلى بلاد نيجيريا ، حقيقة حال المسلمون في العصور الوسطى دون لإتصال المباشر بين الأوربيين المسيحيين وبين تلك البلاد لأسباب دينية وتجارية ، إلا أن الإستعمار الأوربي الحديث لم يستطع أن يحول قبيلة بأكملها إلى المسيحية بوسائله المختلفة ، فن غمبيا إلى جابون مثلاً ، ظل الكثير من الوطنيين على عقائدهم القديمة ووسائل حياتهم البدائية رغم اتصالهم بالمسيحية الغربية نحو ثلاثة قرون ، بينا على طول الساحل من السنغال إلى لاجوس : لا توجد مدينة هامة إلا وبها مسجد على الأقل ، فضلاً عن عدد كبير من المسلمين يعيش جنباً إلى جنب مع المسيحيين والمبشرين ؛ ومن العجيب أن نسبة المسلمين في المنطقة الساحلية لم تزد إلا في عهد الإستعمار وخلال نشاط البعثات التبشيرية الغربية .

جاء في المحاضرة التي ألقاها م. وليامز M. Williams أستاذ اللغة السنسكريتية — وهي الهندية الفصحى — في جامعة أكسفورد ، في مؤتمر عقد في لندن عام ١٨٧٥ م ، لبحث لشئون البعثات التبشيرية في الخارج :

« إنه ما لم تكن هناك وسائل جديدة تضاف إلى جهود البعثات التبشيرية المسيحية ، فإن الإسلام سوف يكتسح جميع القارة الأفريقية » (٥٦) .

أما أثر العقيدة الإسلامية في مسلمي نيجيريا ، فهو عميق ، وعلى الأقل من حيث المظهر ، فثلا يصف القلقشندى مسلمي كانم بأنهم « يابسون في الدين » ، غير أن القرآن بالنسبة للأفريقي المسلم في تلك البلاد أكثر منه بالنسبة لغيرهم من سائري مسلي العالم ، أخذ المسلم الأفريقي من القرآن جميع احتياجاته ، حتى وسائل العلاج من أمراضه ، فبا القرآن تحجب ، وحمل معه بعض آياته في عنقه وذراعه ، والآيات التي كثيرا ما يتحجبون بها هي : آيات السورتين الأخيرتين من القرآن المعروفة باسم سور النجاة ، وهي (الفلق والناس) وكذلك آيات الحفظ مثل (فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين) (٥٧) ، وكذلك (والله من ورائهم محيط) (٥٨) وعموما القرآن معهم في كل مكان . (٥٩)

اهتموا كذلك بحفظ القرآن . وقد شهد ابن بطوطة في رحلته في بعض بلاد مالى (القرن الرابع عشر الميلادي) أطفالا مقيدين من أجل حفظ القرآن . دخل ابن بطوطة يوم عيد الفطر على قاضي مالى ، فوجد أولاده في القيود ، ولما طلب تسريحهم ، قال له القاضي : لا أفعل حتى يحفظوا القرآن (٦٠) .

ووضح أثر الإسلام عند مختلف القبائل من ناحية الإصلاح والتهديب والتقريب بين القبائل المتنافرة ، ولعل من أبرز مظاهر هذا الأثر الإسلامى أن الجلبة والضوضاء التي كانت تقرر بالحفلات الوثنية الصاخبة ، قد اختفت بحيث لم يعد هناك مدلول لتلك العبارة التي اشتهرت عن أفريقية الوثنية (إذا غربت الشمس، رقصت أفريقية). (٦١)

ومن تقاليد المسلمين في تلك البلاد ، استجارة الناس ببيت الخطيب فضلا عن المسجد ، وحدث أن استجارت زوجة مانسا سليمان سلطان مالى (ت ١٣٦٠) بدار الخطيب في مالى العاصمة على أثر اكتشاف اشراكها في موموة (٦٢) ، وفي صنغى ، يتبرك المسلمون بالحجاج إذا عادوا من حجهم ، وجرت العادة أن يخرج

أسكيا وحاشيته وأهل المدينة لاستقبال الحجاج وطلب الدعوات منهم ، وفي هذا الإستقبال يقبل أسكيا ، أيدى الحاج حتى ولو كان عبدا ، (٦٤) كما أن للأشراف مكانة مقلدة في نظر المسلمين هناك ، وقد طلب أسكيا الأكبر خلال حجه من أميرمكة أن يبعث له بشريف ليتبركوا به ، فأرسله عام ٩١٥ هـ - ١١١٩ م (٦٥).

كذلك لعلماء الدين الإسلامي مكانة سامية في نظر مسلمي تلك البلاد حتى ، أن أسكيا داوود سلطان صنفى ، وقف بباب قاضى تمبكتو فلم يأذن له بالدخول إلا بشفاعة بعض العلماء ، ولما دخل جلس بجذاء القاضى (مستوقرا) وهو يتخشن ، وأسكى يتكين ، حتى أرضاه (٦٥).

وفي برنو ، غير النابات أسماء أسلافهم الوثنية إلى أسماء إسلامية ، مثل ييرى وهواسم إله المطر عندهم ، صار عثمان وكذلك ميدبلا Midila من أسماء آلهة كانم ، صار عبد الرحمن وهكذا (٦٦).

والخلاصة ، وجد الاسلام تربة خصبة في بلا السودان الأوسط والغربي ، ويزداد انتشاره في العصر الحاضر ، ولعل من أكبر العوامل ، زوال الإستعمار والصلوات الجديدة التي تقوى يوما بعد يوم بين تلك البلاد وبلاد الشرق الأوسط الإسلامي .

وبحسب بعض الإحصائيات ، هناك بعض الأمثلة التي تدلنا على هذه الحقيقة ، فنلا نجد المسلمين في جمهورية السنغال يبلغون نحو ٨٥٪ من سكانها (إحصائية ١٩٦٢) وجمهورية مالي دولة إسلامية وسكانها نحو ٥ مليون ، وفي غينية البرتغالية (حسب إحصائية ١٩٤٦) ازداد المسلمون بها في مدى خمسة عشر عاما من ٤٠ ألف إلى ٧٠ ألف (سكانها في عام ١٩٦٢ - نحو ٥٦٥ ألف) وغينيا أغلبها مسلم ، وجمهورية غينية إسلامية بها نحو ٨٠٪ مسلمون (السكان نحو ٣ مليون حسب إحصائية ١٩٦٢) وفي سيراليون يتركز المسلمون في الداخل ، وكذلك في ليبيريا وساحل العاج ، وفي فولتا العليا نحو ٦٠ ألف مسلم من السكان البالغ عددهم نحو ٣,٢٠٠,٠٠٠ نسمة حسب إحصائية ١٩٦٢ ؛ وفي جمهورية غانة ، ازداد المسلمون فيها في مدى ١٥ عاما من ٧٠ ألف إلى ١١٤ ألف ، ونسبة المسلمين في نيجيريا نحو ٤٥٪ من سكانها البالغين أكثر من ٤٠ مليون (١٩٦٣) ، وفي جمهورية

النيجر ٨٠٪ مسلمون (١٩٦٢) ، وأكثر من النصف مسلمون في جمهورية تشاد (١٩٦٢) . وهكذا . . . يزداد انتشار الإسلام حتى في البلاد الوثنية الساحلية التي تركز فيها نشاط البعثات التبشيرية في العصر الحديث ، فمثلاً في جمهورية نيجيريا ، نجد الإسلام ينتشر بين كثير من قبائل اليوروبا والإيبو (IBO) الوثنية المنتشرة في الجنوب (٦٧) .

- ٢ -

اللغة العربية

ارتباط الدعوة الإسلامية بانتشار اللغة العربية - العوامل التي ساعدت على انتشار اللغة العربية في بلاد السودان الأوسط والغربي - كيف ينطق المسلمون هناك الحروف العربية وطريقة كتابتهم - أثر اللغة العربية في اللغات المحلية - سيادة اللغة العربية وإفادتها بجميع الأغراض - نصوص عربية - بعض ما أضافه الأفريقيون إلى المكتبة العربية - ترجماتها إلى اللغات الأوربية - بين العربية واللاتينية .

وأما اللغة العربية ، فالواضح أن الدعوة الإسلامية في تلك البلاد كما في غيرها من البلاد الإسلامية ، قد ارتبطت باللغة العربية لغة القرآن والعلوم الإسلامية ، وسار الإسلام واللغة العربية جنباً إلى جنب مع الجهاد في سبيل نشر الدين وتوسيع رقعة البلاد الإسلامية في أفريقية ، فضلاً عن تنشيط الحركة التجارية .

احترم المسلم الأفريقي اللغة العربية احتراماً يقرب من التقديس لأنها لغة القرآن ، فيها يؤدى صلاته وبها يتلو القرآن وبواسطتها يلم بعلوم الدين .

وحتى إذا صعب على الأفريقي المسلم فهم اللغة العربية وألفاظها ومدلولاتها فهما عميقاً تاماً ، إلا أن مجرد لفظها يحمل جرساً فيه جمال ورقة وفخامة تجذبه إليها ، ومثل هذه الخصائص لم يجدها في اللغات الأوربية التي عرفها فيما بعد ، كما لاحظ بعض المسيحيين الأفريقيين (٦٨) .

وساعد على انتشار اللغة العربية والتمسك بها فضلاً عن الجانب الديني المرتبط بها ، أن الكثير من الشعوب الأفريقية في السودان الأوسط والغربي قد ادعى

الأصول الشرقية ؛ وإذا كان هذا الإدعاء لم يظهر أو لم يعرف إلا بعد انتشار الإسلام واللغة العربية في تلك البلاد ، فهذا دليل على حرص هذه الشعوب على التمسك بكل ما هو شرق عربي . كما يدل في نفس الوقت على مدى الترحيب والرضى والقبول التي ظفر بها الإسلام ولغته .

لقد ادعى ملوك ماني والتكرور وصنفي وبورنو والموسا والبولانين وغيرهم ، أنهم انحدروا أصلاً عن العرب وأن أسلافهم الأوائل جاءوا من الشرق . ومنهم من ادعى النسب العلوي ، مثل ملوك ماني وتكرور ، ومنهم كذلك من ادعى النسب إلى سيف بن ذي يزن الحميري مثل مايات كاتم وبرنو (٦٩) .

كما أن من سكان بورنو من ادعى الأصول اليمينية مثل ، قبائل الكانوري ، ويفسر ناخنجال الرحالة الأثاني كلمة كانوري بأنها مشتقة أصلاً من الكلمة العربية (نور) ثم أضيف المقطع (كا) الدال على معنى التبعية أو الارتباط ، فصار معناها : أصحاب النور أو حملة المشاعل . إشارة للدور الذي لعبته هذه القبائل في نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية (٧٠) . والمشهور أن قبائل الكانوري خليط من العرب والبربر والزنوج (٧١) . ويقال إن مملكة كاتم الأولى قد تأسست على أيدي العرب ، وكذلك الشأن بالنسبة لمملكة واداي الإسلامية (٧٢) . وادعى البولالا ، وهم فرع من الأسرة الحاكمة في برنو ، أن لهم أصولاً عربية من اليمن ، وكذلك ادعى الموسا أن أصولهم الأولى جاءت من مكة .

ومهما يكن في هذه الإدعاءات من بعض الأساطير ، فإن آثارها المحققة ، هي سرعة انتشار اللغة العربية فضلاً عن الإعتراف بها والفخر بالانتساب إليها وإلى مصادرها .

ومن العوامل التي ساعدت على انتشار اللغة العربية كذلك ، هجرة القبائل العربية إلى تلك البلاد واستقرارها فيها ، وهذه الهجرات قديمة وسابقة على دخول الإسلام ، وازدادت بانتشار الإسلام ، فتلا مجموعة القبائل العربية المعروفة في امبراطورية برنو الإسلامية باسم (شوا) ، وهي التسمية التي أطلقها عليها البرنويون ، يقال إنهم وصلوا عن وادي النيل وعن الشمال ، واشتهروا في جيش برنو بالفروسية . وفسر بعض الباحثين بأن أصل هذه التسمية عربي ، من الكلمة (شاء) في صيغة

الجمع ، وجمع الجمع (شوى) أى رعاية الأغنام ، ويقول البعض ، ربما كان أصل التسمية من الكلمة الحبشية « شا » Sha ، بمعنى راع (٧٣) ؛ وأيا كانت الأصول والتخريجات ، فهذه مجموعة عربية . كما أن من القبائل العربية من احتفظت باسمها الأصلي مثل جذام ، وكان المائى عثمان (ت ١٤٢٥ م) قد استشعر خطر جذام ، فأرسل إلى برقوق ملك مصر ، باعتبارها أم الدنيا ، كما جاء فى رسالة صاحب البرنو التى يشكو فيها (٧٤) .

هذا ومصاهرات العرب الشوا وغيرهم من دعاة المسلمين العرب والبربر مع القبائل الأفريقية ، ساعدت على انتشار اللغة العربية بجانب الإسلام . فالبولالا مثلا ، من فروع الأسرة المالكة فى برنو ، يدعون أنهم نتيج المصاهرات بين الشوا والزوج ، ومن أجل ذلك ، قالوا إن لهم أصولا تنحدر عن عرب اليمن ، أى أن الدماء العربية أو المستعربة قد اختلطت وامتزجت بدماء أفريقية السوداء (٧٥) .

ويحرص المتكلمون باللغة العربية فى برنو مثلا على الإحتفاظ بها حتى لا تظنى عليها اللغات المحلية ولا سيما لغة الكا نورى ، كما أن اللهجة العربية السائدة فى برنو تغلب عليها اللهجة الحجازية (٧٦) .

وهكذا وجدت اللغة العربية تربة خصبة فى بلاد غربى أفريقيا بل ظلت كذلك حتى عصر الإستعمار الأوربي ، فثلا عندما وصل الرحالة الإنجليزي فرانسس مور Francis Moore عام ١٧٣١ إلى غمبيا البريطانية ، وجد معظم أهلها يتكلم اللغة العربية كما وجد القرآن شريعته ، ومما أثار دهشة أن إلامهم باللغة العربية كان أكثر من إلام أهل أوربا الوسيطة باللغة اللاتينية ، وجد كذلك أن الكثير يتكلم باللغة العربية بالإضافة إلى لغته الأصلية المحلية (٧٧) .

كذلك وجد مانجوبارك أوائل القرن ١٩ م ، عددا كبيرا من المدارس التى تعلم القرآن واللغة العربية ، وفى سيراليون ، وهى تسمية برتغالية ، وجد الإنجليز جماعات من القبائل الأفريقية تتقن اللغة العربية وتعنى بإنشاء المدارس الخاصة لتعليم القرآن ولغته .

ورغم الجهود التى بذلها الإستعمار الفرنسى والإنجليزى للقضاء على اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية فى تلك الجهات وتحويل أنظار الأفريقيين من فانس وتونس والقاهرة ومكة ، فانه فشل فشلا ذريعا ، إذ كان المسلمون والمستعربون من الأفريقيين

يعملون إلى إنشاء مدارسهم ومؤسساتهم الثقافية في المناطق الوثنية النائية ، كما في ساحل العاج ونيجيريا .

من أجل هذا لم يخطئ سير توماس أرنولد حين قال منصفاً : بلغت اللغة العربية وهي لغة القرآن درجة عظيمة من الذبوع والإنتشار حتى غدت لغة تخاطب بين قبائل نصف القارة السوداء . ثم يردف بقوله : وهذا تقدم كبير في الحضارة الأفريقية (٧٨) .

لكن يلاحظ أن اللغة العربية لم تنس القبائل الأفريقية في غربي أفريقيا لاعتبا الوطنية أو تقض عليها ، بل ظلت هذه اللغات بجانب اللغة العربية : لغة الدين والثقافة والمدينة والحكومة والتجارة . بدليل أن ملوك غانة الوثنيين استخدموا ترجمة من العرب المسلمين وأن السلطان كنكن موسى مع إجادته (اللسان العربي) كما يقول العمرى ، كان يكلم المهمندار ، مرافقه في القاهرة ، عن طريق ترجمان (٧٩) .

ويشبه هذا ما كان عليه وضع اللغة اللاتينية عند الملوك الجرمان والشاليين وشعوبهم ، فهم يتكلمون بلغاتهم الأصلية : الفرنجية أو النورمانية أو الوندالية أو القوطية أو السكسونية ، بجانب اللغة اللاتينية ، ولكن العبادة والحكومة والثقافة والآداب والقوانين ، فباللغة اللاتينية .

وهناك خصائص في نطق الحروف العربية بين مسلمي السودان الأوسط والغربي ، من هذه الخصائص :

الحروف : ت ، ش ، ص ، تنطق مثل س (S) ، فكلمة « شيخ » مثلاً ، صارت « سيكو » Seku ، وكلمة « شريعة » أصبحت « ساريا » عند الماندينجو . على أن حرفي « ث » ، « ش » ينطقان أحيانا مثل حرف « ت » كما في كلمة « ثوم » فهذه تنطق « أتوم » Attum ، وكلمة « شاي » تنطق « أتاي » Attai

الحروف : خ ، غ ، ق تنطق مثل الحرف « ك » K أو g (hard) كما في كلمة « القرآن » فهذه تنطق « الكران » عند الولوف و « الكرانو » عند المالك و « الكراناء » عند الديولا . و « خليل » يصبح « كاليو » والقاضي « كالي » أو « كاتي » عند الديولا ، والقمح « يصبح » الكا Alkama و « القفطان » يصبح « الجفتان » Algaftam . وينطق حرف « ق » أحيانا مثل « ت » كما في

كلمة « القبلية » ، فهذه تنطق « التيبلا » Al - Tyibla ، وكلمة « الغنيمة »
تنطق « الجنيما » Alganima .

وينطق حرف « ج » مثل « د » كما في كلمة « جهنم » التي صارت « دياناما »
عند البامبارا ، و « ديانداما » عند الديولا . وتنطق كلمة « القجر » « فاديا » عند
اللولوف ، وكلمة « فرجية » « تنطق فرندي » Farandy ، وهكذا
وينطق الحرف « ض » مثل حرف « ل » ، كما في كلمة « الوضوء » عند
الموسا ، فهذه تنطق « اللوا » Allowa

وينطق الحرف « ز » مثل « د » كما في كلمة « الميزان » ، فهذه تنطق « الميديان »
Almydyan.

وحرف « ط » مثل « ت » كما في كلمة « البطيخ » فهذه تنطق « البتا » Albata
و « ينطق حرف » « ر » أحيانا مثل حرف « ل » ، كما في كلمة « الريح » فهذه
تنطق « الباهبا » Albaha . وأحيانا ينطق حرف « ف » مثل حرف « ب »
كما في كلمة « لفت » فهذه تنطق « لبتى » Lebti . وهكذا .

والملاحظ أن فروق النطق في الألفاظ العربية هذه ليست عامة بين جميع قبائل
السودان الأوسط والغربي ، فهناك اختلافات محلية ، كما هو الشأن في الفروق المحلية
القائمة في اللغة اللاتينية في أوروبا الوسيطة ، بل في أية لغة ، فمثلا ، بينما تنطق بعض
قبائل الماندينجو حرف « ص » مثل « س » ينطق بعض قبائل الموسا ، هذا الحرف
مثل « ز » (٨٠) .

وأما طريقة الكتابة ، فهي طريقة المغاربة وأهل فاس بصفة خاصة ،
يقول القلقشندي : « وكتابهم بالخط العربي على طريقة المغاربة » (٨١) . ووضحت
هذه الطريقة في النصوص العربية المصورة والكتب المنشورة ، ومن خصائص
هذه الكتابة ، أن نقطة حرف الفاء توضع أسفل الحرف هكذا « ف » كما يستبدل
بنقطتي حرف القاف ، نقطة واحدة وتوضع فوق الحرف هكذا « ف » ، وهذا
يجانب رسم الحروف الذي يختلف قليلا عن الرسم المعروف في بعض مقاطعه ،
ويقرب مما نعرفه بالخط الكوفي .

هذا وقد تركت اللغة العربية أثرها في اللغات المحلية للدرجة كبيرة ، وظهر
هذا الأثر واضحا في لغة الموسا وصنفي أكثر من غيرهما من اللغات المحلية ، كما

أن أثر التعريب في المدن الإسلامية في وادى وبرنو وصنغى ، أوضح منه في المدن الإسلامية الأخرى في بلاد السودان الأوسط والغربى .

يقول ديشان Deschamps :

« لم تكثف قبائل الممالك الأفريقية بلخولها في الإسلام ، بل طبعت بطابع عربى ، بسبب انتشار اللغة العربية في تلك البلاد » (٨٣) . ويوجد في لغة الهوسا كثير من الكلمات ذات الأصول العربية ، بل إن الحروف العربية استخدمت في كتابة لغة الهوسا منذ زمن مبكر ، واحتفظت لغة الهوسا بقيمتها وأهميتها حتى اشتهرت بأنها بأنها اللغة السائدة « Lingua Franca » للتجارة بين المناطق الشمالية في غانة في الغرب إلى الكرون في الشرق ، حيث صار الإللام بها أمرا ضروريا لجميع القبائل ؛ ويقال إن لغة الهوسا أصولا ترجع إلى لغة البربر واللغة القبطية (٨٤) . كذلك تكتب اللغة القولانية بالحروف العربية :

وإذا كانت اللغة العربية قد تركت آثارها في لغات بلاد أوربا الجنوبية ، وحتى الشمالية ، كما في اللغة الإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية ، والإنجليزية ، بل إن لغة جزيرة مالطة أصولها عربية (٨٤) ، إذا كان هذا واضحا في تلك البلاد على قصر أمد الإسلام واللغة العربية بها من الناحية الزمنية ، فلاشك أن هذا الأثر أوضح وأبرز في اللغات الرنحية المحلية التي ظلت شعربها متمسكة بالدين الإسلامى ومظاهر الحضارة العربية الإسلامية حتى اليوم .

ولا يزال إلى اليوم آلاف من الكلمات العربية المستخدمة في بلاد غرب أفريقيا ، في شتى مظاهر الحياة : في الحياة الدينية والثقافية والاقتصادية ، وفي الحرب والسياسة ونظم الحكم ، وحتى في أسماء النباتات والمدن والحيوان والاعلام ، وعلى سبيل المثال : نجد في الحياة الدينية كلمات عربية مثل :

الله : صارت ياللا أو يالف عند اللوف والصنغى والقولانيين والباببارا والديولا والصوصو والخاصونك .

الحمد لله : صارت هاند اللايا في السنغال

إمام : الإمام أو أئماى في شتى بلاد غرب أفريقيا .

بيت الله : بيتل في السنغال .

وفي مجال التعلم :

استخدمت كلمة « قرأ » « يقرأ » وما يشتق منها في الدلالة على معنى : التعليم أو العلم وعلى معنى عالم أو أستاذ أو طالب علم أو مدرسة ، وتنطق كـأرا وكأرها عند الماسانديج وكارادا عند المالنك وكاراني عند الديولا .

وفي أسماء الأعلام :

النبي محمد : أمادو أو دودو

أحمد : أمادو

محمود : مامودو

محمد : مامادو

الأمين : لامين

الحسين : أوسينو

أبو بكر : بوكار أو بوبكر أو باكاردو

ابراهيم : براهيم أو بوهاريم

عائشة : إيسانو

حفصة : أفسا

فاطمة : فاتياتو أو فاتيماتا أو فاتو

بنت : منت وهكذا

ومن أسماء المدن ، نجد أن كثيرا من أسماء المدن العربية الإسلامية قد أطلق على مدن في غربي أفريقية ، مثل : مصر صارت « ماسيرا » في غينية ، والطائف صارت « تايفا » في غينية ، والقيروان أصبحت كيروان في السنغال . وهكذا (٨٥) .

ويقترن العهد الزاهر للغة العربية والعلوم العربية الإسلامية في غربي إفريقيا بعهود الإمبراطوريات الأفريقية ، فقد كانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية السائدة واستخدمت في شتى الأغراض وأوفت بها .

كذلك استخدمت اللغة العربية في مجال الحكم والإدارة والقضاء ، ثم هي لغة المكاتبات الرسمية بين هذه الدول وبين العالم الإسلامي الخارجي ، ووجد في الدواوين المصر يقرن الممالك صيغ عربية خاصة لمخاطبة ملوك تلك البلاد .

فثلا كانت افتتاحيات المكاتبة للملك التكرور ، وهو صاحب مالى وكذلك للماينات في برنو على تسق واحد :

« أدام الله نصر المقر العالى ، السلطان الكبير العالم المجاهد المؤيد الأواحد عز الإسلام شرف ملوك الأنام سيف الخلافة ظهير الإمامة » . (٨٦) ومن هذه التعبيرات تتضح مدى الرابطة والعلاقة ، فضلا عن تعمق العقيدة الإسلامية في بلاد غربى أفريقيا .

وبالمثل كانت المكاتبات الصادرة من ملوك نيجريا باللغة العربية ، وتدلنا على مدى تقدم الأسلوب العربى . فثلا جاء في الرسالة التى بعث بها المالى عثمان ملك برنو (ت ١٤٢٥) ، إلى برقوق سلطان الممالك في مصر ، يشكو فيها من اعتداءات قبيلة جذام العربية :

بعد البسملة والتصلية والحمد لله . . .

«من المتوكل على الله تعالى الملك الأجل سيف الإسلام وريع الأيتام الملك المقدام المستنصر بالله . . . الملك الفشمشم (من الجفرا والشجاعة) إلى ملك المصر الجليل أرض الله المباركة ، أم الدنيا ، سلام عليكم أعطر من المسك الأذفر وأعذب من ماء الغمام واليم . . . » (٨٧) . ثم إن القوانين والمراسم التى تصدرها الحكومة الإسلامية في نيجريا لرعاياها ، كانت كلها تصدر باللغة العربية ، كدعوة لبعض الرعايا للانخراط في الجيش ، بصدد حرب ، أو مراسيم لتعيين القضاء والأئمة والعلماء في مناصبهم ، وهناك مرسوم بشأن دخول الإسلام أصلره الملك أوم (١٠٨٦) في برنو ، وهكذا .

وحق في المراسلات الخاصة الداخلية ، فثلا كتب أحملى (أو أمادو) وهو ابن الحاج عمر التكرورى سلطان سوكونو (في القرن ١٩) رسالة إلى صديق يعزبه في وفاة ولده ، وهذه مصورة في كتاب أبطال السودان : Pioniers de Soudan ، ويتضح في هذه الرسالة مدى قوة الأسلوب العربى وبلاغته ، ومما جاء فيها بعد البسملة :

« عبدربه الحق البر أمير المؤمنين أحمد بن عمر بن سعيد أسعدهم الله في الدارين، منا إلى صحبنا وخاصة الخاصة من أصحاب أبي بكر بن الحاج محمود، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، موجه أنا قد سمعنا بوفاة ثمرة فؤادك ومهجة قلبك الكبير، فاسترجعنا وفزعنا إلى الله تعالى ودعواناه باسمه القريب المحيب أن يتلقاه بفضلته ورحمته .. فإذا أتاك كتابنا هذا فاعلم بأن له ما أخذ وله ما أعطى .. فإذا فهمت ذلك فاعلم بأن الرجل إنما يتبلى على قدر دينه» (٨٨) .

وكذلك في شواهد القبور ، كانت اللغة العربية هي السائدة ، وقد عثر على عدد كبير من المقابر في أطلال مدينة كومبي صالح عاصمة إمبراطورية غانة الإسلامية ، منها : شاهد قبر لسيدة مكتوب عليه :

« اللهم ارحم فاطمة الطاهرة بنت سيدنا محمد ابن سيد موسى » ، كما عثر في مدينة ساني (١٩٣٩ م) قرب جاو عاصمة إمبراطورية صنغي ، على عدد من شواهد القبور الملكية يرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي (٨٩) .

وفي مجال التعليم والحركة العلمية ، وهو أخصب الميادين إنتاجا في المكتبة العربية ، كان أساس التعليم العربي الإسلامي حفظ القرآن وتفسيره ودراسة اللغة العربية والعلوم الإسلامية . وأشهر مراكز الدراسات العربية الإسلامية تمبكتو زمن مالي وصنغي وبها جامعة سنكري ، وجني وجاو ووالانة ونيمه وكومبي صالح وسوكوتو وكانو وكاتسنا ودوارو وزاغه وكابرا وغيرها .

ومن الكتب التي اشتهرت عندهم في التفسير : تفسير الجلالين ، ربما لاختصاره وللمكانة المرموقة التي احتلها أحد الجلالين في نيجيريا وهو عبد الرحمن أبو بكر السيوطي (ت ٨٩١١ - ١٥٠٥ م) ، حتى قيل إن أمير المؤمنين أسكيا الحاج سلطان صنغي (ت ١٥٢٩) كان كثير التشاور مع السيوطي في مصر وكان قد التقى به في مصر خلال حجه ، كذلك لابد من دراسة السيرة النبوية ، ولئن يريد أن يكون معلما ، عليه أن يلم بالتاريخ الإسلامي العام بجانب بعض الدراسات اللغوية والأدبية من شعر ونثر ، ومن الكتب الأدبية التي أقبلوا عليها : مقامات

الحريرى ، كذلك درّست ، ودرست أمهات الكتب فى العلوم الإسلامية المختلفة وضمنها مكتباتهم ، كما كانت فى تمبكو سوق رائجة للكتب ، ومن هذه المصنفات على سبيل المثال :

أصول السبكى - الفية المراق - صحيح البخارى - صحيح مسلم - مختل ابن الحاج - الخرجية فى العروض - مختصر خليل - الموطأ - شفاء عياض (٩٠) .

وقد شجع الملوك على تعلم العربية والعلوم الإسلامية ، ومن الملوك من أجاد العربية وكان من العلماء فضلا عن الجانب السياسى مثل كنتكن موسى (ت ١٣٣٧ م) وأسكيا داوود (ت ٩٩١ هـ - ١٥٨٣) آخر ملوك صغنى إذ كان جافظا للقرآن وله خزائن كتب ونساخ ينسخون ، وكان يهدى العلماء من خزائنه ، واشترى نسخة من القاموس فى تبنت كتباً ثميناً مثقالاً من الذهب وأعطاهما إلى الفرج محمود كعت صاحب كتاب الفتاش

أما التراث العربى الذى كتبه وصنّفه العلماء والمؤك الإفريقيون فى غرب أفريقيا ، فقد غطى فنون المعرفة المختلفة : من تاريخ وآداب إلى علوم لغوية وفقهية وحديث ، وهذه تعد بالآلاف إن لم يكن بعشرات الألوف ، غير أن الذى وصلنا منه قليل ، وهذا القدر على قلته يعد بالآلاف إن لم يكن بالألوف ، ولا يزال بحاجة إلى بحث وتحقيق ونشر .

تعرض هذا التراث العربى الإفريقى الضخم إلى أكثر من كارثة ، فخلال حركة القضاء على تجارة الرق من القرن ١٧ إلى ١٩ ، دمر الكثير من هذا التراث العربى وما أفلت منه تعرض لحركة تدمير أخرى . ولكنها جزئية ، والمسئول عنها بعض الأفريقيين ، إذ أدى الغزو الفولانى لبلاد الهوسا زمن السلطان محمد بللو بن عثمان دان فردى (القرن ١٩) إلى تدمير معظم وثائق ومؤلفات دول الهوسا ، وسرعان ما أدرك السلطان بللو قيمة هذه الوثائق والمؤلفات ، فأقبل على دراسة ما بقى منها واعتمد عليها فى إصدار كتاب عن تاريخ الهوسا من وجهة نظر الفولانيين . أما الكارثة الثالثة التى حلت بالمخطوطات العربية فى تلك البقعة من أفريقية ، فجاءت

خلال حركات الكفاح للتححرر الوطنى ضد الإستعمار الأوروبى ، وهو الإستعمار الذى دمر المدن الإسلامية الزاهرة فى غربى أفريقيا .

وقد عثر على الكثير من القلة التى نجت من التدمير من المخطوطات العربية ، منها ما عثر عليه الرحالة الألماني بارث Barth خلال رحلته (١٨٤٩ - ١٨٥٥) ، فقد عثر على مخطوطة فى برنوبها أسماء ملوك برنو القدماء ومخطوطة بها أسماء ملوك كاتسنا من الهوسا ، كما عثر على كتاب تاريخ السودان لعبد الرحمن السعدى المتوفى بعد عام ١٦٥٥ م ، كذلك عثر على مخطوطة عربية عن تاريخ مملكة صنغى وأخرى عن تاريخ برنو وغيرها عن تاريخ كانو من دول الهوسا ، وقد نشرها (٩١)

وجمع الدكتور ولوت بليدن W. Blyden المسيحى الليبيرى عدداً من المخطوطات العربية خلال رحلته التى بدأها عام ١٨٥٦ وسافر فيها إلى الشرق لإتقان اللغة العربية ، وعلق على ما عثر عليه فى بلاده بأن المخطوطات التى وجدها ببلاد الماندينجو أحسن خطأ وموضوعاً من تلك التى رآها فى منطقة غمبيا (٩٢) .

وعثرت شركة النيجر الإنجليزية على مخطوطة عربية فى كانو (من دول الهوسا) ، وترجمت إلى الإنجليزية ترجمة رديئة وبها عهود ٤٢ ملكاً من ملوك كانو فى إيجاز ، وإلى هذه الشركة يرجع الدور الأكبر الذى أدى إلى امتداد الإستعمار الإنجليزي إلى إمارات الفولانيين الإسلامية فى حوض النيجر (٩٣) .

وعثر روبنسون الإنجليزي Robinson على مخطوطة عربية فى زاريا من بلاد الهوسا ، وله كتاب عن آداب الهوسا أصدره عام ١٨٩٦ وضمنه أشعاراً لعثمان دان فودى الفولانى .

وقد جمع الفرنسيون عدداً كبيراً من المخطوطات العربية ونقلوها إلى فرنسا وإلى دكاكر عاصمة السنغال ، ويوجد بقسم الوثائق بجامعة دكاكر عدد كبير من المخطوطات العربية يربو عددها على ٤٠٠ (٩٤) .

وترجم عدد كبير من هذه المخطوطات العربية إلى اللغات الأوربية المختلفة ولا سيما الفرنسية والإنجليزية ، ترجمها الكتاب والضباط والمكتشفون والحكام ، من هذه الترجمات ما قام به سير رتشموند بالمر palmer حاكم نيجريا

زمن الإستعمار، إذ ترجم في كتابه المعروف باسم Sudanese Memoirs ، ويتكون من ثلاثة أجزاء : ٢٢ مخطوطة عربية ، نشره في لاجوس عام ١٩٢٨ ، وتتعلق هذه المخطوطات بتاريخ السودان الأوسط والغربي منها : حروب كاتم لأحمد بن فرتوا مؤرخ بلاط برنو وأنساب البولالا وأخبار الصو ودخول الإسلام في برنو وتواريخ دول الهوسا مثل كاتسنا وكانو ودوارو الخ .

وفي كتابه المعروف باسم The Bornu Sahara & Sudan الذى نشره في لاجوس عام ١٩٣٦ ، ترجم كثيراً من المخطوطات العربية ملخصة منها (ديوان مايات برنو) وبعض المراسيم العربية التى كان يصدرها المايات ومعاهدات بين برنو وسلطنة أهير البربرية الخ ...

كذلك ترجم دولا فوس الفرنسى Delafosse عدداً من المخطوطات ، منها تاريخ مملكة واجادوا (ضمن غانة) والصراع بين الصوصو والمندنجو وتاريخ مملكة البامبارا وتاريخ عمر التكرورى وابنه أمادو ، وجاءت ترجماته وتعليقاته وبحوثه مرجعاً هاماً لمن نقلوا عنه أمثال موتى Monteil ولابورى Labouret الفرنسيان وغيرهما ، ومن أمثال قادة الفكر العربى الإسلامى من الوطنيين الأفريقيين ، وما خلفوا للمكتبة العربية : الفع محمود كمت الوعكرى (فى أعالي النيجر) وهو معاصر لأسكيا الحاج أعظم ملوك صنغى وكتابه (تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الامرو وتفريق أنساب العبيد من الأحرار) ويتضمن وصفاً دقيقاً لأبراطورية صنغى زمن الأساكي ، وأكله حفيده إلى عام ١٦٠٠ وقام غيره بالتدليل عليه إلى عام ١٦٦٠ م ، نشره هوداس ودولافوس عام ١٩١٣ م وترجماه إلى الفرنسية .

ومن علماء القرن ١٧ ، عبد الرحمن السعدى صاحب كتاب تاريخ السودان ، وهو من أسرة سودانية أرستقراطية توفى بعد عام ١٦٥٥م وفصل فى حوادث الفتح المراكشى لصنغى كما ترجم لسلطين صنغى وباشوات السودان :

وفي القرن التاسع عشر نجد مثلاً : عثمان دان فودى القولانى (ت ١٨١٧)،

ومن مؤلفاته : القول المختصر في لمهedy المنتظر - وثيقة أهل السودان ومن شاء من الإخوان (وقد عثر عليهما بالمر) .

السلطان محمد بللو بن عثمان دان فردى الفولاني الأديب الشاعر، ومن مؤلفاته الإعلام فما يجب على الإمام - إتفاق اليسور في التاريخ ، والأخير ترجم منه بالمر كثيراً من النصوص .

الحاج عمر التكرورى (١٨٣٣) سلطان التكراره ويسمى نفسه : قطب الأقطاب وخاتم الألباء ، ومن مؤلفاته : رماح حزب الشيطان وقصيدة في مدح السيد محمد أمين الكانمى ، وكان شعر الحاج عمر يتغنى به من فوتا في سيراليون إلى كانو في بلاد الهوسا .

أحمدو أو أمادوبن الحاج عمر (أشرت إلى رسالته كنموذج للأسلوب العربى راجع صحياه ٧٥ فيما سبق) .

الشيخ محمد أمين الكانمى (١٨٣٥) في كانم وبرنو ، من تراثه : قصيدة في نصيحة الحكام .

يوسف بن عبد القادر من برنو (ت ١٨٥٠) له منظومة في قواعد الإعراب وقصيدة في مدح النبى .

ومن علماء القرن العشرين : موسى كمارا من السنغال (ت ١٩٣٠ م) ومن مؤلفاته : زهور البساتين في تاريخ السوادين ، وغير هؤلاء كثير لم يحصروا بعد ولن يحصوا عدداً . يتضح مما سبق أن اللغة العربية كانت اللغة الدولية في العصور الوسطى في جميع البلاد الإسلامية : فهي لغة الدين والثقافة والتجارة ثم هي لغة الحكومة والإدارة والقضاء ، كما أصبحت لغة تخاطب في كثير من بلاد نيجريا مع وجود اللغات المحلية . ثم هي من بعد لغة المراسلات الدولية والوثائق والمعاهدات .

واللغة العربية بهذا الوضع ، نهضت بالدور الذى نهضت به اللغة اللاتينية في أوروبا الوسيطة ، فقد كانت اللاتينية لغة الإتصال والتفاهم بين الدول الأوروبية ثم هي لغة الحكومة والإدارة والكنيسة ورجال الدين ، وكذلك في القضاء ، وهي لغة التعليم المشتركة في شتى بقاع أوروبا ، ولذلك لم تكن هناك عراقيل دون تنفلات الأساتذة والطلاب بين جامعات أوروبا الناشئة أو بين المدارس الديرية أو الكندرايه ، فثلا لم

تكن هناك عقبة لغوية يوم انسلخت جامعة أكسفورد عن جامعة باريس أم جامعات الشمال في القرن الثاني عشر الميلادي . وحين نبتت جامعة كمبريدج من كسفورد .

وكما أن اللغة العربية لم تقص على اللغات المحلية في غرب أفريقيا وإنما أثرت فيها أثراً كبيراً ، كذلك لم تقص اللغة اللاتينية على اللغات الجرمانية أو النورمانية في أوروبا ، فكان الجرمان أو النورمان يتخاطبون فيما بينهم بلغاتهم الخاصة : الفرنسية أو السكسونية أو القوطية أو الوندالية أو البرجندية أو النورمانية أو غيرها . ولكن العبادة والإدارة والثقافة والقانون والآداب . فكانت جميعها باللاتينية ؛ فثلا من القوانين الجرمانية المكتوبة باللغة اللاتينية : قانون الفرنجة البحريين Lex Salica وقانون الفرنجة البريين Lex Ripuaria والقانون السكسوني Lex Saxonum ، وكذلك القانون اللومباردي والقانون النورمانى في إنجلترا وصقلية . ورغم أن القوط كانت لهم من دون سائر القبائل الجرمانية لغة مكتوبة وأبجدية قوطية معروفة وأن الإنجيل ترجم إلى اللغة القوطية (في القرن الرابع الميلادي) ، فانهم استخدموا اللغة اللاتينية حتى في ألقاب الملوك ؛ وكما أجاد الكثير من أمراء وسادات غرب أفريقيا المسلمين اللغة العربية فضلاً عن العلوم الإسلامية العربية ، كذلك كان الشأن بالنسبة لسادة الجرمان أمثال سيسبوت القوطى في القرن الرابع الميلادي ، وشارلمان الفرنجى في القرن التاسع الميلادي ، علماً بأن الأول كان مجوداً في اللاتينية الكلاسيكية ووضع كتاباً عن سيرة القديس ديدي *Didier* أسقف فينا ، وأن الثاني كان أمياً (٩٥) .

أما وجه التفوق الذى ظفرت به اللغة العربية على قريبتها اللاتينية ، فينحصر في أن الأولى اكتسبت صفة القداسة في غرب أفريقيا لأنها لغة القرآن والصلاة والعلوم الإسلامية ؛ فثلا نشر كراوثر *Crowther* أسقف النيجر رسالة في عام ١٨٧٠ في مجلة *Christian Observer* ، بصدد الإذن الذى ظفر به من أحد الملوك في منطقة النيجر للسماح بقيام بعثة تبشيرية للعمل في بلاده ، وذكر في هذه الرسالة أن الإذن الملكى بعد أن سجل بالإنجليزية تناوله السلطان وسلمه إلى أحد علمائه لترجمته إلى اللغة العربية (٩٦) .

وأما اللاتينية فلم تكتسب مكانتها المرموقة إلا لأنها لغة الحضارة الرومانية العريقة على حين أن لغة العقيدة المسيحية الأصلية لغة سامية (٩٧) .

ومما زاد في مكانة اللغة العربية وتفوقها على اللاتينية ، أن القرآن والعلوم الإسلامية فضلاً عن الصلاة ، ظلت تتلى باللغة العربية حتى العصر الحاضر رغم طغيان لغة المستعمر في غربي أفريقيا على ما عداها من اللغات ، فثلاً لانتقال المدارس الإسلامية ، وهي التي وصفها الفرنسيون بالمدارس القرآنية ، تدرس باللغة العربية في السنغال وغينيا وسيرالون وليبيريا وساحل العاج وغانة وفولتا العليا وداهومي ونيجيريا وجمهورية النيجر وتشاد فضلاً عن مالي الإسلامية .

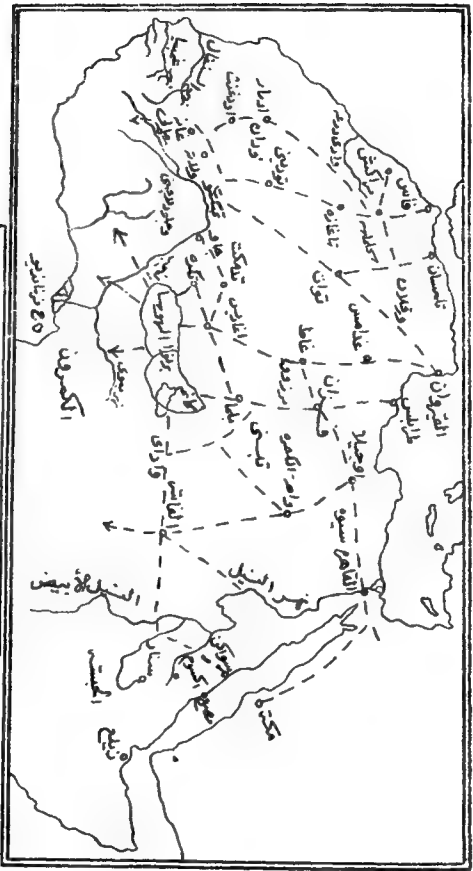
على أن هذا الوضع ليس قاصراً على بلاد غربي أفريقيا ، بل هو القائم فعلاً حتى اليوم بين جميع المسلمين من شتى الأجناس في مختلف بقاع العالم مهما اختلفت لغاتهم المحلية ، فلا يزال القرآن يتلى باللغة العربية ولا زالت الصلاة تؤدى بالعربية من أندونيسيا والفلبين في أقصى الشرق إلى مسلمي الأمريكيتين في أقصى الغرب .

ومن أجل هذا ، يرى بعض المثقفين من المسيحيين الأفريقيين في القرن التاسع عشر ، أن ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى ، سوف تفقده جمال الأسلوب العربي وعذوبته وفخامته وإعجازه اللغوي ، ولعل هذا هو الذي حمل أئمة الإسلام في العصر الحاضر على قصر الترجمة على معانيه . وليست على ألفاظه .

وأما اللغة اللاتينية فهي دخيلة على لغة العقيدة المسيحية الأصلية ، بل إن العقيدة المسيحية كانت تمارس بالأغريقية واللاتينية زمن ازدهار اللغة اللاتينية ، أي أن العقيدة المسيحية تؤدى بغير لغتها الأصلية ، وسرعان ما فقدت اللاتينية مكانتها بل ووجودها أمام ظهور اللغات القومية الأوروبية الحديثة منذ القرن الثالث عشر الميلادى تقريباً ، فقد حلت هذه اللغات محل اللاتينية في شئون العبادة والثقافة والحكومة وجميع مظاهر الحياة وأصبحت اللاتينية اليوم في عداد اللغات الميتة ، مما لم يحدث للعربية .

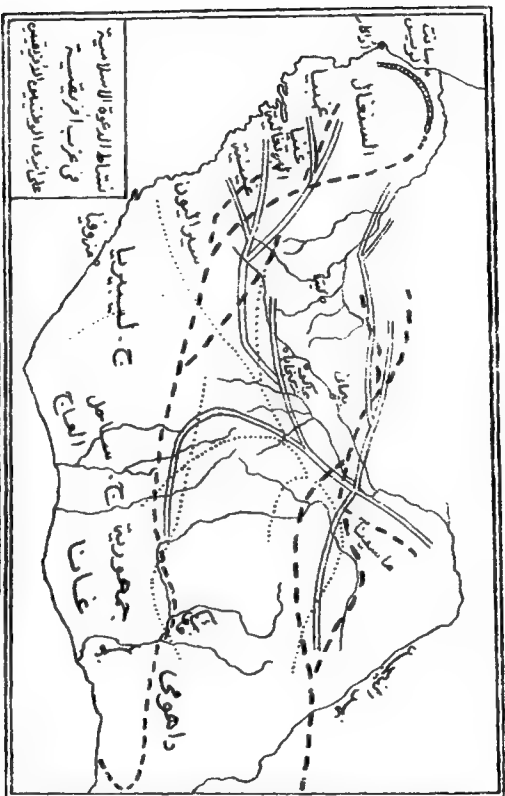
وأخيراً إن المساحة المكانية التي سادت فيها اللغة العربية وحضارتها ، تفوق تلك التي سادتها الحضارة اللاتينية رغم انبساط السيادة الرومانية عليها لبضعة قرون ، فثلاً تشمل الحضارة اللاتينية بلغتها جميع أجزاء غالة الرومانية ، بل لم تمس الحضارة اللاتينية بريطانيا الرومانية إلا مساً خفيفاً عابراً رغم سيادة الرومان السياسية في بريطانيا مدة لا تقل عن أربعة قرون .

خريطة رقم ١



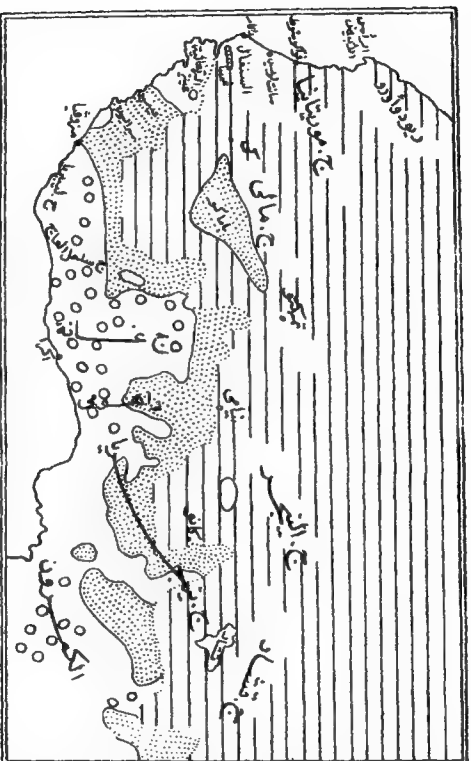
طرق القوافل الرئيسية
بين بلاد السودان وشمال أفريقيا

خريطة رقم ٢



نشاط الدعوة الإسلامية
في غرب أفريقيا
على أيدي الوهابيين الأوربيين

السودان	==
البحر الأحمر
الخليج	=====
الغولف	=====



انستشار الاسلام في غرب أفريقيا	٥٠
مطبعة الاسكندرية	١٠٠
البريد ٧٥	٥٠
مركز اسكندرية	٥٥

المواشى والمراجع

- (١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط (مصر ١٩٤٦)
ص ١٢٠ - ١٢٣ .
- (٢) المرجع السابق ص ١٢٧ - ١٢٩ .
- (٣) محمد سعيد اسماعيل : المسلمون فى الاتحاد السوفيتى والصين الشعبية (مصر ١٣٨٠ هـ ، ١٩٦٠ م) ج ١ ص ١٠ - ١٢ .
- (٤) أبو الفدا (اسماعيل صاحب حمات ٧٢٢ هـ / ١٣٢٢ م) : كتاب تقويم البلدان (ترجمه ونشره ش . سولفى Ch. Solvet الجزائر ١٨٣٩)
ص ١٥١ - ١٥٤ ؛ القرنائى (أبو حامد محمد بن عبد الرحيم الأندلسى ت ١١٧٠ م) - نشره ج . فرار G. Ferrard - باريس ١٩٢٥) ص ٤١ ؛
انظر كذلك :
- Dudly Stamp Africa, A Study in Tropical Development, (Lond., 1952), p. 220; Pedler, F.J., West Africa (Straid. Eng., 1959), p. 14
- De La Roncier, Ch., La Découverte de l'Afrique au Moyen. Age (Le Caire, (٥)
1925), T.I p. 72; T. II, p. 125; Okafor. A., Hist. of West Africa (In the New West Africa, Lond., 1953), p.24; Blyden, W., christianity, Islam and the Negro Race (Lond., 1881), P. 350; Johnston, H.H., A Hist of: the Colonization of Africa by Allien Races, Cambr. 1913, p. 49; Church, R. J. H. West Africa, Lond., 1961, pp. XXIII-XXIV
- Gouilly, A., L'Islam Dans L'Afrique Occidentale Française, Paris, 1952, p.45. (٦)
- Davidson, B. Old Afria Rediscovered, Lond., 1959 p. 91; Bovill, E.W., The (٧)
Golden Trade of the Moos, Lond., 1961, pp. 42, 52-54; Hegben, S.T., The Muhammadan Emirates of Nigeria, Lond., 1930, pp. 4, 26, Shinnie. M. Ancient African Kingdoms, Lond., 1965, pp. 66-68; L. lugard, F.L. Shaw, A Ttopical Dependency, Lond. 1905, pp. 86-88; Johnston, op. cit. p.48; Hodgkin, J T, Islam & National Movement in West Africa. (The Third Conference on African Hist. & Archeology, Lond., 1961); Ado Boahen, (Univ. Coll. of Ghana. (The Carrvan Trade in th the 19 thCentury (The Third Conference ..., Lond., 1961); Ivor Wilks (univ. Coll of Ghana), A Medieval Trade Route from the Niger to the Gulf of Guinea (the Third Conference ..., Lond; 1961).
- (٨) ديشان (Deschamps) : الديانات فى أفريقيا السوداء
(ترجمة أحمد صادق حمدى - مصر ١٩٥٦) ص ١٢٢ .
- Gouilly, Op. cit., p. 45; L. lugard, op. cit., p.262; Blyden, op. cit., p. 5.350 ; (٩)
Wiedner, D.L., A Hist. of the Gold Coast, Lond, 1948, p. 27.

(١٠) البكري (أبو عبد الله بن عبد العزيز ت ١٠٩٤ م) المغرب في ذكرى بلاد أفريقيا والمغرب (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك) - نشر راندون Randon - الجزائر ١٨٥٧ ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(١١) المصدر السابق ص ١٧٩ .

Gouilly, op. cit. p. 46; L. Iugard, op. cit. pp. 33-43 (١٢)

(١٣) القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)
صبح الأعشى في صناعة الإنشا (طبعة دار الكتب المصرية) ج ٥ ص ٢٨٤ .

De La Roncière, op. cit., T. I., p. 103. (١٤)

Palmer, R. The Bornu Sahara & Sudan, Lond., 1936, pp. 6-7, 149. (١٥)

(١٦) ياقوت (أبو عبد الله ياقوت الحموي الرومي ت ١٢٢٩ م) .

معجم البلدان (مصر ١٩٠٦) ج ٧ ص ٢١٠ .

Fage, J. An Introduction to the Hist, of West Africa, Cambr. 1939, p. 21. (١٧)

(١٨) البكري ص ١٥٩ .

(١٩) ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي ت ٩٦٨ م) .

كتاب صورة الأرض (لندن ١٩٣٨) - القسم الأول ص ٩٨ - ١٠١ .

Bovill, op. cit pp. 69-70; البكري ص ١١٩ ، تقويم البلدان ص ٢٧٢ ،

L. Iugard, op. cit., p. 90; Cooley, W.D., The Negroland of the Arabs, Lond. 1941
pp. S. 5, 47.

L. Iugard, op. cit., p. 107. (٢٠)

L. Iugard, op. cit., p. 92 ; (٢١) البكري ص ١٥٩ ،

Bovill, op. cit., p. 101; Fage, op. cit. p. 27 ; Le Chatelier, A. L'Islam Dans (٢٢)

L'Afrique Occidentale, Paris, 1943, p. 128;

السعدي (عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران توفي بعد عام ١٦٥٥ م) .

Houdas & Benoist تاريخ السودان - حققه ونشره هوداس وبنا

باريس ١٨٩٨ ، ص ٢ - ٤ .

Bovill, op. cit. p. 100. (٢٣)

(٢٤) البكري ص ١٧٢ ؛ الإدريس (أبو عبد الله محمد بن الشريف الإدريسي ،

ولد في سوتا عام ١١٠٠ م) .

كتاب نزهة المشتاق في ذكر الأمصاار والاقطار والبلدان والجزر والمداين

والأفاق (طبعة حجر) .

قطعة منه : صفة المغرب وارض السودان ومصر والاندلس - (لندن ١٨٦٦)

Fage, op. cit., p. 147 Le Chatelier, op. cit., p. 80; Cooley, op. cit. p. 79. = ص ٣ ،

(٢٥) الترجمة العربية كنبر عن السعدى ص ١٢ - ١٣ ،

Marty, p. Etudes sur L'Islam et les Tribus du Soudan, Paris, 1920, pp. 136-137.

(٢٦) جنكى بمعنى حاكم جنى .

(٢٧) السعدى ص ١٣ .

Blyden, op. cit. pp. 6, 23; Hoghen op. cit., p. 25; Thomps on, V. & Adloff, R. (٢٨)

French West Africa, Lond., 1958; p. 571; Fage, An Atlas of African Hist., Cambr., 1958 pp. 17-18.

Bovill, op. cit., p.102; Hogben, p. 5; L. lugard, pp. 83-84.

(٢٩)

(٣٠) الاصطخرى (ابو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى

المعروف بالكرخى - توفى فى النصف الاول من القرن الرابع الهجرى) .

المسالك والممالك - تحقيق جابر الحسينى - مصر ١٢٨١ هـ / ١٩٦١ م
ص ٣٤ - ٣٥ .

(٣١) عن تاريخ المرابطين وحركتهم ، راجع : ابو العباس الناصرى : للاستقصا

لاخبار دول المغرب الأقصى - الدار البيضاء ١٩٥٤ . ج ٢ ص ٢٠ - ٢١ ، ابن
الخطيب (ابو عبد الله محمد بن عبد الله ت ٧٦٦ هـ) : الحل الموسية فى ذكر

الاخبار المراكشية - تونس ١٣٢٧ هـ . ص ٦ - ١١ .

De La Roncière, I, pp. 84, 86, 134; Bovill, pp. 84-85; L. lugard, p 92; Fage, An
Introduction ..., p. 22; Shinnie, p. 50; De Pedrals, D.P., Manuel Scientifique de l'Afrique
Noire, Paris, 1949, p. 147; Largeau, V. Le Sahara Algerienne, Paris, 1881, pp. 109-123; Rinn,
L. Marabouts et Khouan, Alger, 1884, p. 14.

De la Roncière, I, p. 103.

(٣٢)

Trimingham, J.S., Islam in West Africa, Oxf., 1959, pp. 13-14.

(٣٣)

(٣٤) السعدى ص ٧٤ ، كمت (محمود كمت بن الحاج المتوكل كمت الكرمنى

دارا التبنكى مسكن الوعكرى أصلا) .

تاريخ الفتاش فى اخبار البلدان والجيش واکابر الناس وذكر وقائع التكرور

وعظائم الامور وتفريق انساب العبيد من الأحرار . (بدأ تأليفه عام ٩٢٥ هـ / ١٥١٩ م)

نشره دلافوس وهوداس Delafosse and Houdas باريس ١٩١٣ . ص ٤٥ - ٤٦ نزهة

المشتاق ص ٦ ، صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٣ ، ابن الورى (زين الدين ابو

حنس عمر ت ٧٤٩ هـ ١٣٤٨ م : تاريخه - نشره : س . هيلاندر S. Hylander

لندن ١٨٢٣ ، ص ١٦٠) .

Le Chatelier, p. 120; Trimingham, op. cit. p. 15; Gouilly, pp. 48-55; Marty, p. Etudes Sur
L'Islam et les Tribus Maures, Paris, 1921, pp. 1-3; Hoghen, pp. 28-29, 53; Davidson, p.
88; Bovill, p. 84, L. iugard, pp. 99, 110; Oliver R., and Fage, J., Ashort Hist. of Africa, Lond.,
1962, pp. 11-15 Delafosse, M., Traditions Historiques et Légendaires du Soudan
Occidentale, Paris, 1913, pp. 6-18;

Runciman, S., A Hist. of the crusades, cambr., 1954, Vol. II, pp. 156-158; La (٣٥)
Monte, J. L., Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, cambr Mass., 1932,
pp. 29, 215-225; Richard, J., Le Royaume Latin du Jerusalem, Paris, 1953, pp. 104-112.

(٣٦) البكري ص ١٧٨ .

Gouilly, op. cit. pp. 54-56 (٣٧) البكري ص ٧٨ ، راجع :

(٣٨) الفتاش ص ١٢ ، ١٦ - ١٧ ، ٥٣ ، ٦٨ ، ٧٦ ، السعدى ص ٧٢ : ٧٧

L. lugard, p. 194; Davidson, pp. 97-98; Gouilly, pp. 47, 57-65; Murdock, G. P. ، ٧٨ -
Africa, Its Peoples & cultural Hist., N. York, 1959, p. 139.

L. lugard, p. 269 (٣٩)

Palmer, op. cit. pp. 6-7, 14-15 (٤٠)

Palmer, p. 189; (٤١) دولة البرنو الإسلامية للمؤلف (في المطبعة)

Barth, H., Travels & Discoveries in North & Central Africa, Lond., 1875, (٤٢)
Vol. II, p. 636; Palmer, p. 189.

Le Chatelier, pp. 107-120; Bovill, pp. 224-232; Trimingham, p. 11; Gouilly, (٤٣)
pp. 66-76, 86 ; Barth, II, 6. 636; Fage, an Introduction ... pp. 35, 46 ; Marty, Etudes Sur,
L'Islam et les Tribus du Soudan, pp. 177-220; Burns, A., History of Nigeria, Lond., 1955,
pp. 23-50; Urvoy, Y., Petit Atlas, Ethno-Demographique du Soudan, Paris, 1942, p. 29;
Mélanges Ethnologiques, Dakar, 1953, p.115;

(٤٤) ديشان ص ١٢٦ - ١٢٧ ، دولة مالي الإسلامية في العصور الوسطى

المؤلف (في المطبعة) ، Church, pp. 238, 295;

Fage, op. cit., p. 148, 150; Hogben, p. 64; Rouch, J., les songhay, Paris, 1954, p. 11; Fyfe,
C., A Hist. of Siera Leone, Oxf., 1962, pp. 5-6; Labouret, H., Mali (Encycl. of Islam),
Vol. III, p. 242.

(٤٥) ديشان ص ١٣١ ، ١٥٢ - ١٥٣ .

(٤٦) ديشان ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٤٧) المقرئ (تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) .

الخطط ج ٢ ص ٣٦٥ ، العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله
ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) : مسالك الإبصار في ممالك الأمصار - مخطوط ، ح ٢٢٣
ورقه ٤٩٠ - ٤٩٢ ، صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٠ - ٢٨١ ،

Palmer, p. 6; Barth, II, p. 636 Yver, G., Ghana (Encycl. of Islam), Vol. II, p. 714

Gouilly, pp. 96-107, 116-125 ; Trimingham. pp. 92-93. (٤٨) ديشان ص ١٣٥ .

(٤٩) ديشان ص ١٤٨ - ١٥٠ ، توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام - ترجمة

حسن ابراهيم وزملاته ص ٣٦٥ - ٣٦٩ ،

Trimingham, pp. 9 -99; Gouilly, pp. 108-115, 134-161, Carbou, H., La Region Du
Tchad, Paris, 1912, Vol. II, p. 18.

- (٥٠) الدعوة الى الاسلام ص ٢٧٠ - ٢٧٦ ، Triningham, pp. 100-101 ;
Gorer, G., Africa Dances, Lond., 1945, p. 45:
- (٥١) نعيم قدامح : افريقية الغربية في ظل الاسلام - كوناكري ١٩٦٠ ،
Blyden , p. 202. (٥٢) ديشان ص ١٢٩ ،
Blyden, pp. 3, 6- 12-14. 37 53-354 (٥٣)
Blyden, p. 12. (٥٤)
Blyden, pp. 5, 18, 201. (٥٥) قدامح ص ١٣٥ ،
Blyden, pp. 5, 26 (٥٦)
(٥٧) بعض آية ١٤ من سورة يوسف .
(٥٨) آية ١٠ من سورة البروج .
(٥٩) Gorer, p. 44; Blyden, pp. 203-205
(٦٠) ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ت ١٣٦٩ م)
تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار - باريس ١٨٥٣ ج ٤
ص ٤٢٢ - ٤٢٣ .
(٦١) Blden, p. 7 ; Gouilly, pp. 229-238; Trimmingham, pp. 124-137.
(٦٢) ابن بطوطة ج ٤ ص ٤٠٩ - ٤١٠ .
(٦٣) الفتاش ١١١ - ١١٣ .
(٦٤) الفتاش ص ٢٣ - ٢٤ ، ٨٨ - ٩٠ ، ١٢٠ .
(٦٥) الفتاش ص ١٠٩ .
(٦٦) دولة البرنو الاسلامية للمؤلف ، Palmer, p. 166.
(٦٧) Gouilly, pp. 291-292; Kitchen, H. (Edit.), The Educated African, Lond.,
1962, pp., 317, 326..., Talbot, p. the peoples of Southern Nigeria, Lond., 1936, p. 104
Blyden pp. 8, 15 (٦٨)
(٦٩) نزعة المشتاق ص ٦ ، L. lugard, pp. 98-99. De la Roncière, I, 6. 85
Yver, p. 748. (٧٠)
(٧١) Murdock, p. 129; Shinnie, pp. 67-68; Trimmingham, pp. 16-17 Temple, O.
Notes on the Tribes and Provinces, Emirates & Estates of Northern Province of Nigeria,
Lages, 1922, pp. 215-216
Carbou, II, 6. 2 (٧٢) معجم البلدان ج ٧ ص ٢١٠ ،
Temple, pp. 22-25; Trimmingham, pp. 1 -18. (٧٣)
(٧٤) صبح الأعشى ج ٨ ص ١١٦ - ١١٨ .
(٧٥) Palmer, Sudanese Memoirs, Lagos, 128, Vol. I, pp. 1-2, 11 ; The Bornu
Sahara ..., p. 16 .

- Yver, p. 750. (٧٦)
- (٧٧) قلداح ص ١٤٩ .
- (٧٨) الدعوة الى الاسلام ص ٣٤٩ .
- (٧٩) مسالك الابصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٥٠٤ - ٥٠٥ ، صبح الأعشى ج ٨ ص ١١٦ .
- (٨٠) Blyden pp. 214-215; Trimmingham, pp. 83-84;
- (٨١) مسالك الابصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٥٠٦ ، صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٨ .
- (٨٢) ديشان ص ١٣٢ .
- (٨٣) Triningham, pp. 83-85; Nigeria (Report), p. 6
- (٨٤) المسلمون في أوروبا (المؤلف) ص ٩٩ ، ١٠١ - ١٠٢ ، أرسلان ص ٢٨٥ - ٢٨٦ ، Scott, II, p. 76;
- (٨٥) Marty, Etudes sur l'Islam et les Tribus du Soudan, pp. 77-133; Gouilly, pp. 207-220. دولة مالي الإسلامية في العصور الوسطى للمؤلف .
- (٨٦) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف - مصر ١٣١٢ هـ - ص ٢٨-٢٩ .
- (٨٧) صبح الأعشى ج ٨ ص ١١٦ - ١١٨ .
- (٨٨) قلداح ص ١٥١ - ١٥٢ : ١٥١ - ١٥٥ : Bovill, pp. 100-101.
- (٨٩) الفتاش ص ١٢ - ١٦ ، L. lugard, p. 814.
- إمبراطورية غلة الإسلامية للمؤلف (في الطبعة) ؛ غانة في العصور الوسطى (المجلة التاريخية) م ١٣ سنة ١٩٦٧ ص ٢٥ - ٨٩ . Gouilly, p. 121.
- (٩٠) السعدي ص ٤٣ - ٤٤ .
- (٩١) L. lugard, pp. 356-365
- (٩٢) Blyden, p. 211;
- (٩٣) L. lugard, p. 365; Fage, pp. 161-165; vandeleur, S., Compaigning on the Upper Nile & Niger, Lond., 1899, p. 155. L. lugard, pp. 236-237.
- (٩٤) أنظر كذلك :
- H. F. C. Smith., 19 th Century Arabic Archives of West Africa (The Third nference, Lond., 1961); M. Hiscett, A Noteon the Arabic Mss. of the Fulani Period in Nothern Nigeria (the Third Conference, Lond., 1961).
- (٩٥) دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٤٢ - ١٥٠ .
- (٩٦) Blyden p. 215.
- (٩٧) راجع عابدين : الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الأدب السامية الأخرى (مصر ١٩٥٦) ص ٢٨ - ٢٩ ، نولده (تيودور) : اللغات السامية (ترجمة رمضان عبد التواب - مصر ١٩٦٣) ص ٣٤ - ٣٩ ، فيليب حتى : تاريخ سوريا (بيروت ١٩٥٨) ج ١ ص ١٧٦ - ١٩٠ ، ٣٧١ . Sanday, W.,-Art. «Bible»(Enc of Religion and Ethics, vol. II, pp. 562-573; G.B.G., S.R.D. : Art. Old Testament » (Enc. Britannica), Vol. III, pp. 849-905; Art. «Bible» (Larousse du XXe Siècle) Vol. I, pp. 690-691; Manson, the Teaching of Jesus, Cambr., 1943, p. 150.

قصة الطوفان في أدب بلاد الرافدين

للدكتور محمد عبد القادر محمد

قصة الطوفان معروفة لنا جميعا من القرآن وكذلك من التوراة التي تعطى وصفا دقيقا للحدث ، وقد كان يظن حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي أن التوراة هي أقدم مصدر لقصة الطوفان . ولكن اهتمام عالم العصر الحديث بالتراث القديم والكشف عن معالم المدن العظيمة التي قامت في منطقة الشرق الأوسط ثم التوصل الى قراءة النصوص التي تركوها ، أدى الى الكشف عن حقائق علمية مستمدة من آثار تلك الشعوب القديمة . ومن أهم هذه الاكتشافات الحديثة قصة الطوفان .

وأول نسخة وصلت اليها من العالم القديم هي تلك النسخة التي عثر عليها في مكتبة آشور بانيبال الشهيرة ببنوى عاصمة الأشوريين وترجع هذه النسخة الى القرن السابع قبل الميلاد ثم عثر على نسخة ثانية أقدم من السابقة بألف سنة اذ أنها كتبت في العهد البابلي القديم . وهاتان النسختان مكتوبتان باللغة السامية . والى جانب ما تقدم ظهرت الى الوجود بعض جذاذات ترجع الى السومريين الذين سكنوا جنوب بلاد الرافدين في الألف الثالث قبل الميلاد . واللغة السومرية التي استعمل الخط الساري في كتابتها تختلف اختلافا تاما عن شعبة اللغات السامية وان كان الساميون استملوا نفس طريقة الكتابة السالفة وهي الكتابة بقلم معدني على ألواح من الطين ، كما نقلوا الأساطير والملاحم والقصص والأدب السومري الى اللغة الأكادية .

ومن أشهر ما نقله العرب الساميون عن السومريين قصة الطوفان هذه ؛ وقد عثرت أول بعثة أمريكية قامت بالحفر في بلاد الرافدين على اللوح الطيني الذي يحتوي على القصة السومرية للطوفان في نيبور (نمر) . وقد فُجحت

هذه البعثة في المدة من ١٨٨٩ الى ١٩٠٠ في الكشف عن ٣٠٠٠٠ لوح ، وجذاذة ، كُتبت معظمها باللغة السومرية ، ولسوء الحظ بعثرت هذه المجموعة النادرة بعد تقسيمها الى ثلاثة أقسام على متاحف مختلفة هي متاحف فيلادلفيا وأسطنبول ، وبينما في شرق ألمانيا . ولا تزال هذه الألواح حتى الآن المصدر الرئيسي لمعلوماتنا عن الأساطير والآداب السومرية . وبالرغم من انقضاء أكثر من نصف قرن على اكتشافها لا يزال العلماء يجدون مواد غزيرة وجديدة بين سطور هذه المجموعات التي ظلت مدفونة في المتاحف .

وترجمة النص السومري لم تظهر الا بعد ١٤ سنة من انتهاء الحفائر في نيبور . وكان بطل القصة في تلك الترجمة يدعى في النسخة السومرية ذيبوسودرا وهو يقابل نوح المذكور في كل من القرآن والتوراة ، كما ذكر في الآداب الأكادية باسم أوتنايشتم .

وقصة الطوفان ذكرت في ملحمة جلجاميش كما قدمنا على اللوح رقم ١١ من سطر ١ - ١٩٥ . وقد كشف ضمن أرشيف بوغازكوي عاصمة الحثيين في اسية الصغرى عن نسخة ترجع الى منتصف الألف الثامن ، كما وجدت في نفس هذا الأرشيف ترجمة باللغة الحثية وترجمة باللغة الخورية تدل على اهتمام جميع أدباء العالم القديم بهذه القصة . ومن النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد وجدت نسخة بالبابلية القديمة ثبت أنها نقلت عن أصل أقدم . وأقدم هذه القصص جميعا هي القصة السومرية التي تدل على أنه كان هناك على الأقل خمس مدن مزدهرة قبل الطوفان .

١ - اريدو (بوشهرين) .

٢ - بادتييرا .

٣ - لاراك .

٤ - سييار (أبو حبة) .

٥ - شوروباك (فارا) .

وقد دلت الحفائر في جنوب بلاد الرافدين على حدوث طوفان فعلا بهذه المنطقة ، اذ ظهرت آثاره في أورو جمدة نصر . وقد وجد ل . وولى الذى قام بالحفر في هذه المناطق آثار الطمي التى حملته المياه ويبلغ سمكه ٣ متر تقريبا ، وهو يرجع الى قرب نهاية حضارة جمدة نصر أى قبيل بداية الألف الثالثة قبل الميلاد . ويعتقد وولى أن هذا الطوفان لم يعم العالم بأسره وانما كان قاصرا على الحوض الأسفل لنهرى الدجلة والفرات مغطيا مساحة تبلغ ٤٠٠ ميلا (حوالى ٦٥٠ كيلو مترا طولا) و ١٠٠ ميلا عرضا أى (١٥٠ كيلو مترا) . ولكن بالنسبة لسكان هذا الوادى كان ذلك هو العالم بأسره . والواقع ان الحضارات القديمة التى قامت في هذا العصر السحيق كانت فادرة وقاصرة على منطقة الشرق الأوسط كما تثبت ذلك أعمال التنقيب الحديثة في مختلف أنحاء العالم .

على أن أعمال التنقيب تثبت أيضا وجود بعض هذه البلاد مثل أريدو (بو شهرين) وسيار (بوجبة) وشوروباك (فارا) .

وأريدو تقع على مسافة ٤٠ كيلو مترا من الناصرية وقد ذكر في قصة الخلق عند السومريين أن البقاع كانت جميعا بحرا ثم خلقت أريدو ، فهى من أولى المدن التى ظهرت في جنوب العراق ولذا تعد أقدس المدن السومرية القديمة بعد نمر . وجنوب بلاد الرافدين كان في الأصل بحرا ثم تكونت الأراضي الزراعية به نتيجة للطمي الذى يأتى به نهرى الدجلة والفرات على مدار السنة ، ولذا نشأت الحضارة أولا في شمال بلاد الرافدين قبل أن تنتقل الى الجنوب بعد تكون المنطقة الزراعية . وقد وجد بأريدو آثار تدل على أن الأقوام الذين سكنوها كان لهم مدنية متطورة ومعتقدات دينية ومعابد منظمة وأنهم شيدوا بيوتهم من اللبن ، كما عرفوا الزراعة وصناعة الفخار .

أما سيار فقد كانت تقع على الضفة الشرقية للفرات قبل أن يبدل مجراه ، وهى أيضا مدنية محيطة في القدم وقد عثر فيها المنقبون على أكثر من ١٣٠.٠٠٠ لوح مكتوب حسب تقدير واليس بادج W. Budge وهذه الألواح من عصر ما بعد الطوفان عندما قامت بها مدنية عظيمة وكان بها مرصد لاله الشمس « ييار » .

وفاره - حسب الأسطورة - كانت المدينة القديمة - شورباك - حيث عاش نوح وصنع فلكه ورغم أن شورباك تقع الآن في الصحراء على بعد حوالي خمسين كيلو مترا شمال شرقي أوروك إلا أنها كانت تقوم على ضفة الفرات في المصور القديمة قبل أن يغير مجراه ، وقد حدثت بها أعمال تنقيب عديدة أدت الى نتائج في غاية الأهمية ، اذ ثبت وجود حضارة متقدمة بها وتعرف هذه الحضارة عادة باسم حضارة العبيد التي تسبق الفيضان . ويقص علينا وولي الذي قام بحفر أور (✽) الكلدانيين بأنه وجد أسفل طبقة المبانى السومرية طبقة طينية مليئة بقبور من الفخار الملون مختلط بها أدوات من الصوان والزجاج البركاني ، وكان يبلغ سمك هذه الطبقة حوالي ١٦ قدما (٣ متر تقريبا) أسفل المبانى الطينية التي يمكن تأريخها بحوالي ٢٧٠٠ ق م . وأسفل هذه الطبقة عاشت أور في عصر ما قبل الطوفان . ولم تجر حتى الآن أى حفائر على نطاق واسع في هذه المنطقة وكل ما أمكن اثباته هو وجود مدينة قبل الطوفان وقد عثر في البيوت التي من هذا العصر على سدادات قدور كان عليها انطباعات أختام بأسماء أصحابها ، ورغم أنها لم تكن كتابة مفهومة إلا أنها كانت وحدات مكتوبة ومكونة من رسومات هندسية متطورة ، وبعضها يمثل صفوف من الحيوان سائرا في بلاد جبلية ، وقد صورت الحيوانات بهارة وحيوية مذهلة . وبالنظر الى استعمال الأختام في هذا العصر فمن الممكن أن تكون الكتابة قد عرفت أيضا . ولذلك فليس من المستبعد العثور على وثائق مكتوبة من عصر ما قبل الطوفان اذا ما أجريت حفائر منظمة على نطاق واسع . وتدل النقوش الموجودة على هذه الأختام عموما مع ما تمتاز به من طبيعة التعبير في أسلوب قوى متميز على حضارة متقدمة فعلا .

ويستتج وولي أن سبب اختفاء هذا الفخار الملون الذي كان منتشرا في جنوب بلاد الرافدين قبل الطوفان اختفاء تاما مرة واحدة على أن الطوفان قد قضى قضاء تاما على سكان هذه البلاد وحتى من بقي منهم حيا فقد القدرة

(✽) ملحوظة : أور : (تل المقبر) .

وقد اتضح من تحليل الفرين الذي عثر عليه في طبقة فيضان أور أن عينة من فرين ذات جسيمات ناعمة ، مكون من رقائق شديدة التماسك ، تبين بالتأكيد بأنه من طين قاع النهر . ولكن ينكر بعض العلماء أن هذا هو طوفان نوح

على الاتاج . فجاء شعب جديد ، هم السومريون ، الى تلك البلاد الخالية ، وأسسوا حضارة جديدة وكان فخارهم مصنوعا على دولاب الفخار بدلا من الفخار المصنوع باليد الذي كان سائدا في عصور ما قبل الطوفان ، كما استعملوا الأدوات المعدنية بدلا من الصوان . وهذه الحضارة التي جمعت بين القديم والحديث هي التي أفجيت المدينة السومرية التي كشفت عنها المقابر الملكية في أور . ويعتقد وولي أن بعض الخليفة حسب الدلائل الأثرية قد نجا من الموت ، وهذا ما ذكر في الكتب السابوية عن نجاة من اتبعوا نوحا ، وهم الذين أسهموا في تقدم الحضارة السومرية .

ومما هو جدير بالذكر أن ابن بطوطة يذكر أن « بالكوفة مسجدا صغيرا مطلقا عليه أيضا بأعواد الساج ، يذكر أنه الموضع الذي فار منه التنور اإذا ن بطوفان نوح عليه السلام ، وفي ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح عليه السلام . وازاءه بيت يزعمون أنه متعب ادريس عليه السلام . ويتصل بذلك فضاء متصل بالجدار القبلي يقال أنه موضع انشاء سفينة نوح عليه السلام » . كما يذكر ستون لويد وهو من كبار علماء الآثار الأثرية ان بالجامع الكبير بالكوفة مقصورة في باطن الأرض تعرف باسم السفينة حيث يعتقد المسلمون أن الفلك قد استقر بها . ويرى أن موقعها على صخرة مظلة على ساحل البحر القديم أفضل مكانا بلا شك لرسو السفينة من قمة جبل ارارات (١) . واذا نظرنا الى خريطة العراق لوجدنا أن الكوفة تتوسط المنطقة التي حدث بها الطوفان والممتدة تقريبا من أبو جبة (سيار) في الشمال الى بو شعرين (أريدو) في الجنوب كما أنها قرية نسبيا من فارة (شورباك) المذكورة في القصة السومرية والتي كانت يوما ما على ضفة الفرات . فالقصة المتواترة في الكوفة والتي رواها ابن بطوطة وغيره من الرحالة — وكانوا لا يعلمون عندما كتبوا بالقصص السومري والاكدي القديم — كان لها أساس قوى من الصحة .

وقد اتخذ قدامى المؤرخين من السومريين والاكاديين هذا الحادث أساسا تاريخيا هاما . فنجد أن قوائم الملوك التي تركوها انما قسمت الى جزأين — قسم الملوك (أو الآلهة كما يطلق عليها هؤلاء المؤرخون) قبل الطوفان — وقسم

Seton Lloyd : Foundations 'in The Dust. (Pelican. 1955), p. 30. (١)

الملوك الذين حكموا بعد الطوفان » ويتضح من القائمة أن الملوك الذين حكموا قبل الطوفان كانوا يعيشون مددا خيالية ، فقد ذكر مثلا أن أحدهم حكم ٣٦٠٠٠ سنة وحكم آخر ٤٣٠٠٠ سنة مما يوحى على الأقل بأن أهل هذا العصر السابق للطوفان كانوا معبرين ، كما هو واضح من قصة نوح الذي عاش ٩٥٠ عاما ، أما الملوك الذين حكموا بعد الطوفان ، فقد حكموا مددا أقل من ذلك بكثير وإن كان عدد السنين في كل من أسرة كيش الأولى وأسرة أوروك الأولى لا يزال مبالغا فيه . فتعطي القائمة أحيانا ٩٦٠٠ سنة أو ١٢٠٠ سنة للملك الواحد ولم توضح أرقام عادية بالنسبة إلينا إلا ابتداء من أسرة أور الأولى حيث أصبح الملك يحكم مثلا ٤٠ سنة أو ٢٥ سنة الخ . وأول أسرة تاريخية بعد الطوفان هي أسرة أور الأولى التي تبدأ بها المصور التاريخية إذ عرفت الكتابة آنذاك فدون الملوك أخبارهم .

الطوفان من ملحمة جلجاميش ^(١)

- ٨ ذكر أوتنايشتم له ، لجلجاميش :
- ٩ سأطملك يا جلجاميش على ما خفى (من الأمر)
- ١٠ واعلمك بسر من أسرار الآلهة
- شورباك^(٢) — مدينة تعرفها أنت
- تقع على شط الفرات^(٣)
- تلك مدينة قديمة قدم الآلهة التي بها
- لما أوحى إلى الآلهة العظام قلوبها بأحداث الطوفان
- ١٥ كان أنو أبوهم (حاضرا) ،
- وانليل الجريء مستشارهم .
- وإنورثا رسولهم

(٢) ترجمت عن الأصل الأكدي مع الاستعانة بالتراجم الانجليزية الحديثة .

(٣) شورباك هي مدينة فارا وقد عثر بها فعلا على آثار هذا الطوفان .

(٤) باللغة الأكديّة ، بوراثوا أي الفرات وهي نفس الاسم الأكدي القديم غير

أن الباء في بوراثوا انقلبت فاء في العربية الحديثة .

واينوجى مفتش الترع^(٥)

وفينجيكو - أيا كان حاضر معهم أيضا ،

٢٠ وأعاد قولهم الى كوخ القصب^(٦)

يا كوخ القصب • يا كوخ القصب يا حائط • يا حائط

يا كوخ القصب اسمع • يا حائط تأملى

يا رجل شورباك • يا ابن أوبارا - توتو

اقتلع بيتك ، وابن الفلك

٢٥ اترك أملاكك ، واختار روحك

اهجر متاع (الحياة) واحفظ الروح حية •

واحصل بذرة كل روح حى على الفلك

والفلك التى ستبنيها

ستكون أبعادها حسب هذا المقاس

٣٠ عرضها مثل طولها

واجعل لها سقفا كسقف الأيسو^(٧)

ففهمت ، وقلت لا يا ، ربى :

(نعم) ، يا ربى ، ان ما تأمر به

يشرفنى أن أقضه

٣٥ ولكن ماذا أقول للمدينة ، وللناس ، وللشيوخ

ففتح أيا فاه وأجاب

قائلا لخادمه ، لى ،

قل لهم هذا :

(٥) هذا اللقب مفتش الترع يدل على مدى أهمية الرى منذ القدم فى بلاد

الرافدين .

(٦) أى مسكن أو تنابيثتم ، فبيوت ذلك الزمان كانت تبني من القصب .

(٧) الأيسو : العالم السفلى .

علمت أن أقليل عدو لي ،

٤٠ فلن أقيم في مدينتكم

ولن ألقأ أملكه بقلمي

ولذا سأنزل الى أعماق البحر

لأعيش مع ربي يا

أما أقم فسيمطركم مطرا غزيرا •

٤٥ أحسن الطير ، وأندر الأسماك

(وستملئ الأرض) بالمحاصيل الوفيرة

(والموكل في غبش الليل) بالخبء الأخضر

سيمطركم برا (٨) •

ومع أول اشعاع من الفجر

٥٠ تجمعت الأرض من (حولي)

النص مهتمم

٥٤ حمل الصغار القار

٥٥ وأحضر الكبار كل ما احتجنا اليه

وفي اليوم الخامس أقت هيكلها

وكافت مساحة أرضيتها فدانا كاملا

وارتفاع كل حائط من جدرانها ١٢٠ ذراعا (٩)

التكوين ٦ : ١٥

وطول كل ضلع من السطح المربع ١٢٠ ذراعا (١٠)

(٨) كلمة بربالاكادي كوكو ولها معنيان برا او هلاكاً ، فهنا تورية .

(٩) التكوين ٦ : ١٥ : وهكذا تصنعه ثلاث مئة ذراع يكون طول الفلك

وخمسين ذراعا عرضه وثلاثين ذراعا ارتفاعه .

(١٠) اي ان السفينة كانت مكعبة .

وبنيت هيكل جوانبها وربطتها معا

٦٥ وجعلت فيها ست أسطح (١١)

قسمتها الى سبع طباق

والطابق الأرضي قسمته الى تسعة أجزاء

ودقت سدادات المياه بها

وجمزت مرادى وأعددت المون

٦٥ ست سار (١٢) من القار صبيته في الفرن

وثلاثة سار من الاسفلت صبيته فيها أيضا

وثلاثة سار من الزيت قلله حاملو السلال

خلاف سار من الزيت استهلكته القلعة •

كما خزن الملاح سارين من الزيت •

٧٥ ذبحت ثيرانا (للناس) (١٣) التكوين ٦ : ٢١

ونحرت مائثة كل يوم

وعصير فواكه ، وخمرا حمراء وزيتا ، وخمرا أيضا

أعطيتها للعمال (لتشرب) ، كأنها مياه النهر

ليحتفلوا ، وكأنه يوم رأس السنة

٧٥ وفتحت ... النهنون ، لوضعها على يدي

وفي اليوم السابع كان الفلك كاملا

(١١) التكوين ٦ : ١٦ . وتصنع كوا للفلك وتكمله الى حد ذراع من فوق

وتضع باب الفلك في جنبه . مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله .

(١٢) السار = ٨٠٠٠ جالون .

(١٣) التكوين ٦ : ٢١ : وانت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل واجمعه عنك

فيكون لك ولها طعاما .

(وكان انزاله في البحر) في غاية الصعوبة .
مما اضطرهم لتحريك ألواح الأرضية من أعلا ومن أسفل
حتى نزل ثلثا (هيكله) (داخل الماء) .

٨٠ وما أملك حملته فيه

ما أملك من فضة حملته فيه

ما أملك من ذهب حملته فيه

وما أملك من كل الكائنات الحية حملته^(١٤) التكوين : ٧ : ٧ - ٨

كل عائلتي وذوي قريبي أركبتهم الفلك

٨٠ حيوان الحقل ووحوش الحقل^(١٥) التكوين : ٧ : ١٣ - ١٦

وكل الصناعات أركبتهم فيه .

وقد حدد لي شماش ميعادا معيناً

عندما ينزل الموكل بالزوابع ليلا^(١٦) مطرا مهلكا

ادخل الفلك واوصد بابه .

وجاء الميعاد المحدد

٩٠ وانزل الموكل بالزوابع بالليل مطرا يهلك

(١٤) التكوين ٧ : ٧ - ٨ : فدخل نوح وبنوه وامراته ونساء بنيه معه الى الفلك من وجه مياه الطوفان . ومن البهائم الطاهرة ومن البهائم التي ليست بطاهرة ومن الطيور وكل ما يدب على الارض دخل اثنان اثنان الى نوح الى الفلك ذكرا وانثى .

(١٥) التكوين ٧ : ١٣ - ١٦ : « في ذلك اليوم عنه دخل نوح وسام وحام ويافت بنت نوح وامرأة نوح وثلث نساء بنيه معهم الى الفلك هم وكل الوحوش كاجناسها وكل البهائم كاجناسها وكل الطيور كاجناسها كل عصفور وكل ذي جناح . ودخلت الى نوح الى الفلك اثنان اثنين من كل جسد فيه روح حية . والفاخلات دخلت ذكرا وانثى من كل ذي جسد كما امره الله . واغلق الرب عليه . (١٦) بالاكادية اليلاني .

وأخذت أنظر للعاصفة

وكان النظر الى العاصفة يثير الرب

فركبت الفلك وأوصلت بابه

ولسد جميع منافذ السفينة الى بوزور - امورى الملاح

٩٥ عهدت بالمبنى بكل ما يحويه

ومع بزوغ الفجر

ارتفعت سحابة سوداء من الأفق

وأرعد من داخلها آداد

وكان يتقدمها شولات وهائيش

١٠٠ يتحركان كنذير فوق التل والسهل •

ونزع ابراجال (١٧) الأعمدة (١٨)

التكوين : ٧ : ١٠ - ١٣

وجاءت نينورتا وجعلت السدود تفيض

وانفاكى حمل المشاعل

وأشعلوا الأرض فارا بوميضهم •

١٠٥ والنعر من اداد وصل غنان السماء

الذى حول التور الى ظلام

وتشقت الأرض (الواسعة) كآنها جرة •

(١٧) ابراجال هو نرجال اله العالم السفلى •

(١٨) الأعمدة الخاصة بسد العالم •

التكوين : ٧ : ١٠ - ١٣ : وحدث بعد السبعة الأيام ان مياه الطوفان صارت

على الأرض • في سنة ست مائة من حياة نوح في الشهر الثامن في اليوم السابع

عشر من الشهر في ذلك اليوم انفجرت كل بنايع القمر العظيم وانفتحت طاقات

السماء وكان المطر على الأرض اربعين يوما واربعين ليلة •

وهبت العاصفة الجنوبية يوما واحدا

وأخذت سرعتها تزداد (حتى) أخفت الجبال^(١٩) التكوين : ٧ : ٢٠-٢٢

١١٠ وحلت بالبشر كأنها حرب

فلا يرى الأخ أخاه

ولما تعرف الناس من السماء

حتى الآلهة خافت من الطوفان

فتراجعت وصعدت الى سماء أفو^(٢٠)

١١٥ حيث ربضت الآلهة كالكلاب على الأسوار الخارجية

وصرخت أشتار كأنها تلد

واتحبت سيدة الآلهة ذات الصوت العذب

التكوين : ٧ : ٢٣

واحصرتاه . لقد تحولت الأيام الى طمي^(٢١)

لأنى لعنت الناس في مجلس الآلهة

١٢٠ كيف ألعن الناس في مجلس الآلهة

التكوين : ٨ : ٢١

داعية الى الحرب للقضاء على ناسي^(٢٢)

(١٩) التكوين : ٧ : ٢٠ - ٢٢ خمس عشرة ذراعا في الارتفاع تعاطمت المياه

تغطت الجبال . فمات كل ذى جسد كان يدب على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع الناس . كل ما في انفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات .

(٢٠) هي أعلى سماء في النظرية العالمية عند الاكاديين .

(٢١) التكوين : ٧ : ٢٣ فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض . الناس

والبهائم والدبابات وطيور السماء فانمحت من الأرض وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط .

(٢٢) التكوين : ٨ : ٢١ وقلل الرب في قلبه لا اعود العن الأرض ايضا من

اجل الانسان لان تصور قلب الانسان شرير منذ حداثته . ولا اعود ايضا أميت كل حي كما فعلت .

يبد أنى أنا التى ولدت ناسى

وهم يملأون البحر كييفس السك •

وبكت معها آلهة أنوناكى

١٢٥ وتعمد الآلهة ذليلة تبكى

وشفاها تضغط على بعضها ، جميعها

ست أيام وسبع ليال

يهب الريح وتصحق العاصفة الجنوبية الأرض

فلما كان اليوم السابع

سكنت العاصفة الجنوبية عن الحرب

١٣٠ التى شتها كأنها (جيش من) الخيالة

هدأ البحر ، واقطع الطوفان ، وسكنت العاصفة^(٣) التكوين ٨ : ١-٢

ونظرت الى الجو فاذا السكون قد حل

وتحول الناس جميعا الى طين

وصارت الحقول مستوية كأنها سطح •

١٣٥ فتحت كوة . . . فسقط النور على وجهي^(٢٤) التكوين ٨ : ٦

وانحنيت وجلست أبكى

وعلى وجهى سال دمعى

وتطلعت الى الدنيا فى عرض البحر

(٢٣) التكوين ٨ : ١ - ٢ ثم ذكر الله نوحا وكل الوحوش وكل البهائم التى

معه فى الفلك وأجاز الله ريحا على الأرض فهبات المياه . وانسدت بناييع القمر
وطاقات السماء فامتنع المطر من السماء .

(٢٤) التكوين ٨ : ٦ وحدث من بعد أربعين يوما أن نوحا فتح طاقة الفلك

التي كان قد عملها .

في كل من الأقاليم الاثنى عشر طلع نجع

١٤٠ وعلى (جبل) نصير^(٣٥) حطت الفلك^(٣٦) التكوين ٨ : ٤

وأمسك جبل نصير الفلك ولم يدعها تتحرك

اليوم الأول ، اليوم الثاني ، وجبل نصير ممسك بالفلك

اليوم الثالث ، اليوم الرابع ، وجبل نصير ممسك بالفلك

اليوم الخامس ، اليوم السادس ، وجبل نصير ممسك بالفلك

لا يدعها تتحرك .

١٤٥ وعندما حل اليوم السابع

أطلقت حمامة

التكوين ٨ : ٨ - ١٠

فذهبت الحمامة ثم عادت^(٣٧)

إذا لما يكن ثمة مكان فعادت

ثم أطلقت سنونو

١٥٠ ذهب السنونو ثم عاد

إذا لما يكن ثمة مكان فعاد

التكوين ٨ : ٧

ثم أطلقت غرابا^(٣٨)

فذهب الغراب ، فلما رأى قرار الماء

(٣٥) يظن أنه جبل بئر عمر جذرون .

(٣٦) التكوين ٨ : ٤ واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر

من الشهر على جبل اراراط .

(٣٧) التكوين ٨ : ٨ - ١٠ : ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلت المياه

عن وجه الأرض . فلم تجد الحمامة مقرا لرجلها فرجعت اليه الى الفلك . لأن

مياها كانت على كل وجه الأرض . فمد يده وأدخلها عنده الى الفلك .

(٣٨) التكوين ٨ : ٧ : وأرسل الغراب فخرج مترددا حتى نشفت المياه عن

الأرض .

أكل وحام ونعب ولم يعد

١٥٥ ثم أطلقت الجميع الى الرياح الأربع وقدمت قربانا

وارقت سكية على قمة الجبل (٣٩) التكوين ٨ : ١٩ - ٢٠

سبعة وسبعة قدور وضعتها

وحول قوائنها كومت القصب وخشب الأرز والآس .

١٦٠ فحست الالهة الرائحة الذكية

وتزلحت الالهة القربان كأنها ذباب

وعندما جاءت سيدة الالهة

رفعت المجوهرات الكبيرة التي صاغها لها انو كطلبها

« أيتها الالهة » (فكما) ان هذا اللازورد الذي في عنقي لن أنساه

١٦٥ فهذه الأيام سأذكرها ولن أنساها !

تقدمي أيتها الالهة الى القربان ،

أما اقليل فلا يتقدم الى القربان ،

لأنه أحدث الطوفان دون روية

وقاد فاسى الى التهلكة » .

١٧٠ الآن ، عندما وصل اقليل

ورأى الفلك . عز ذلك على اقليل

وامتلا غضبا على آلهة ايجي (٣٠)

(٢٩) التكوين ٨ : ١٩ : ٢٠ : وكل الحيوانات كل الدبابات وكل الطيور . كل

ما يدب على الأرض كأنواعها خرجت من الفلك . وبنى نوح مذبحا للرب . وأخذ

من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة واصعد محرقات على المذبح .

فتنسم الرب رائحة الرضا .

(٣٠) الهة السماء .

« أَيْكُم خَرَجَ حَيًّا : مَا كَانَ يَجِبُ أَنْ

يَنْجُو شَخْصٌ مِنَ الْهَلَاكِ » .

وَقَتَحَ نِينُورَتَاهُ فَاهُ لِيَتَكَلَّمَ : قَائِلًا

إِلَى أَتْلِيلِ الْبَاسِلِ

١٧٥ « مَنْ ، غَيْرَ آيَا ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْنَعَ الْكَلِمَ (٣١)

فَايَا يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ » .

وَقَتَحَ آيَا فَاهُ لِيَتَكَلَّمَ : قَائِلًا

إِلَى أَتْلِيلِ الْبَاسِلِ

« أَنْتِ يَا أَحْكَمَ الْآلِهَةِ ، أَيُّهَا الْبَظْلُ

كَيْفَ تَحْدِثُ الطُّوفَانَ دُونَ رُؤْيَا ؟

١٨٥ عَلَى الْآثَمِ وَزَرَائِمِهِ ، وَعَلَى الْمُعْتَدِي وَزَرَاعْتِدَائِهِ (٣٢)

كُنْ حَلِيمًا أَوْ كُنْ صَبُورًا !

وَبَدَلًا مِنْ أَحْدَاثِكَ الطُّوفَانَ ،

لَيْتَ أَسَدًا هَبَّ وَخَفَّ (٣٣) مِنْ بَنَى الْإِنْسَانَ !

بَدَلًا مِنْ أَحْدَاثِكَ الطُّوفَانَ ،

لَيْتَ ذُبَابًا هَبَّ وَخَفَّ مِنْ بَنَى الْإِنْسَانَ !

بَدَلًا مِنْ أَحْدَاثِكَ الطُّوفَانَ

لَيْتَ مَجَاعَةً هَبَّتْ لِتُخَفِّفَ بَنَى الْإِنْسَانَ !

(٣١) هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَحَدَى صِفَاتِ آيَا .

(٣٢) هَذَا يَذْكُرُنَا بِمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ « سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ » : فَمَنْ يَعْمَلُ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .

(٣٣) هَذَا مَا حَدَّثَ فِي مِصْرَ عِنْدَمَا غَضِبَ إِلَهُ رَعَى عَلَى بَنَى الْإِنْسَانَ ، لَمَّا

عَصَوْهُ : فَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ عَيْنَهُ فِي صُورَةِ حَيَوَانَ فَأَهْلَكَهُمْ .

بدلا من احداثك الطوفان

ليت طاعونا^(٣٤) هب وأهلك بنى الانسان^(٣٥) حزقيال ١٤ : ١٣ - ٢١

لست أنا الذى أفشيت سر الآلهة العظيمة

بل جعلت اتراخاسيس^(٣٦) يرى حلما

وجعلته يسمع سر الآلهة

والآن أنظر فى أمره !

وعلى ذلك صعد ائليل الى الفلك

١٩٠ وأمسك يدي وأخذني الى الفلك

وأخذ زوجتي وجعلها تركع بجانبى

ووقف بيننا ولمس جياها لياركنا :

فيما مضى كان اوتنايشتم انسا

أما الآن فأوتنايشتم وزوجه صار الهين مثلنا

١٩٥ اوتنايشتم سعيش بعيدا

(٣٤) حرفيا : انا : اله الطاعون .

(٣٥) حزقيال ١٤ : ١٣ : ٢١ وكانت الى كلمة الرب قائلة :

يا ابن آدم ان اخطأت الى ارض وخانت خيانة فمددت يدي عليها وكسرت لها قوام الخبز وارسلت عليها الجوع وقطعت منها الانسان والحيوان . وكان فيها هؤلاء الرجال الثلاثة نوح ودانيال وابوب فانهم انما يخلصون انفسهم ببرهم يقول السيد الرب . ان عبرت فى الأرض وحوشا رديئة فانكلوها وصارت خرابا بلا عابر بسبب الوحوش وفى وسطها هؤلاء الرجال الثلاثة فحي انا يقول السيد الرب انهم لا يخلصون بنين ولا بنات . هم وحدهم يخلصون والأرض تصير خربة . او ان جلبت سيفا على تلك الأرض وقتل با سيف اعبى فى الأرض وقطعت منها الانسان والحيوان . وفى وسطها هؤلاء الرجال الثلاثة فحي انا يقول السيد الرب انهم لا يخلصون بنين ولا بنات بل هم وحدهم يخلصون . او ان ارسلت وباء على تلك الأرض وسكبت غضبى عليها بالدم لا قطع منها الانسان والحيوان . وفى وسطها نوح ودانيال وابوب فحي انا يقول الرب انهم لا يخلصون ابنا ولا ابنة انما يخلصون انفسهم ببرهم .

(٣٦) أى احكم الحكماء ، وهذه احدى سمات اوتنايشتم .

عند فم الأنهار .
١٩٦ عليه أخذوني واسكنوني بعيدا
عند فم الأنهار . (٣٧)

الأسطورة السومرية للطوفان (٣٨)

(٣٧ سطرا تقريبا مهشمة من الأول)
« فاسى ، فى هلاكها ، سوف أنا (٣٩)
الى نينتو (٤٠) سأعيد مخلوقاتى
سأعيد الناس الى مساكنهم
أما المدن ، حقا ، فسيبنون لأنفسهم أماكن للشرائع
الالهية ، وسأجعل ظلالهم فى سلام
أما ييوتنا (٤١) ، فسيضعون لبنها فى أماكن طاهرة
وأماكن قراراتنا حقا سينونها فى أماكن طاهرة
هو وجه الخاص بالحرم
أكمل الطقوس ، (و) الشرائع الالهية المبجلة
على الأرض هو وضع هناك
وبعد أن خلق آتو ، انليل ، انكى ، نينهور ساج

(٣٧) فى الأساطير القديمة لم يكن يسمح لمن اختلط بالالهة بان يتصل بالناس
مرة أخرى والا هلك وقد حدث ذلك ايضا عند الحثيين فى قصة « ذبح التين » .
(٣٨) مترجمة عن الانجليزية : S. N. Kramer : The Deluge وكرامر من
اعظم علماء اللغة السومرية وهى أقدم لغة ظهرت ببلاد العراق حتى الآن .
(٣٩) من المحتمل أن أكثر من اله كان يتحدث . وترجمة النص على أساس
أن الاله المتحدث (أو الالهة المشتركة فى الحديث) تعمل على انقاذ البشر من الهلاك .
وان كان هذا غير مؤكد .
(٤٠) نينتو الهة سومرية تمثل الامومة وتعرف ايضا بالاسمين نينهور ساج
ونينماء .

(٤١) قد تكون « الخاصة بمنازل الشرائع الالهية » .

(الناس) ذوى الرؤوس السوداء (٤٢)

وازدهر الزرع فى الأرض ،

والحيوانات ومخلوقات السموات ذوات الأربع

أخرجت بحكمة الى الوجود

(حوالى ٣٧ سطرا مهشمة)

وبعد أن أنزلت الملكية من السماء

وبعد أن أنزل تيارا المعظم وعرش الملك من السماء (٤٣)

(٤٤) هو الذى أكمل الطقوس والشرائع الالهية المعظمة

أسس المدن الخمس فى أماكنها الطاهرة

ونادى أسماؤها ، وجعلها مراكز للعبادة

وكانت أولى هذه المدن ، أريدو ، فأعطاه الى نوديمو (٤٥) القائد

والثانية باد تيبيرا ، أعطاه الى

والثالثة ، لاراك ، أعطاه الى أندو يلهور ساج

والرابعة ، سيبار ، أعطاه للبطل أوتو (٤٦)

والخامسة : شوروباك ، أعطاه الى سود (٤٧)

(٤٢) الكلمة « ذوى الرؤوس السوداء » تشير عادة الى سكان سومر وبابل ،

ولكن فى هذا النص ربما تشير الى البشر جميعا .

(٤٣) إشارة صريحة الى ان الملك الأول قد عاش فى السماء قبل نزوله الى

الأرض ، وهذا يتفق مع قصص القرآن الذى ذكر أن آدم وحواء قد سكنا الجنة

قبل طردهما منها ونزولهما الى الأرض . وإن كان النص السومرى لم يذكر لنا

أسباب الطرد .

(٤٤) الضمير لا يوضح شخصية الاله أو الالهة . وربما كان المقصود

أنو - أنليل .

(٤٥) نوديمود هو اسم اله الماء انكى .

(٤٦) اله الشمس : وهو اله كل من سيبار ولارسا .

(٤٧) الهة شوروباك وقد وحدها علماء الدين البابليون مع الالهة نينليل

زوج أنليل .

وحين نادى أسماء هذه المدن ، وجملها مراكز للعبادة
أحضر (٤٨)

وأسس تطهير الأنهار الصغيرة (٤٩)

(حوالي ٣٧ سطرًا مهشمة)

الطوفان

هكذا حدث لها ...

ثم بكت نينتو مثل

وآنا الطاهرة أقامت مأتما لناسها (٥٠)

آنو ، انليل ، انكي ، ونيهور ساج ،

آلهة السماء والأرض نطقوا اسم (٥١) آنو (و) انليل

ثم قام زيو سودرا (٥٢) ، الملك ، الباشيشو

وبنى ضخما (٥٣)

مطيما ، متواضعا ، في احترام (هو)

حاضرا كل يوم ، دائما (هو)

محضرا كل أنواع الأحلام ، (هو)

فاطلقا أسمى السماء (و) الأرض (هو)

..... الآلهة حائط ،

زيوسودرا ، واقفا الى جانبها ، سمع :

(٤٨) ربما المقصود الماء والمطر .

(٤٩) تبين لنا من هذه العبارة اهتمام أهل العراق منذ العصور السحيقة

بتطهير الترع ، لأنها بلد زراعي .

(٥٠) قد يشير الضمير الى ناس الأرض أو البلاد .

(٥١) « سحرهم آنو وانليل » .

(٥٢) نوح القرآن .

(٥٣) قد يكون المقصود هنا هو بناء الفلك .

» قف بجوار الحائط عن شمالي ، (٥٤)

بجوار الحائط سأقول لك كلمة ، (خذ كلمتي) ،

(اعط) اذنك الى تعليماتي •

ب ••••• تا سيكتسح طوفان مراكز العبادة •

ليقضى على بذرة البشر ••••• ،

هذا قرار ، كلمة (مجلس الآلهة)

بناء على الكلمة التي أمر بها آنو (و) اقليل ••••• ،

ملكها وحكمها سينتهى (٥٥) ١٦٠

(حوالي ٤٠ سطرا مهشمة)

جميع الزوابع ، في غاية من القوة ، هاجمت (كقوة) واحدة ٢٠١

وفي نفس الوقت ، اكسح الطوفان مراكز العبادة

وبعد ذلك ، لمدة سبع أيام ، وسبع ليال ،

اكسح الطوفان الأرض ،

تقاذفت الزوابع السفينة الضخمة فوق الأنهار الكبيرة

ثم أتى أوتو الذي يضيء السماء والأرض •

وفتح زيوسودرا نافذة بالفلك الضخم ،

فادخل البطل أوتو أشعته الى داخل الفلك الضخم

زيوسودرا الملك

سجد أمام أوتو ،

(٥٤) اسم الآله المتكلم لم يذكر ، ولكنه بلا شك ، انكى •

(٥٥) المقصود : ملك بنى الانسان على الأرض •

ذبح الملك ثورا ، وذبح شاة

(حوالى ٣٩ سطرا مهشمة)

تنطق أنت « نسمة السماء » ، « نسمة الأرض » ، حقا

٢٥١

تبسط نفسها عندك

آنو (و) اقليل نطقا « نسمة السماء » ، « نسمة الأرض »

ب هم قبسطت نفسها

الزرع الذى ينبت من الأرض ، ازدهر

زيو سودرا ، الملك

سجد أمام آنو (و) اقليل

آنو (و) اقليل رضيا عن زيو سودرا

حياة مثل حياة الاله اسبأها عليه

نسمة أزلية مثل نسمة الاله أنزلاها له .

ثم ، زيو سودرا ، الملك

٢٦٠

الذى حافظ على اسم الزرع وبذرة البشر

فى أرض (٥٦) التعدية (٥٧) ، أرض دلمون ، حيث تشرق الشمس

جملاه يعيش . (٥٨)

(بقية اللوحة حوالى ٣٩ سطرا مهشمة)

(٥٦) الكلمة السومرية التى استعملت مرتين فى هذا السطر يمكن ترجمتها

أيضا بمعنى جبل : أو أرض جبلية .

(٥٧) ربما قصد عبور الشمس بمجرد ظهورها فى المشرق ، والكلمة السومرية

تعنى أيضا حكم .

(٥٨) فى الغالب آنو (و) اقليل .

قصة هلاك البشر في الأدب المصرى القديم

كما غضب الله على بنى الانسان في بلاد الرافدين وعاقبهم بالطوفان ، غضب أيضا على أهل مصر عندما عصوا أوامره وكفروا به ، وأهلكهم عقابا لهم على عدم طاعته ، ولكن القصة المصرية تختلف كل الاختلاف عن القصة السومرية - الاكادية . ففى مصر لم ترد أى اشارة الى الطوفان اطلاقا ، بل عاقب الله بنى الانسان بأن أرسل عليهم وحشا اباد منهم خلقا كثيرا ، ثم أخذته الرحمة فأنجى الباقين ، على عكس القصة السومرية - الاكادية التى لم يعف فيها الاله عن بنى الانسان الا بعد وساطة الآلهة الأخرى الأقل شأنا .

وقد وجدت القصة المصرية بأكملها فى مقبرتين من الأسرة التاسعة عشر ، هما مقبرة سيتى الأول . ومقبرة رمسيس الثانى . وفى مقبرتين من الأسرة العشرين ، مقبرة رمسيس الثالث ومقبرة رمسيس السادس ، ولم يعثر على نصوص هذه القصة قبل ذلك ، ولكن يبدو أنها كانت معروفة منذ الأسرة الثامنة عشر على الأقل نظرا لما فى النص من أخطاء . ثم ان المقصورة الخشبية الكبرى المغشاة بالذهب التى وجدت فى مقبرة توت عنخ آمون والمحفوطة بالمتحف المصرى ، تشتمل على الجزء الأخير فقط من النص وهو لا يدور حول قصة هلاك البشر ، انما يخص بعض الطقوس الدينية التى ذكرت فى نهاية القصة .

وقد قام شارلز مايستر حديثا بنقل نصوص هذه القصة ونشرها فى

Charles Maystre : Le Livre De La Vache Du Ciel. BIFAO vol. XL
(1941), Cairo.

وقد جمع نصوص القصة المدونة فى المقابر الآتية :

- ١ - توت عنخ آمون - المقصورة الخشبية الكبرى .
- ٢ - مقبرة سيتى الأول - على جدران غرفة صغيرة متفرعة من غرفة الدفن على اليمين .
- ٣ - مقبرة رمسيس الثانى - على جدران غرفة صغيرة متفرعة من غرفة الدفن على اليمين .

٤ - مقبرة رمسيس الثالث - على جدران غرفة صغيرة متفرعة من غرفة الدفن على اليمين .

٥ - مقبرة رمسيس السادس - على جدران غرفة صغيرة في نهاية الممر الثاني .

ولكن النص الخاص بقصة عقاب البشر لم يعثر عليه الا في مقابر سيتي الأول ورمسيس الثاني ورمسيس الثالث .

وقد قام مايستر بنقل النصوص ومقابلة بعضها ببعض الآخر حتى يمكن ملء الفجوات وتصحيح الأخطاء الموجودة في كل منها . وقد ترجمت القصة عدة مرات الى الانجليزية والألمانية .
وتبدأ القصة كالآتي :

حدث أن رع الذي خلق ذاته ، بعد ما صار ملكا على الآلهة والناس أجمعين ، أن أخذ الناس يتآمرون على رع ويقولون : الآن جلالتة - له الحياة والصحة والسعادة - شيخ (شابهت) عظامه الفضة ، و (شابه) لحمه الذهب ، و (شابه) شعره اللازورد الحقيقي . و (مالبث) أن فطن جلالتة بما يبيت له الناس من أمر . فقال جلالتة - له الحياة والصحة والسعادة - لحاشيته (حرفيا : لهؤلاء الذين في ركابه) : ادع لى عيني (١) ، وشو وتفنوت وجب ونوت وكل الآباء والأمهات التي كانت معي حينما كنت في نون (٢) وكذلك الاله نون ، وعليه أن يحضر حاشيته معه . وأحضرهم في هدوء ، حتى لا يرى الناس (شيئا) ولا تفزع قلوبهم (حرفيا : تهرب قلوبهم) . تعال معهم الى القصر الكبير حتى يخبرونا بأحوالهم منذ جئت من نون الى المكان الذي خلقت فيه نفسي . (وتلبية لرغبة الاله) جىء بتلك الآلهة الى حضرته واجتمعت حوله ، ولامست جباههم الأرض في حضرة جلالتة . فقال جلالتة كلاما في حضرة الوالد الأكبر

(١) كما هو واضح من القصة ، عين اله الشمس جزء مستقل عن جسده ولذلك قصة ، وتظهر هنا أولا في صورة الآلهة حانحور ثم اتخذت بعد ذلك صورة الآلهة سخمة ، الهة الحرب ، بعد فتكها بالبشر .

(٢) نون - هي المياه الأزلية التي ظهر منها الاله وبدأ الخلق .

الذى خلق البشر ، ملك الناس^(٣) ثم قالوا لجلالته : « تكلم حتى نسمع (ماقول) » . فقال رع مخاطباً نون .. أنت يا أكبر الآلهة الذى خلقت أنا منه ، وأتم يا أيها الآلهة أجدادى ، أنظروا الى هؤلاء الناس الذين خلقوا من عيني^(٤) . لقد ثاروا على . خبرونى ماذا ستفعلون بهم . انظروا ! فأنا أبحث (الموضوع) « أنا لن أذبحهم حتى أسمع ما تقولون فى هذا الشأن » . وأجاب جلالة الآله نون ، يا بنى ، رع ، أنت يا أيها الآله الذى فاق من أنجبه عظمة، وفاق من خلقوه قدرة^(٥) ، أيها الجالس على عرشك ، ان الخوف منك لعظيم لو أنك فقط وجهت « عينك » على من كفروا بك فقال جلالة رع : « أنظروا كيف يولون الأدبار فى البادية وقلوبهم وجلة مما قد أقوله لهم » . ثم قالوا (أى للآلهة) لجلالته : « دع عينك تذهب لتسحق أولئك الذين كفروا بك . ولما كانت العين ليست ذات دراية فى هذه المهمة لتسحقهم لك ، فلتنزل فى (صورة) حاتحور^(٦) . فجاءت هذه الآلهة ، وذبحت الناس فى البادية » (وطابت نفس

(٣) المقصود الآلهة نون .

(٤) خلق البشر من الدموع التى سالت من عين الآله الخالق كما جاء ذلك

فى قصة الوحش أبو فيس .

(٥) يتضح من هذا النص ، أن مؤلف هذه القصة يدعى أن رع لم يخلق نفسه : إنما خلقه أبوه نون . وهذا يتناق مع ما جاء فى أول القصة من أن رع هو الذى خلق نفسه . كما يجب أن نتذكر أن هذه القصة كتبت فى أغلب الظن بطيبة مقر الآلهة آمون - ورغم أنه اتحد مع رع وصار دائماً يدعى كمون - رع ، إلا أن طيبة لم تكن المقر الرسمى لعبادة هذا الآله . وإن كان ظهور رع من المياه الأزلية قد ذكر ايضا فى نصوص الأهرام من الدولة القديمة ، تعزيمه ٥٤٢ . وإن كانت نصوص الأهرام قد صورت اتوم على أنه خالق الناسوع ، تعازيم ١٢٤٨ - ١٥٢١ - ١٦٥٢ - ١٦٥٥ ، أما تعزيمه (١٩٠٦ - د) فتشير إلى أن رع هو رئيس الناسوع أى خالق العالم . ولم يكن نون المذكور فى هذا النص هو الذى أنجب رع وحده ، إنما لئمة آلهة أخرى خلقت رع ايضا كما هو واضح من عبارة « وفاق من خلقوه قدوة » ويرى العلماء مثل زيته ان بتاح كان أبا لرع حسب تعاليم منف ، كما كان جب ايضا أبا لرع حسب قصة قديمة . ومن هذا يتضح تضارب العقائد المصرية حول الآله الخالق .

(٦) يفهم من هذا النص أن العين فى صورتها العادية ليست قادرة على اهلاك البشر ولذا تمصت صورة الآلهة حاتحور .

إله الشمس بهذا العقاب وبعد ما عادت الآلهة (قال لها جلالة هذا الإله : « مرحبا بك يا حاتحور ، التي قمت لى بالعمل الذى بعثت من أجله . فقالت تلك الآلهة : « أقسم بحياتك ، لقد انتصرت على الناس ، والسعادة (تملأ) قلبى » فقال جلالة رع : « سأنتصر عليهم كملك ، ولكن (كفى) ، لا تخفى منهم (أكثر من ذلك) (٧) .

وهكذا ظهرت سخة (٨) الى الوجود ، مزيج الليل (٩) ، لتخوض فى دمائهم (بادئة) من ن - نسوت (١٠) . (اذ أرادت سخة أن تستمر فى القضاء على الناس قضاء تاما ، غير أن عوامل الرحمة والشفقة حركت قلب رع نحو العباد ، فأخذ يفكر فى وسيلة تمكنه من إيقاف تلك المذبحة البشرية الرهيبة ، وهذه تفكيره الى ارسال الرسل على جناح السرعة الى مدينة الفنتين (فقال رع : « آتوني يرسل سرعان عجالى تجرى كطيف الجسد . » وقد أحضر هؤلاء الرسل فى الحال . فقال جلالته هذا الإله : اذهبوا الى ابو (١١) ، واحضروا كمية كبيرة من المغرة الحمراء . وقد أحضرت له هذه المغرة الحمراء . ثم ان جلالة هذا الملك أعطاها الى ... ذى الضفيرة الجانبية الذى فى يونيو (١٢) ، ليطحن هذه المغرة الحمراء (وأخذ الجوارى فى العمل دون توقف وظلوا طُول الليل سهارى) تدشدشن الشعر (لعمل) الجعة . ثم أنصفت المغرة الحمراء

(٧) فى الغالب «م» هنا ليست حرف «ق» انما « الناهية » . كما يتفق مع الحوادث التالية . وان كان البعض يترجمها : سأنتصر عليهم كملك بانقاصهم (أى بانقاص عددهم) ولكن هذا لا يتفق مع الحوادث التالية . وربما قصد الإله رع هذا الفموض خوفا من عينه التى أصبحت وحشا شرسا .
(٨) سخة أى المنتصرة .

(٩) مزيج الليل : هذه العبارة ليست لها معنى فى هذا المكان وربما نقلت خطأ من السطر التالى .

(١٠) ن - نسوت : اهناسية المدينة - هر قليوبوليس .

(١١) ابو : الفنتين - أسوان .

(١٢) يونيو : عين شمس - هليوبوليس .

الى هذا المزيج ، فكانت كأنها دم الناس • ثم عبت (حرفيا : عملت) في سبعة آلاف قدر • (أنجزتها قبل طلوع الشمس ، وظهر التعب والارهاق عليهن ، وتأثرت عيونهن بالسهر الطويل فتكحلن •) ثم جاء جلالة ملك الوجه القبلى وملك الوجه البحرى « رع » (تصحبه) تلك الآلهة ليروا قدور البيرة هذه • ولما كان فجر اليوم الذى ستذبح فيه الآلهة البشر فى وقت ابصارهم قال رع : كم هى (١٣) بديعة ، ساحى الناس بها • « ثم قال رع : اصلوها الى المكان الذى قالت أنها ستذبح الناس فيه • وهب جلالة ملك الوجه القبلى وملك الوجه البحرى « رع » فى المزيج الأخير من الليل لاراقة هذا المزيج المنوم • فامتلات الحقول بهذا السائل الى ارتفاع ثلاث قبضات (١٤) بسلطان هذا الاله • فلما ذهبت الآلهة فى الصباح الباكر وجدتها تفيض (بتلك الجمة) ، وكان وجهها (يضىء) جمالا فيها ، فشربت وكانت لذينة على قلبها ، فسكرت ولم تتعرف على بنى الانسان •

(وبذلك سلم البشر من الفناء التام بفضل اله الشمس الذى غفر للعباد ذنوبهم • على أنه سئم المعيشة على الأرض ، فصعد مرة ثانية الى السماء على ظهر البقرة السماوية • وترك الأرض بعده للاله تحوت اله الحكمة ليدير شئونها •)

(١٣) قدور البيرة •

(١٤) حوالى ٢٢ سم •

من الوثائق العربية في العصور الوسطى :

نصان جـديـدان

من وثيقة الأمير صرغتمش

للدكتور عبد اللطيف إبراهيم على

استاذ الوثائق المساعد بكلية الآداب - جامعة القاهرة

وبعد - فهذه دراسة لاحدى وثائق الوقف العربية في العصور الوسطى المحفوظة بالأرشيف التاريخي لوزارة الأوقاف بالقاهرة ، وهي وثيقة الأمير صرغتمش بن عبد الله الناصرى من عصر المماليك البحرية في مصر .

وقد رأينا نشر وتحقيق بعض أجزاء منها - وهما نصان جديدان - وفاء بما وعدنا من قبل في بحث سابق منذ أكثر من عشر سنوات (١) .

وهذان النصان قنوم اليوم بنشرهما لأول مرة ، لما لهما من أهمية كبيرة في دراسة التاريخ الحضارى لحقبة حافلة من عصر المماليك .

وليس قيمة هذه الوثيقة التاريخية في صدورنا عن الفاعل القانونى أو المتصرف الواقف الأمير صرغتمش - وهو يعتبر بحق من الشخصيات الكبرى فى الدولة المملوكية الأولى - ولكن لأنها تقدم لنا معلومات جديدة وقيمة للغاية من الناحية المعمارية عن المدرسة الصرغتمشية ، وهى الكلية الجامعية فى مصطلح العصر الحديث ، وعن الحياة التعليمية وأرباب الوظائف المختلفة فيها ، وغير هذا وذلك من الحقائق التاريخية الهامة .



١ - عبد اللطيف إبراهيم : وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى (مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مج ١٨ ج ٢ ديسمبر ١٩٥٦) ص ٢٣٠ - الوثائق فى خدمة الآثار (كتاب المؤتمر الثانى للآثار فى البلاد العربية ١٩٥٧) ص ٢٤٩ حاشية ٢ .

وهذه الوثيقة صورة صحيحة لها قيمة الأصل^(١) من حجة وقف الأمير صرغتمش ، وهى وثيقة دبلوماسية متكاملة الأركان من الناحية القانونية ، قمت بنسخها — هى وغيرها من الوثائق التاريخية المحفوظة فى أرشيفات القاهرة منذ مدة طويلة .

والوثيقة مصدر أصيل صادق، اذ يصف لنا النص الأول المدرسة الصرغتمشية عند انشائها ، وهو وصف لم يرد له مثل — من حيث الدقة والتفصيل — فى أى مصدر من المصادر التاريخية الروائية المعاصرة ، هذا فضلا عما يقدمه لنا من مصطلحات أثرية فنية مختلفة^(٢) ، وهو بذلك يفتح لنا ميدانا جديدا فى الدراسات الأثرية الاسلامية — وهو ميدان علم المصطلحات الفنية^(٣) Terminology الذى لا زالت البحوث فيه فى بدايتها . بينما يقدم لنا النص الثانى معلومات قيمة عن الحياة الدينية والتعليمية فى المدرسة الصرغتمشية مما يعتبر مادة دسمة للدارسين للتاريخ الاجتماعى والاقتصادى فضلا عن تاريخ النظم والمؤسسات فى العصور الوسطى — أعنى فى مصر الاسلامية زمن المماليك البحرية .



أما المتصرف القانونى فى هذه الوثيقة فهو الأمير سيف الدين صرغتمش ابن عبد الله الناصرى ، وأصله من ممالك السلطان الملك الناصر محمد ابن المنصور قلاوون الصالحى ، جلبه الخواجا الصواف تاجر المماليك سنة ٧٣٧ هـ ، فاشتراه الناصر محمد بببلغ كبير حتى قيل « لم يسمح بمثل ذلك فى ثمن مملوك »^(٤) .

(١) بحثنا وثيقة الأمير أخور كبير قراقجا الحسنى ص ١٨٨ حاشية ١ .

(٢) بحثنا الوثائق فى خدمة الآثار ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

(٣) كان المرحوم الدكتور L. A. Mayer قد وعد عند نشره لجزء من وثيقة السلطان قايتباى رقم ٨٨٦ بأرشيف وزارة الأوقاف ، بالعمل على نشر معجم للمصطلحات الفنية الواردة فيها ، إلا أن شيئا منه لم يظهر حتى وفاته .

Mayer, L. A., The buildings of Qaythay as described in his endowment deed, London 1938.

(٤) المقرئى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ٢ ص ٤٠٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢٨٣ ، المنهل الصافى والمستوفى بعد الواقى (مخطوط بدار الكتب المصرية) ج ٢ ص ٢١٤ ، المسقلانى : الدور =

تدرج صرغتمش في سلم الوظائف المملوكية بعد أن عين جمدارا ، وإن كان قد ظل خاملا لفترة لا تعرف عنه فيها شيئا يذكر . إلى أن قامت فتنة صاحبة في سنة ٧٤٢هـ بين الأمير قوصون نائب السلطنة في عهد الأشرف علاء الدين كجك ، وبين المماليك السلطانية ومنهم صرغتمش وخداشية شيخون وإيتمش .

ولما ظهر صرغتمش - بعد اختفائه مدة - سلم للأمير الطنبا المارداني ، كما سلم غيره إلى شخصيات كبرى من أمراء المماليك^(١) ، ولما أراد آقسنقر أن يمشي صرغتمش في خدمته - وكان جميلا مليح الصورة - امتنع وقال لبعض الأمراء « إن لم يتركني قتلت نفسي » !!! ثم ترقى بعد ذلك إلى أن تأمر بخلخاناه ثم تقدمه في سنة ٧٤٩هـ ، ولكن السلطان اناصر حسن عزله في سنة ٧٥١هـ من وظيفة الجمدارية التي كان قد وصل إليها في عهد والده السلطان محمد ابن قلاوون ، لأنه كان من جملة حاشية الأمير شيخون^(٢) .

ولكنه ما لبث أن أدخل عليه في صفر سنة ٧٥٢هـ واستقر رأس نوبة كبير (رأس نوبة الأمراء الجمدارية الملكية الناصرية) على ما كان عليه أولا ، بعناية الأمير طاز ووساطة الأمير مغطاي وبذلك صارت له سلطة كبيرة .



ولقد لعب صرغتمش دورا هاما في نهاية سلطنة الناصر حسن الأولى ، إذ بعث به كبار الأمراء ومعه الأمير قطلوبغا الذهبي وغيره في يوم الأحد ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٧٥٢هـ للقبض على السلطان حسن ، فطلعوا إلى القلعة وقبضوا

= الكامنة ج ٢ ص ٢٠٦ ، ويقول القريري في كتابه السلوك ج ٢ ص ٥٢٦ « وبالغ السلطان الناصر أخيرا في مشتري المماليك ، فاشترى صرغتمش بخمسة وثمانين ألف درهم سوى تشريف استأذه وغير ما كتب له من المسامحة ، وهي مبلغ من المال يعينه السلطان لأمر من الأمراء المقطعين فوق إقطاعه ويأخذه الأمير مساهمة أو مشاهرة » القريري : السلوك ج ٢ ص ١٩ حاشية ٥ .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢٥ ، ٢٠ ، العسقلاني :

الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٢) ابن تغرى بردى : المصدر السابق ج ١٠ ص ٢٢١ ، العسقلاني : نفس

المصدر السابق والجزء والصفحة .

عليه من بين حريمه اللاتي صرخن صراخا عظيما ، وصاحت الست حلق (١) في وجه الأمير صرغتمش نفسه وسبته سبا فاحشا ، وقد أخرج السلطان حسن وطلع به الى رواق فوق الايوان حيث حبس ووكّل به من يحفظه ، وعاد صرغتمش الى الأمراء الذين اتفقوا على تولية أخيه الملك صالح بن محمد بن قلاوون (٢) .

ولما كان صرغتمش من جملة حاشية الأمير شيخون ، فقد قام بدور كبير مع الأمير طاز لاعادة شيخون الى القاهرة ، وعزل منكلى بفا الرجل الفتى ، وأسهم صرغتمش في عدة معارك من أجل ذلك ، وأبدى فيها مهارة فائقة في القتال ، اذ هزم كلا من مغلطاي بن عبد الله الناصرى ومنكلى بفا اللذين فرا هارين (٣) . ولكنه تمكن من القبض عليهما بعد ذلك وحبسهما في خزانة شمايل ، ثم توجه الى قبة النصر حيث أخبر السلطان صالح بن محمد بفراره من أمرهما ، فسر السلطان لذلك سرورا عظيما ، وكتب باحضار الأمير شيخون من الاسكندرية ، وكان صرغتمش قد كتب اليه كتابا في السري يقول له فيه « اقبل الى القاهرة فأنا وظاز معك » (٤) .

وقد استقبل كل من صرغتمش وظاز الأمير شيخون عند عودته الى القاهرة استقبالا حافلا ، ونزل كل منهم الى اصطبله ، وبشوا الى الأمراء القادمين من سجن الاسكندرية والكرك بالهدايا القيمة (٥) .



(١) هي ست حلق القهرمانية الناصرية التي كان لها نفوذ كبير على نساء الناصر محمد بن قلاوون ، وكان يقال لها ست مسكة ، وقد توفيت وهي بكر علراء وكان موجودها شيئا كثيرا .

القريري : الخطط ج ٢ ص ١١٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١٩٦ حاشية ٣ ، ج ١٠ ص ٢٣١ - ٢٣٢ . العسقلاني : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٧ رقم ١٤٨٣ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٣) نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٥٦ - ٢٥٨ .

(٤) نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٥) نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٦٢ .

ومما لا شك فيه أن الأمير صرغتمش قد بلغ بعد هذه الأحداث الكبار شأوا عظيما ، وعندئذ شرع في عمارة اسطبل الأمير بدرجك بجوار بئر الوفاويط قريبا من الجامع الطولوني ليكون سكنا له (١) ، وقد حمل الناس اليه شيئا كثيرا من الآلات لممارته .

وبعد ذلك خلع السلطان صالح بن محمد بن قلاوون على الأمير صرغتمش واستقر به رأس نوبة كبير ، وذلك باختيار الأمير شيخون وسعيه ، وجعل اليه التصرف في أمور الدولة كلها من ولاية وعزل وحكم ما عدا مال الخاص الذي كان للأمير شيخون التحدث فيه ، وعندئذ قصد الناس باب الأمير صرغتمش لقضاء حوائجهم ، فكثرت مهابته ، ووصل به الأمر الى معارضة الأمراء في جميع أفعالهم ، وبذلك صار في رتبة الأمير شيخون على حد قول المؤرخ الأشهر أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى .

وكان لا يعمل شيء الا بأمره وإشارته ، وإن حدث وقام غيره بعمل ما غضب وأبطل ما فعله وأخرق بصاحبه ، وهكذا طال صرغتمش وتعاظم وترفع على الناس ، فحقده عليه بعض الأمراء وتكروا له ، وكثرت الأراجيف بوقوع فتنة ، وإعادة الملك الناصر حسن الى السلطنة والقبض على الأمير شيخون ، الا أن الأمير صرغتمش تبرأ مما رمى به ، وفي هذه الأثناء حدث بينه وبين الأمير طاز سوء نفس ولكن الأمير شيخون أصلح ذات بينهما (٢) .

وفي عاشر جمادى الآخرة سنة ٧٥٣ هـ خلع السلطان صالح بن محمد على الأمير شيخون العمري واستقر رأس نوبه كبير عوضا عن الأمير صرغتمش لأمر اقتضى ذلك (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فقد لعب صرغتمش دورا عظيما في حماية حلف الممالك الذي كان ينتمى اليه وعلى رأسه الأمير طاز وشيخون وغيرهما ضد الأمير ميغا أرس نائب حلب الذي كان يسعى للسلطنة ، وقام بحركة عصيان في بلاد

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢٦٧ حاشية ١ ، ٢ ،

المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٧٤ ، ١٢٥ .

(٢) ابن تغرى بردى : نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٦٨ .

(٣) نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٦٩ .

الشم ، وأراد غزو مصر للقضاء على غرمائه وأعدائه ، وحينئذ تقدم شيخون وطاز وارغون شاه الى دمشق بينما تأخر صرغتمش عنهم قليلا صحبة السلطان صالح في مدينة غزة لكي يدبر أمر العسكر للقتال ، ثم تبعهم وبصحبه السلطان الى دمشق ، فدخلها في يوم الخميس مستهل شهر رمضان سنة ٧٥٣ هـ وعندئذ ترك بيضا أرس مدينة دمشق الى حلب ، وتوالت الحوادث بعد ذلك وأدت الى هزيمته ففر لاجئا الى قراجا بن ذلفادر ، وانتهى به المصير قتيلا في قلعة حلب (١) .

وبعد ذلك عاد الأمير صرغتمش صحبة السلطان الى القاهرة في يوم الثلاثاء ٢٥ شوال سنة ٧٥٣ هـ (٢) .

وفي سنة ٧٥٤ هـ اشترك صرغتمش مع السلطان صالح وكبار أمراء المماليك في هدم القنطرة التي قامت بها بعض قبائل العربان في صعيد مصر وانتهت بهزيمة هؤلاء المفسدين والمصاة الذين نهبوا الغلال ، وقتلوا عمال الدولة (٣) .



ويظهر أن الأمير صرغتمش كان معتزا بنفسه ، غيدا وغنيفا ، فقد قبض على الوزير علم الدين بن ابراهيم الشهير بابن زنبور المصري القبطي لخطأ تافه وبسيط حدث عند تفرقة التشاريف على أمراء المماليك في القلعة ، كما قبض على حاشيته وأتباعه ، وبث بمماليكه الى دوره التي بالصناعة بمصر القديمة حيث أوقعوا الحوطة على حريمه ، وختموا بيوته وبيوت أصهاره ، وكتب صرغتمش الى ولاية الأعمال بالوجهين القبلي والبحري بالحوطة على ماله وزراعته وماله من النقود والدوايب وغيرها ، كما وضع يده على موجوده من الأموال ذهبها وفضة وتحفا وثيابا .

-
- (١) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ١ ص ١٩٦ ،
 ابن تغرى بردى : نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٧٦ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ .
 (٢) ابن تغرى بردى : نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٧٧ .
 (٣) ابن اياس : نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٠٠ .

وبعد ذلك طلع صرغتمش الى القلعة حيث طلب السلطان جميع الكتاب وعرضهم ، وعين موفق الدين هبة الله بن ابراهيم للوزارة ، وبدر الدين كاتب يلبغا لنظر الخاص ، وعين غيرهم - ممن يطمئن الأمير صرغتمش اليهم - في وظائف هامة ورئيسية مثل نظر الجيش ونظر الدولة وشد الدواوين ، وهنا أقبل الناس الى باب الأمير صرغتمش للسعي في الوظائف ، فولى كثيرا منهم في وظائف سنية (١) .

ولم يكتف صرغتمش بذلك بل أمر بضرب ابن زنبور وهو عريانا ، وضرب زوجته وابنه الصغير . وباع سائر مافي حواصله من أصناف ، هذا غير ما نقله من موجوده من ذهب وجواهر وأوان وقماش وبسط وملابس وكتب وأثاث الى حارة زويلة ليكون ذخيرة للسلطان (٢) ، وقد حدث كل ذلك لابن زنبور المصرى بالرغم من أنه كان في أوج عظمته وبعد أن جمع من الوظائف أخطرها مثل الوزارة ونظر الجيش والخاص ، حتى كثر حساده وسعوا فيه عند الأمير صرغتمش وأغروه به ، وأشاعوا عنه أنه باقى على دين النصرانية ، فما كان من صرغتمش الا أن فعل به ما فعل - اهانة وحبساً وتعذيباً - حتى أخرجه الى قوص في صعيد مصر طريدا حيث مات بها (٣) ، وهذا كله يوضح لنا مقدار ما كان يتمتع به صرغتمش من سلطة طاغية لا حد لها .



وفي سنة ٧٥٥ هـ وقعت الفتنة بين الأمير صرغتمش وطانز - رغم محاولات الصلح التى قام بها الأمير شيخون العمري - فقد كان كل منهما يتربص بصاحبه ويريد هلاكه ، وكان الطامعون في السلطة من أتباع الأمير طانز واخوته يعرضونه على صرغتمش ، واتفقوا معه على أن يخرج للصيد في البحيرة ، وركبوا على الأمير

(١) المسقلائي : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٠٦ ، ابن تغرى بردى : نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٧٨ - ٢٨٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٨٨٠ ، ويتضح لنا ان ثروة ابن زنبور هذه - وغيرها من ثروات أمراء الممالك - قد بلغت مبلغا هائلا مما يوجب التفات الباحثين في التاريخ الاجتماعى والاقتصادى لمصر ابان عصر المماليك بعامة .

(٣) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ص ٢٨١ - ٢٨٤ ، ٢٩٩ .

صرغتمش وقاتلوه ، ولكن شيخون أمر مماليكه السبعمائة بمساعدة صرغتمش ،
الذى هزمهم وقبض عليهم وعلى غيرهم من كبار الممالك من عصبة الأمير طاز ،
وهرب من بقى منهم بعد أن تفرقوا شذر مذر (١) .

ولما كان السلطان الملك الصالح بن محمد بن قلاوون يميل الى الأمير طاز ،
فقد طالب صرغتمش وأنصاره بخلعه من السلطنة المملوكية وإعادة الناصر حسن
اليها ، ولكن الأمير شيخون اعترض على ذلك ، فما زالوا به حتى وافق على
خلعه في يوم الاثنين ثانى شوال سنة ٧٥٥ هـ وحبس بالقلعة الى أن توفي في
ذى الحجة سنة ٧٦١ هـ .

ومهما يكن من أمر ، فقد كانت الغلبة في عهد السلطان صالح لكل من
الأمراء الكبار طاز وشيخون وصرغتمش ، فهم أهل الحل والعقد في المملكة
واليهم أمورها جميعا (٢) .

وهكذا اتفق الأمير صرغتمش وشيخون وأنصارهما على خلع الملك الصالح
وسلطنة الناصر حسن للمرة الثانية ، بعد أن اجتمعوا به وشرطوا عليه شروطا
قبلها ، فبايعوه بالسلطنة في حضرة الخليفة من آل عباس ، وقضاة القضاة الأربعة
في يوم الاثنين ثانى شوال سنة ٧٥٥ هـ ، وأخرج الأمير طاز ليتولى نيابة حلب
كذلك ، فسافر اليها في يوم الجمعة سادس شوال ، وبذلك خلا الجو للأمير
صرغتمش الذى قرره السلطان حسن في وظيفة أمير رأس نوبة النوب على عادته
كما يقول ابن اياس (٣) ، بينما صار الأمير شيخون اتابكا للعساكر المنصورة ،
ولكن المتية عاجلته بعد أن وثب عليه احد الممالك السلطانية وهو قطلوخوا
السليدار وضربه بالسيف - وهو في حضرة السلطان - ثلاث ضربات أودت
بحياته في أواخر سنة ٧٥٨ هـ (٤) .

واذا كان اختفاء الأمير شيخون من على مسرح السياسة المملوكية في أوائل
النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ، قد خفف عن السلطان حسن بن قلاوون

(١) نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٨٦ .

(٢) نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٨٧ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٠٢ .

(٤) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٣٠٢ - ٣٠٥ ، ٣٢٤ .

ثقل وطأته ، الا أن ذلك كان بمعناه انفراد الأمير صرغتمش بتدبير أمور الدولة المملوكية ، فقد عظم أمره جدا واستطال في الدولة ، فأخذ وأعطى وزادت حرمة ، وأثرى ثراء فاحشا وكثرت أمواله ، وعمل بعد ذلك على التخلص من منافسيه ، فأوحى الى السلطان حسن بالقبض على الأمير طاز نائب الملكة الحلبية في سنة ٧٥٨ هـ حيث حبس في الاسكندرية ، فقد كانت هناك عداوة قديمة بين الأمير صرغتمش وطاز كما سبق أن أشرنا (١) .

وهكذا أصبح الأمير صرغتمش هو الشخصية الأولى في المجتمع المملوكي الى جانب السلطان ، فقد رفعت اليه في سنة ٧٥٩ هـ قوائم من ديوان الاحباس فيها عدة حصص جارية على منافع الكنائس والإديرة ، وكان قدرها خمسة وعشرين ألف فدان ، فلما علم بذلك ذهب الى القلعة وشاور السلطان الذي رسم له بأن يخرج ذلك من أيدي النصارى ، وكتب بذلك مربعات جيشية ، وأنعم بها على الأمراء زيادة على اقطاعاتهم ، وبطل ما كان بيد النصارى من تلك الرزق الاحباسية ، كما عمل الأمير صرغتمش على ابطال العادات التي كان يقوم بها الناس في عيد الشهيد عند زيادة النيل وكذلك أمر بهدم احدى كنائسهم في شبرا (٢) .

وفي عهد السلطان حسن جمل النظر على البيمارستان المنصوري قلاوون للأمير صرغتمش (٣) ، الذي تولى وظيفة النظر كذلك على الجامع الطولوني (٤) .



وفي يوم الخميس ٢٥ رمضان سنة ٧٥٩ هـ قبض السلطان حسن على الأمير صرغتمش (٥) بعد أن تأمر عليه مع كل من الأمير طيغا الطويل وطيغا العمري

-
- (١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٠٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٣٠٧ : المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ ص ٢١٤ .
 (٢) ابن اياس : نفس المصدر السابق ج ١ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .
 (٣) ابن حجة المغربي : سكردان السلطان ص ٣٧ - ٣٨ .
 (٤) ابن دقماق : الانتصار بواسطة فقد الامصار ج ٤ ص ١٢٢ .
 (٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٣٠٨ بينما ذكر ابن اياس في بدائع الزهور ج ١ ص ٢٠٧ أن ذلك كان في يوم الاثنين ١١ رمضان سنة ٧٦١ هـ .

وغيرهما ، وأمسك معه كذلك جميعا من الأمراء الصغار والكبار من أصحاب النفوذ والسلطة من حلف صرغتمش ، ويقال ان سبب ذلك أن الأمير صرغتمش كان قد عظم أمره جدا بعد موت شيخون ، واستبد بأمور الدولة وتدير الملك ، بل يقال انه أشار بضرب فلوس جدد - ومن المعروف أن سك العملة من شارات الملك والسلطان - فقتل أمر ذلك على الناس وتضرر منه السوق والعامة وغلّت سائر البضائع (١) ، بل أشيع انه يريد الوثوب على السلطان نفسه ، والجلوس مكانه في دست السلطنة المملوكية ، فلما بلغ السلطان ذلك اتفق مع جماعة من الأمراء على التخلص منه ، فقبض عليه عند دخوله على السلطان كما قبضوا على أنصاره (٢) من امراء الطليخانات والعشرات ، وجسومهم بقلعة الجبل .

ولما بلغ ذلك ممالك صرغتمش وحواشي ، ركبوا بالسلاح وطلعوا الى الرميطة تحت القلعة - وكانوا نحوا من ثمانمائة مملوك على رأسهم أحمد بن حمص أخضر - حيث نزل اليهم الممالك السلطانية من طباق القلعة ورموهم بالنشاب وشتوا شملهم ، ثم نهبت دار الأمير صرغتمش عند بئر الوطاويط ، كما نهبت دكاكين الصلية الطولونية بواسطة الزعر والحرافيش ، وقبض على جماعة من الأعجام الصوفية بمدرسه لأنهم كانوا قد ساعدوا الطائفة الصرغتمشية ، كما قبض على شاهد ديوانه ضياء الدين بن الخطيب الذي أهين وعذب ، كما نهبت بسط المدرسة الصرغتمشية وقناديلها ، وحوائج الأعجام الصوفية وأمتعهم (٣) . ويظهر أن الأمير صرغتمش كان يمظم العجم ويؤثرهم ، وكانت رؤوسهم به مرتفعة على حد قول المستقلاني (٤) ، وكان يقرب منه علماء فارس ويجلهم اجلالا زائدا ، ويظهر أن عددا منهم قام بالتدريس في المدرسة الصرغتمشية .

(١) ابر اياس : نفس المصدر ج ١ ص ٢٠٦ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٠٨ ، ابن تغرى بردى : المنهل

الصافي (مخطوط) ج ٢ ص ٢١٤ ب .

(٣) انظر المصادر في الحاشية السابقة .

(٤) المستقلاني : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٠٧ .

وهكذا أزاح السلطان حسن بن قلاوون من أمامه ذلك الأمير القوي
صرغتمش ، وصار سلطان مصر بلا منازع ، وصفا له الوقت فأخذ وأعطى كما
يقول المؤرخ الشهير أبو المحاسن بن تغرى بردى ، ولكنه لم يلبث أن وقع
تحت وطأة الأمير يلغا العبرى (١) .

وقد أسرع السلطان بإخراج صرغتمش وأنصاره في القيود من القاهرة
وأرسلهم الى الاسكندرية حيث سجنوا بها (٢) ، ولكن الأمير صرغتمش كتب
الى السلطان حسن كتابا يتخضع اليه فيه وجاء في أوله :

قلبي يحدثنى بأفك متلفى روحى فداك عرفت أم لم تعرف (٣)
ولكن السلطان لم يلتفت الى كتابه ، ويقال انه أمر بخنقه فى ذى الحجة
سنة ٧٥٩ هـ ثم نقل جثمانه الى القاهرة حيث دفن فى قبة المدرسة التى بناها .



وبعد — فلقد كان الأمير صرغتمش عظيما فى نفسه ، وعظيما فى الدولة ، كما
كان فى سعة من المال شجاعا ، وكان له دراية بعلوم الفقه والعربية ، يكتب جيدا
ويقرا تجويدا ، ويحب العلماء وأرباب الفضائل ويكثر من الجلوس معهم .

وهو صاحب المدرسة الصرغتمشية بخط الصليبة الطولونية ، وكان له بر
وصدقات كثيرة ، ومآثر عديدة غيرها ، منها أنه عمر بركة المكرمة مضاءة بين
رباط الخليفة والبيمارستان المستنصرى ، وعمر كذلك عدة أماكن بالمسجد

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٣١١ ، ابن اباس : نفس
المصدر ج ١ ص ٢٠٨ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٣٠٨ — ٣١٠ ، المنهل
الصافى ج ٢ ص ٢١٤ ب ، ابن اباس : نفس المصدر ج ١ ص ٢٠٨ ، المسقلانى :
نفس المصدر ج ٢ ص ٢٠٧ .

Max Van Berchem : C. I. A. Egypte T. I, pp. 240-242.

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢٢٨ ، ديوان عمرو
بن الفارض ص ٨٨ (ط . الحسينية ١٢٥٢ هـ) .

الحرام بمكة ، وجدد المشعر الحرام بها (١) ، كما بنى فى سنة ٧٥٣ هـ زاوية الشريف مهدي بجوار زاوية الشيخ تقى الدين العجمى تحت قلعة الجبل (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن الأمير صرغتمش كان يشارك فى كثير من الفضائل ويتعصب لمذهب الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى رضى الله عنه ، حتى صارت مدرسته تنسب الى أبى حنيفة النعمان وفقهه (٣) .

ومن المعروف أن صرغتمش كان مليح الصورة جميلا ، ولكن كان فيه ظلم وعسف مع جبروت (٤) ، ومن أولاد صرغتمش الأمير صارم الدين ابراهيم الذى توفى فى سنة ٧٧٠ هـ فى عهد الاشرف شعبان بن حسين ، وكان من أمراء الطبليخانات . وكان له وجهة فى الدولة وفيه شجاعة واقدام ، وقد دفن فى مدرسة أبيه (٥) . ومن أحفاد الأمير صرغتمش الملك المظفر أبو السعادات أحمد بن المؤيد شيخ المحمودى ، فهو جده لأمه خوند سعادات (٦) .



وبعد - فالأمير صرغتمش هو صاحب هذه الوثيقة التى بين أيدينا ، والتى رأينا نشر نصين أساسين منها ، لما لهما من أهمية كبيرة للمشتغلين بالآثار وتاريخ الحضارة الاسلامية فى المصور الوسطى على سواء .

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصائق (مخطوط) ج ٢ ص ٢١٤ ب .

(٢) القرىزى : الخطط ج ٢ ص ٤٣٢ .

(٣) اللسقلانى : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٠٧ ، ابن حجلة المغربى : سكردان السلطان ص ٣٧ - ٣٨ ، وقد ورد فى الوثيقة ص ٢٦ ما يشير الى ذلك صراحة ، اذ شرط الواقف ان يكون الشيخ المدرس بها فقه الحنفية بالديار المصرية ، ومعه ثلاثة معيدين وستون طالبا والجميع على المذهب الحنفى .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٣٢٨ ، حاشية ٢ ، المنهل

الصائق ج ٢ ص ٢١٤ ب ، ابن ايباس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٠٨ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزهرة ج ١١ ص ١٠٦ .

(٦) ابن ايباس : نفس المصدر ج ٢ ص ١٠ .

أما النص الأول : فهو يغطي الصفحات الأولى من الوثيقة (ص ١ - ٧) وقد ورد فيه البروتوكول الافتتاحي من بسملة وتوابعها ، واسم الفاعل القانوني وهو المتصرف الواقف الأمير صرغتمش مع التعريف به (ألقابه ووظيفته) والدعاء له ، والاشهاد على نفسه بأنه تصرف بالوقف في حال صحته وسلامته بما هو جار في يده وملكه وتصرفه واختصاصه وحيازته^(١) .

وأهم من ذلك كله الوصف المعماري المفصل والدقيق للمدرسة الصرغتمشية^(٢) عند انشائها في سنة ٧٥٧ هـ ، وهذا النص - كما يتضح للقارئ - يفيض بالمصطلحات الفنية والمعمارية التي استعملت في مصر إبان ذلك العصر الاسلامي الزاهر .

والنص الثاني : يغطي الصفحات ٢٣ - ٤٢ وهو جزء أساسي من نص الوثيقة يوضح وظيفة هذه المدرسة المملوكية ، وما بها من ايوانات للدروس والصلاة ، وبيوت للسكنى ، وجاء في هذا النص ذكر القسقية والميضاء ، والمدفن والمأذنة ومكتب السبيل^(٣) .

وتحدثنا الوثيقة في هذا الجزء كذلك عن ايجار الأعيان المحبوسة ومدة ذلك ، والمصارف المختلفة لربع الأوقاف ، ومراتب أرباب الوظائف الكبرى والصغرى وغيرهم من القائمين بالأعمال في هذه المؤسسة الدينية التعليمية ، ومنهم المدرس والميدين والطلبة،والامام وشيخ الحديث وطلبته،وخازن الكتب،والأيتام ومؤدبهم وعرفهم ، والناظر على الوقف والشاهد والكتاب ، والقراء والمؤذنين ، والقرائين والبوابين وغيرهم ، هذا بالإضافة الى ثمن البخور والزيت ، والقناديل والحصر ، والفاكهة والحلوى في عيد القطر ، والأضاحي في عيد النحر^(٤) .



(١) الوثيقة ص ١

(٢) الوثيقة ص ٢ - ٧ .

(٣) الوثيقة ص ٢٣ - ٢٥ .

(٤) الوثيقة ص ٢٦ - ٣٧ .

فهرست الوثيقة :

مكان الوثيقة : الأرشيف التاريخي بوزارة الأوقاف بالقاهرة .

رقم الوثيقة : ٣١٩٥

شكل الوثيقة : مجلد Condex Form

أبعاد الجلد : ٢٨ × ١٨ سم

أبعاد الصفحة : ٢٧ × ١٨ سم

مادة الكتابة : ورق

عدد الصفحات : ٥١ صفحة

عدد السطور في الصفحة : ١٥ سطرا

نوع التصرف : خاص

موضوع التصرف : وقف

تاريخ التصرف : ٢٧ رمضان ٧٥٧ هـ - ص ٤٢

المتصرف فيه : عقارات - مباني وأراضي بمصر والشام وهي :

١ - ربع وحوانيت وبئر وساقية بجوار المدرسة الصرغتمشية من الجهة الشرقية - ص ٧ - ٨ .

٢ - أراضي بناحية منية حلغا بخط بحر أبي المنجا من ضواحي القاهرة (٥٢٩ فدان) - ص ٩ .

٣ - أراض بناحية قلوب (٢٦٨ فدان) - ص ١٢ - ١٣ .

٤ - أراض بقرية تل حديا من الأعمال الحلية (٦٠ فدان اسلامية) ص ١٣ - ١٤ .

٥ - أراض بناحية التحريرية من الأعمال الفرية (٦٠ فدان وجبتان بالقصة . السنداوية) - ص ١٧ .

٦ - ثمانية أسهم شائعة من القرية المعروفة بداديع من الأعمال
الطبية - ص ١٨ - ١٩ •

المصرف : الواقف الأمير سيف الدين صرغتمش بن عبد الله الناصري راس
الأمراء الجمدارية الملكية الناصرية - ص ١ •
التوثيقات الشرعية : اثني عشرة وثيقا أمام القضاة من ذوى المذاهب
الأربعة في تواريخ مختلفة وهى :

١ - أسجال حكى فى ٥ شوال سنة ٧٥٧ هـ أمام القاضى الموثق
جمال الدين أبى محمد عبد الله بن علاء الدين على بن فخر الدين أبى عمرو
عثمانى الماردىنى الحنفى الناظر فى الحكم العزيز بالديار المصرية - ص ٤٥ •

٢ - أسجال تنفيذى فى يوم الأربعاء ١٧ صفر ٧٥٨ هـ امام القاضى الموثق
عز الدين أبو عمرو عبد العزيز بن بدر الدين محمد بن برهان الدين
ابراهيم بن جماعة الكنانى الشافعى - ص ٤٥ •

٣ - أسجال تنفيذى فى سلخ صفر سنة ٧٥٨ هـ امام القاضى الموثق
تاج الدين أبو عبد الله محمد السعدى المالكى - ص ٤٥ •

٤ - أسجال تنفيذى فى ٤ ربيع الأول سنة ٧٥٨ هـ امام القاضى الموثق
موفق الدين المقدمى الحنبلى - ص ٤٥ •

٥ - أسجال تنفيذى فى ٢٩ صفر ٧٨٥ هـ امام القاضى الموثق أبى عبد الله
محمد الخزرجى الأنصارى الشافعى - ص ٤٥ •

٦ - أسجال تنفيذى فى يوم الثلاثاء ٩ شوال ٨٠٨ هـ امام القاضى الموثق
جمال الدين الزيرى النفيسى المالكى - ص ٤٥ - ٤٦ •

٧ - أسجال تنفيذى فى ٩ جمادى الآخرة ٨٢٥ هـ امام القاضى الموثق
شمس الدين الطائى البساطى المالكى - ص ٤٦ •

٨ - أسجل تنفيذى في يوم الأحد ٩ جمادى الآخرة ٨٢٥ هـ امام القاضى الموثق أبى الحسن على المغلى الحنبلى - ص ٤٦ .

٩ - أسجل تنفيذى في يوم انخيس ١٣ جمادى الآخرة ٨٢٥ هـ امام القاضى الموثق ولى الدين أبى زرعة أحمد بن أبى الفضل عبد الرحيم بن أبى عبد الله الحسين ابن العراقى الشافعى - ص ٤٦ .

١٠ - أسجل تنفيذى في يوم الأربعاء ٣ محرم ٨٣٠ هـ امام القاضى الموثق أبى الفضل أحمد بن نور الدين أبى الحسن على المسقلانى الشافعى - ص ٤٦ .

١١ - أسجل تنفيذى في يوم الخيس ٤ محرم ٨٤٠ هـ امام القاضى الموثق أبى العباس أحمد البغدادى الحنبلى - ص ٤٦ ، ٤٧ .

١٢ - أسجل تنفيذى في يوم السبت ٦ محرم ٨٤٠ هـ امام قاضى القضاة بدر الدين أبى محمد محمود العينى الحنفى - ص ٤٧ .



وهذه الوثيقة صورة أو نسخة من وثيقة وقف الأمير صرغتمش ، وهى على شكل كتاب مجلد codex Form عدد صفحاته احدى وخمسون صفحة ، وهى مكتوبة بالحبر الأسود على ورق يضرب لونه الى الاصفرار ، ونجد على الهامش العلوى لكل صفحة خاتم « وزارة الأوقاف - الدفترخانة » وهو خاتم مستدير بجوار الأرقام المسلسلة لصفحات الوثيقة . كما يوجد على الصفحات الزوجية الأرقام (من ٢ - ٤٨) خاتم صغير يضاوى الشكل للقاضى الذى نسخت هذه الصورة فى عهده وكذلك على الصفحتين رقم ٤٧ ، ٤٩ - وهو خاتم القاضى الموثق الشيخ الامام العالم العلامة العمدة شرف الدين أبو زكريا يحيى بن يونس القرافى المالكى خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية وقاضى محكمة السادة المالكية بالمحكمة الصالحية النجمية بالقاهرة المحروسة^(١) .

(١) الوثيقة من ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ .

والكتابة على الختم محفورة فهي غائرة ، وقد جاء فيها اسم القاضى تحت عبارة دعائية فى سطرين : « الوائق بالملك الكافى »

« يحيى بن يونس القرافى »

ومن المعروف أن القاضى يحيى القرافى قد شغل وظيفة نائب القاضى التركى مولانا عبد الله بن عبد الله الشهير ببريز الرومى الحنفى (١) الناظر فى الأحكام الشرعية بالديار المصرية ، وكذلك قاضى القضاة مولانا أفندى محمد شاه (٢) بمحكمة الصالحة النجمية .

ويظهر أن الشيخ القرافى المالكى قد تصدر لوظيفة التوثيق والحكم بالنيابة عن القاضى العثمانى فى محكمة السادة المالكية بأحد إيوانات المدرسة الصالحة النجمية بالقاهرة مدة طويلة فى العهد العثمانى ، فقد كان يشغلها على الأقل منذ ١٧ جمادى الأولى سنة ٩٥٤ هـ (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فهو من أسرة فقهية شروطية ، شغل بعض أبنائها وظيفة العدالة ونيابة الحكم أو القضاء فى أواخر عصر المماليك الجراكسة وأوائل العصر العثمانى فى مصر .



والراجع عندنا أن هذه الصورة قد نقلت من الوثيقة الاصلية — التى لم نثر عليها فى محفوظات القاهرة والمؤرخة فى ٢٧ رمضان ٧٥٧ هـ — التى كانت على هيئة ملف (Roll Form) — فى ٢٤ رجب سنة ٩٧٤ هـ فى عهد القاضى

(١) الوثيقة ص ٤٧ — ٤٨ — انظر وثيقة الأمير أحمد بن يحيى بن يوسف الشهير بالحمزاوى من اعيان الأمراء المتفرقة بالديار المصرية ، رقم ٥٦٦ ضمن مجموعة الوثائق المكتشفة أخيراً بأرشيف وزارة الأوقاف ، وثيقة السيفى جانى بك نائب جده رقم ١٢٢ مسلسل ٢٠ محفظة بأرشيف محكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة .

(٢) الوثيقة ص ٥٠ .

(٣) وثيقة السلطان خليل بن قلاوون محكمة ٣١٦ محفظة ٤٧ سطر ٩ — ١٠ .

يحيى بن يونس القرافي المالكي ومن ثم فإن هذه الصورة صحيحة (copie authentique) ومطابقة للنص الاصلى ، بدليل ما ورد عليها من علامات الاثبات المختلفة من أختام وتوقيعات بخط القاضى الموثق وذلك بعد أن ثبت لديه ما تضمنه الأصل المنقول منه ذلك المثال أو تلك الصورة بطريق السماع والخبر الشائع المتواتر ، وكتب بأدنى باطن الاصل المذكور بعد العلامة والختم الكريمين ما صورته أو نصه :

« الحمد لله وحده جرى ذلك

كتبه يحيى بن يونس القرافي المالكي

قللت خطي الى هذه النسخة

في أواخر الحجة سنة ٩٧٤ هـ » (١)

ومهما يكن من أمر ، فقد ثبت لدى القاضى أبو زكريا بن يونس القرافي المالكي — وبإذن قاضى القضاة مولانا يرويز الرومى الحنفى الناظر فى الأحكام الشرعية بالديار المصرية — وذلك بعد طلب من الزينى أبو البقا المحضر بالباب العالى وبشهادة كل من الشهود المدول : (٢)

١ — زين الدين محمود بن محى الدين عبد القادر بن شمس الدين محمد الديسلى

٢ — شرف الدين يحيى بن شهاب الدين أحمد بن نور الدين على السعدى الحنفى .

٣ — شرف الدين يحيى بن على بن عبد الله .

(١) الوثيقة ص ٤٧ ، ٤٩ — أى ان القاضى الموثق الشيخ القرافي المالكي قد وضع تأشيرته هذه بعد حوالى خمسة شهور تقريبا من صدور الامر أو الاذن بنسخ الوثيقة .

(٢) الوثيقة ص ٤٨ .

٤ - بدر الدين حسن بن شهاب الدين أحمد بن بدر الدين حسن النحرى

الحنفى

ثبت لدى الشيخ القرافى المالكى ما يلى :

أولا : جريان الجهات الموقوفة والمعينة بكتاب الوقف فى وقف صرغتمش وصرفها فيما عين بكتاب الوقف المذكور بالسمع القاشى بالاستفاضة والخبر الشائع والنقل الصحيح المتواتر من مدة تزيد على عشرين سنة ، وأن الجهات المذكورة لم تزل محوزة بحوز الأعباس محترمة بحرمتها . واضعين الأيدى لجهة الوقف على ذلك (١) .

ولما ثبت لديه ذلك ثبوتا صحيحا شرعيا ، حكم بموجب ذلك وأشهد على نفسه بذلك فى ٢٤ ذى القعدة سنة ٩٦٤ هـ (٢) .

ثانيا : ما نسب لقاضى القضاة مولانا أفندى محمد شاه الناظر سابقا فى الأحكام الشرعية بالديار المصرية من الاذن الصادر منه فى ١٧ محرم سنة ٩٧٤ هـ فى كتابة هذه الصورة أو النسخة أو المثال ومقابلته على الأصل المنقول منه بشهادة شهيدة ثبوتا صحيحا شرعيا تاما معتبرا مرضيا وأشهد على نفسه بذلك فى ٢٤ رجب سنة ٩٧٤ هـ (٣) .

* * *

والوثيقة بحالة جيدة وهى مكتوبة بخط واضح مقروء ، ونجد فى كل صفحة من صفحاتها خمسة عشر سطرا ، وتراوح عدد الكلمات فى كل سطر ما بين ١٠ - ١٢ كلمة ، كما نجد بنهاية الصفحات الفردية الأرقام من أسفلها روابط النص (catch words) ، كما يوجد على الهامشين الأيمن والأيسر لبعض

(١) الوثيقة ص ٤٩ .

(٢) الوثيقة ص ٤٩ .

(٣) الوثيقة ص ٥٠ .

صفحات الوثيقة عناوين موجزة أو رموز موضوعات لها هو وارد في المتن
تفصيلاً (١) .

كما يوجد على صفحة العنوان لهذه الوثيقة النص التالي :
« هذه صورة كتاب الوقف المنسوب الى الجنب الأمير الكبير
صاحب الخيرات والمبرات صرغتمش الناصري تقبل الله أعماله
نسخت عن أصلها بمعرفة الفقير الى رحمة الملك الأعظم محمد بن صرم (٢)
المولى بالقاهرة المعزية المحمية » (٣) .

وقد أثبتت بعد ذلك في أوائل الثلاثينيات من هذا القرن العبارة التالية :
« هذه الحجة اشتريت من السيد محمد أمين الخانجي المكتبي ببلغ
٣٠٠ ثلثمائة قرش » ١٩٣٠/١١/٢٤ .

ونحن لا نعرف كيف وصلت هذه الوثيقة الهامة الى هذا المكتبي ، ولكن
الشيء الذي يذكر بالفضل لوزارة الأوقاف وتشكر عليه ، هو حرصها على
اقتناء الوثيقة عن طريق الشراء وضماها الى مجموعة وثائقها التاريخية النادرة
والقيمة في آن واحد .

(١) الوثيقة ص ٧ ، ٩ ، ١٢ - ١٣ ، ١٧ ، ١٨ - ٢٦ ، ٣٧ .
(٢) نجد بعد هذه العبارة خاتم يبيض الشكل مكتوب في مركزه « عز من قنع
وذل من طمع » .

من سلمين حجرا^(١٤) بالطريق يدخل من الباب المذكور إلى دهليز مفروش الأرض بالرخام الملون^(١٥) وهو معقود^(١٥) بالحجر بصدرة مصطبة مفروشه بالبلاط وواجهتها بالرخام وبالدهليز المذكور أربعة ابواب (ختم) أحدها معقود^(١٦) على يمينه الداخل عليه زوج ابواب يدخل منه إلى سلم لطيف يصعد من عليه إلى مكان برسم مكتب السبيل به خزانة وشباك مطل على الطريق وهو معقود بالحجر والباب الثاني يقابله يغلق عليه زوج ابواب يدخل منه إلى بيت معقود والباب الثالث عليه زوج ابواب يدخل منه إلى مجاز به سلم يصعد من عليه إلى ثلاث بيوت يحوى كل منها مرافق وحقوقا وبالمجاز المذكور باب معقود يغلق عليه فردة باب يدخل منه (ص ٣) إلى الميضاه الاتي ذكرها فيه والباب الرابع معقود بغير باب عليه يدخل منه إلى سلم لطيف مرخم يصعد من عليه إلى مجاز به سلم مبنى بالحجر يصعد من عليه إلى أربع بيوت يغلق على كل منها زوج أبواب مسقفة نقيا ويصعد من السلم المذكور إلى خمس بيوت على كل منها زوج أبواب مسقفة نقيا وجميع ذلك مفروش الأرض بالبلاط الكدان مسبل الجدر^(١٧) بالياض ثم يتوصل من السلم المذكور إلى السطح العالي على ذلك وبه مئذنة^(١٨) مبنية بالحجر النحت ثم يتوصل من المجاز المذكور إلى باب عليه زوج أبواب يدخل منه إلى صحن^(١٩) المكان المذكور المشتمل على أربع اواوين متقابلات أحدها وهو القبلى^(٢٠) بصدرة محراب^(٢١) مرخم مذهب بكل من جانبيه عمود رخام يعلوه صدر مرخم مذهب ويعلو الايوان المذكور قبه^(٢٢) مدهونه مذهب وبه سدلتان^(٢٣) يمينه ويسرة مسقفتان مصوقتان^(٢٤) بالذهب وبه رخام قآيم إلى الانبندارية^(٢٥) بواجهته قوصره^(٢٦) معقوده والايوان الثاني يقابله بسقف بسط مدهون بسر اويلات^(٢٧) مدهونه مذهب وبه رخام قآيم إلى الانبندارية وبه شباك مطل على الطريق المسلوك وبه باب عليه زوج أبواب يدخل منه إلى مكان مفروش الأرض بالرخام الملون^(٢٨) (ص ٤) به رخام قآيم إلى الانبندارية يعلوه قبه^(٢٩) مبنية بالطوب والجبس وبالجهة البحرية منه مدفن^(٣٠) وبه شبائيك مطلات على الطريق المسلوك وبالقبة المذكورة طاقات زجاج والايوان الثالث بالجهة الشرقية وهو بسقف شامى^(٣١) مدهون به رخام قآيم إلى الانبندارية والايوان الغربى كذلك

والاواوين المذكورة مفروشة الأرض بالبلاط الكندان بواجهتها اتروفيات (٢٢) وكراسى رخام وبصحن المكان المذكور فسقية (٢٣) من الحجر المطبق برسم خزن الماء يتوصل الماء إليها من البير والساقية الآتى ذكرهما فيه وبصحن المكان المذكور ستة عشر بابا يغلِق على كل منها زوج ابواب خشب يجوز أحدها باب (ختم) الدخول والباب الثانى يحاور الايوان الشرقى من الجهة القبلىة عليه زوج أبواب يدخل منه الى مجاز بهيت أزيار كبير يعرف بالمزلة (٢٤) وبالمجاز المذكور باب عليه فردة باب يدخل منه الى بيت به شباك (٢٥) مطل على الدهليز الأول المذكور فيه وهو معقود ثم يتوصل من المجاز المذكور الى بيت كبير مسقف نقيا يعلوه شباك والباب الثالث يحاور الباب الثانى المذكور فيه من الجهة القبلىة عليه زوج أبواب يدخل منه الى بيت يعرف بمخزاة الكتب (٢٦) والباب الرابع يحاور الباب الثالث المذكور فيه (ص ٥) من الجهة القبلىة يدخل منه الى مجاز به باب عليه فردة باب يدخل منه الى بيت لطيف وبه باب آخر عليه فردة باب يدخل منه الى بيت يعرف بمخاض القناديل (٢٧) وبالمجاز المذكور سلم يصعد من عليه الى ثمانية وعشرين بيتا مسقفة نقيا يغلِق على كل منها باب وذات المرحاضين والمرافق والحقوق وبالمجاز المذكور باب آخر عليه زوج أبواب يدخل منه الى بيت مسقف نقيا والباب الخامس يحاور الباب الرابع المذكور وهو بلمص كتف الايوان القبلى المذكور يغلِق عليه زوج أبواب يعرف بسكن الخادم وثلاثة أبواب يدخل من كل منها الى بيت معقود على كل منها زوج أبواب وأما الثمانية بيوت الباقية فانها فى الجهة الغربية من المكان المذكور يغلِق على كل منها زوج أبواب فأحدها يحاور كتف الايوان البحرى من الجهة الغربية يدخل منه الى بيت يعرف بسكن الخادم أيضا والثانى يجاوره يدخل منه الى دهليز به بيت معقود عليه زوج أبواب وبالدهليز المذكور سلم يصعد من عليه الى أربع بيوت مسقفة نقيا على كل منها باب ثم يتوصل من السلم المذكور الى سبع بيوت مطلات على صحن المكان المذكور وعلى الطريق على كل منها باب ومنها بابان يدخل من كل منهما الى بيت بشباك مطل على الطريق المتوصل منها الى الجامع (ص ٦) الطولونى ومنها بابان يدخل من كل منهما الى بيت معقود عليه زوج أبواب والبابان الباقيان أحدهما على كتف الايوان القبلى من الجهة الغربية عليه زوج أبواب يدخل منه الى

بيت معقود والباب الآخر عليه زوج أبواب يدخل منه إلى مجاز به ثلاث
بيوت على كل منها فردة باب وبالمجاز المذكور سلم يصعد من عليه إلى ستة عشر
بيتا مسقفة تقيا على كل منها باب وذات الاسطحة العاليه على ذلك والمرافق
والحقوق والباب الثاني من بابى هذا المكان معقود عليه زوج أبواب يدخل منه إلى
سلم يصعد من عليه إلى مجاز معقود مفروش الأرض بالبلاط الكدان يتوصل منه
إلى الميضاه المذكورة المشتملة على عشرين بيتا بكل منها حوض (ختم) برسم الماء
على كل منها باب منها اثنان محمان وبوسطها فسقية من الحجر المطبق يتوصل الماء
إليها من البئر والساقية الآتى ذكرهما فيه وذات المرافق والحقوق ويحيط بذلك كله
حلود أربعة الحلد القبلى ينتهى إلى جدار الجامع الطولونى والبحرى إلى الطريق
المسلوك منها إلى الكبش والصليبه وغير ذلك وفيه البابان والشبايك والطاقت
والحد الشرقى ينتهى إلى الربع والحوانيت (ص ٧) الآتى ذكرهما فيه وإلى
المسجد (٣٨) المستجد الانشأ الذى هناك والحد الغربى ينتهى إلى الطريق المساوك
منها إلى سلام باب الجامع الطولونى وفيه شبايك من حقوق ذلك ومن ذلك جميع
الربع والحوانيت وما هو من حقوق ذلك والبئر والساقية وما هو من حقوقها
الكامل ذلك كله أرضا وبتاً وذلك بالخط المذكور فيه بجوار المدرسة المذكورة
من الجهة الشرقية يشتمل ذلك على ثمان حوانيت شارعها بالطريق المساوك مبنية
بالحجر الفص النحيت (٣٩) كل منها بمسطبه (٤٠) وداخل معقوده بالطوب والجبس
عليها دراريب (٤١)

.
.
.

النص الثاني

ص (٢٣)

وقفا صحيحا شرعيا وجبنا صريحا دأبنا مرعيا لا يباع أصل ذلك ولا يوهب ولا يرهن ولا يملك ولا يورث ولا يستبدل به ولا ينقل به ولا يحل عقد من عقودنا على أصوله محفوظاً على شروطه لا ينتقل إلى ملك أحد من سائر الناس أجمعين كلما مر عليه زمن أكده وكلما أتى عليه أوان سدده وأطلده فهو مدفوع عنه بقوة الله محرماً بمحرمات الله تعالى مبتغى فيه مرضات الله يستمر دأبنا إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين على وجوه البر والقربات ومصارف الأجر والثوبات على ما يأتي ذكره مبينا وشرحه مفصلاً معينا فأما المكان المبدأ بذكره الذي بخط الكبش المشتمل على الأواوين الأربعة والبيوت وما هو من حقوق ذلك فان الواقف المسمى فيه أحسن الله إليه وقف ذلك مدرسة برسم الأشتغال بالعلم الشريف ونشره وإفادته وإحياء ذكره وتعليمه وتفهمه وتقام فيه الصلوات وتصلى فيه الجماعات (ص ٢٤) ويقرأ فيها كتاب الله الكريم ويذكر فيها اسمه العظيم ويتلى فيها حديث النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم وأذن للمسلمين في الدخول إليها والصلاة فيها (٤٢) وأما البيوت السفلية والعلوية التي بالمدرسة المذكورة فان الواقف المسمى أحسن الله إليه وقف ذلك برسم سكن الفقهاء وأرباب الوظائف بالمدرسة المذكورة ويجعل في بعض ذلك ما يكون بالمدرسة المذكورة حاصلاً من

القناديل والزيت والحصص والبسط وغير ذلك كل ذلك على الوجه
 الذى يراه الناظر فى ذلك . وأما الفسقية التى بصحن المدرسة
 المذكورة فوقها نلزن المآ الواصل إليها من البئر والساقية
 المذكورتين اعلاه لينتفع بذلك أرباب الوظائف بالمدرسة المذكورة
 من الفقهاء وغيرهم ومن يرد إليها فى وضوءهم وانتفاع مثلهم بمثل
 ذلك على العادة فى مثله وأما المدفن (ختم) الذى بالقبة المذكورة
 فانه أرسده لدفنه خاصة (٤٣) ودفن من ينتقل إلى الله تعالى من
 أولاده وذريته وعقبه ونسله يجرى ذلك على الدوام والاستمرار .
 وأما المدينة المذكورة فوقها لان يعلن فيها بالأذان والتسبيح
 والتذكار على العادة فى مثل ذلك . وأما المكان الذى بدلهيز هذه
 المدرسة المذكورة الذى ذكر أنه برسم مكتب السيل (٤٤) فان
 الواقف المسمى أحسن الله تعالى إليه وقف ذلك (ص ٢٥) على
 ان يستقر فيه الايتام ومؤدبهم للقرأة على الوجه الآتى ذكره فيه
 وأما الميضاة المذكورة فوقها لأن ينتفع بها أرباب الوظائف
 بالمدرسة المذكورة من الفقهاء وغيرهم والواردون إليها انتفاع مثلهم
 بمثل ذلك على العادة فى مثله . وأما البئر والساقية فانه وقف ذلك
 على أن يجرى المآ منه إلى الفسقيتين المذكورتين وما هو من حقوق
 ذلك من حوض وغيره على العادة فى مثل ذلك . وشرط الواقف
 المسمى أحسن الله إليه أن يفرش من داخل باب صحن المدرسة
 المذكورة حصير (٤٥) لينعج الداخل إليها من المشى على الرخام
 بنعله وأن لا يمكن أحد من الاستنجاء حول الفسقية المذكورة
 ولا من الوضوء داخل الفسقية المذكورة بل يغترف منها ويتوضأ
 خارجها ولا يلقى فيها شيء من المستقلرات مثل البصاق وغيره
 لتكون سالمة من الادناس محفوظة من الاقدار والأرجاس باقية
 على حكم النظافة والتطهير سالمة من شوايب التكدير . وأما باقى
 الموقوف المذكور فيه فان الواقف المذكور أدام الله نعمته وقف
 ذلك على الوجه الذى يشرح فيه وهو أن الناظر (٤٦) فى هذا

الوقف والمتولى عليه يؤجر^(٤٧) ذلك وما شا منه لمدة ثلاث سنين كرامل فما دونها باجرة المثل (ص ٢٦) فافوقها ولا يزيد على المدة المذكورة ولا يدخل عقدا على عقد حتى تنقضى مدة العقد الاول ويستغل ربع ذلك بوجه الاستغلال الشرعى ويبدأ من ذلك بعمارة ما يحتاج إلى عمارته^(٤٨) بالموقوف المذكور فيه وإصلاحه وما فيه دوام منفعته وما فضل بعد ذلك يصرف فيما يذكر فيه وهو أن الناظر في هذا الوقف يرتب شخصا من الفقهاء الحنفية تكون فيه أهلية الاشتغال بمذهبه ويكون افقه الحنفية بالديار المصرية على أنه (ختم) يكون مدرسا^(٤٩) بالمدرسة المذكورة ويرتب معه من الفقهاء الحنفية ثلاث معيدين^(٥٠) يكون في كل منهم أهلية الاشتغال بمذهبه ويرتب الناظر معهم من الطلبة الحنفية القربا ستن نفسا على أن المدرس المذكور يجلس بالايوان القبلى المذكور والمعيذون والطلبة حوله ويقرعون ما تيسر لهم قرآته من القرآن العظيم من ربه^(٥١) شريفه بطاف عليهم بأجزائها ويدعون عقيب ذلك للواقف المذكور ولزريته ولجميع المسلمين ثم يقرأ المعيدون المذكورون على المدرس المذكور ثلاث دروس من الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة رضى الله تعالى عنه فكل معيد يقرأ درسا واحدا من كتاب يعينه له المدرس المذكور في الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة رضى الله تعالى عنه (ص ٢٧) فكل معيد يقرأ درسا واحدا يقرأ المعيدون المذكورون مما يعينه لهم المدرس المذكور واحدا بعد واحد والطلبة يسمعون ذلك ويبحث من فيه أهلية البحث من الطلبة المذكورين وبين المدرس المذكور للطلبة المذكورين ما يشكل عليهم من ذلك من كشف غامض أو حل مشكل وكل واحد من المعيدين المذكورين يحضر قبل المدرس أو يتأخر بعده ويشغل من يحضر اليه من الطلبة المذكورين في العلوم الشرعية خاصة ويبين لهم ما يشكل عليهم فيما يشتغلون فيه عليه من العلوم الشرعية خاصة من حل مشكل

المصارف
انشيخ المدرس
بالمدرسة المذكورة
ذكر المعيدين والطلبة

وكشف غامض وما عسر عليهم فهمه ويحتمل على الاشتغال ويسلك معهم مسلك الافادة والتعليم ويكون حضورهم للدرس في أربعة أيام^(٥٢) وهى السبت والأحد والثلاثا والاربعاء من كل أسبوع ووقت جلوسهم في كل يوم من الايام المذكورة فيما بين طلوع الشمس إلى الزوال ويلتزمون الدرس في الايام المذكورة على الدوام والاستمرار خلا شهر رجب وشهر شعبان وشهر رمضان والعشرين من شوال من كل سنة فانهم يطلون^(٥٣) حضور الدرس في هذه المدة ثم يشرعون في حضور الدرس ويحضرُونَ في الحادى والعشرين من شوال إلى سلخ ذى القعدة ويطلون الدرس من مستهل ذى الحجة إلى آخر الخامس عشر منه ثم يحضرون للدرس (٢٨) في سادس عشر ذى الحجة ويطلون يوم تاسوعاً ويوم عاشوراً من كل سنة يجرى ذلك كذلك في كل سنة ومن انقطع منهم ثلاثة أيام من كل أسبوع بغير عذر قطع وتزل مكانه . وشرط الواقف المذكور أن الطلبة المذكورين يبيتون^(٥٤) بالمدرسة المذكورة ويفسح لسته أنفس منهم (يعينهم المدرس المذكور) * في المبيت خارج المدرسة المذكورة ومتى شغرت وظيفة أحد من الستة المذكورين رتب الناظر عوضه في الوظيفة المذكورة ويشترط عليه المبيت في المدرسة المذكورة يجرى ذلك في حق الستة المذكورين فيه ومن قصد من أرباب الوظائف بالمدرسة المذكورة السفر إلى الحجاز^(٥٥) الشريف فان كان سفره لاداء حجه الاسلام فيمكن من ذلك ويجرى عليه معلومه الى حين عوده فيستقر في وظيفته على عادته (ختم) وان كان حج تطوع فيمكن من ذلك ويقطع معلومه ولا يصرف اليه شيء منه فاذا حضر استقر في وظيفته وأجرى عليه معلومه على عادته يجرى ذلك كذلك . ويصرف^(٥٦) الى المدرس المذكور عند قيامه بالوظيفة المذكورة في كل شهر ثلثايه درهم نقره^(٥٧)

أيام المساحة
المشروطة

شرط الواقف
فيمن اراد السفر
الى الحجاز من
أرباب الوظائف

معلوم المدرس

✽ ما بين الحاصرتين سقطت من الناسخ أوردها على الهامش وبمدها لفظ « صح » - انظر لوحات الوثائق - اللوحة رقم ٧

ومن الزيت الطيب^(٥٨) خمسة أرتال ومن الصابون خمسة أرتال ويصرف له أيضا في شهر رمضان من كل سنة خمسة أرتال سكر كل ذلك بالرطل المصري^(٥٩) . ويصرف (ص ٢٩) لكل معبد من المعبد المذكورين في كل شهر سبعون درهما نقره ورتلان ونصف رطل زيت طيب ورتلان صابون وفي شهر رمضان من كل سنة ثلاثة أرتال سكر . ويصرف لكل واحد من الطلبة المذكورين في كل شهر خمسة وخمسون درهما نقره وزيت طيب رتلان ونصف وصابون رتلان وفي شهر رمضان من كل سنة رتلان سكر . ويكون من جملة الطلبة المذكورين شخصان نقيين عليهم يضبطان عليهم الفية ويحضران الربعة الشريفة ويفرقانها ويبعدانها الى مكانها بعد فراغ القراءة منها يصرف لكل واحد منهما خمسة دراهم نقره في كل شهر ليكمل لكل منهما بذلك ستون درهما نقره في كل شهر . ويرتب الناظر في هذا الوقف اماما^(٦٠) حنفى المذهب من أهل الخير والصلاح يؤم بالمسلمين بالمدرسة المذكورة في الصلوات الخمس وقت صلاة الحنفية ويصلى بهم قيام شهر رمضان^(٦١) والصلوات المشروع لها الجماعة يصرف اليه في كل شهر سبعون درهما نقره . ويرتب الناظر في هذا الوقف شخصا من المحدثين^(٦٢) يكون فيه اهلية الاشتغال بالحديث النبوى ويرتب معه خمسة عشر نفسا من المشتغلين بالحديث النبوى على أن الشيخ المذكور ينتصب بالمدرسة (ص ٣٠) المذكورة في الأيام المذكورة أعلاه وبشغل الطلبة المذكورين بالحديث النبوى ويبين لهم ما يحتاجون إلى بيانه في ذلك على العادة ويدعون عقب فراغهم للواقف المذكور ولزويته ولجميع المسلمين ويكون جلوسهم فيما بين صلاة الظهر التي يصلوها بالجامع الطولونى^(٦٣) وإلى صلاة العصر . يصرف إلى الشيخ المذكور (في كل شهر من النقرة ما به درهم واحدة نصفها خمسون درهما نقره ولكل واحد من الطلبة المذكورين) * في

معلوم المدينين

معاليم الطلبة

نقيبى الدوس
من جملة الطلبة

الامام
بالمدرسة المذكورة

شيخ الحديث
الشريف

* ما بين الحاصرتين سقطة من الناسخ اوردها على الهامش وبعدها لفظ « صح » - انظر لوحات الوثائق - اللوحة رقم ٨

السادة القرا
بالقبة داخل
المدرسة

كل شهر خمسة وعشرون درهما نقره . ويرتب الناظر في هذا الوقف من المقرين (٦٤) الحافظين لكتاب الله تعالى ثمانية وأربعين نفسا على أنهم يقرؤون بالقبة التي بها المدفن المذكور أعلاه ان دفن الواقف المذكور بها أو لم يدفن (٦٥) في كل يوم وليلة ما يذكر فيه فنهـم ثمانية وعشرون نفسا يقرؤون القرآن العظيم (ختم) من بعد صلاة المغرب إلى مضي أربع عشرة ساعة يقرأ كل أربعة منهم نوبه واحدة مدة ساعتين ويهدون ثواب ذلك للواقف المذكور وللزيتـه ويدعون له وللزيتـه ولجميع المسلمين يتداولون ذلك أربعة بعد أربعة فإذا فرغ الثمانية والعشرون نفسا المذكورين قرأتهم بعد مضي الأربع عشرة ساعة المذكورة قرأ القراء الباقون وهم عشرون نفسا عقيبهم كل أربعة مدة ساعتين على الوجه المشروح فيه ويهدون نواب ذلك للواقف المذكور وللزيتـه ويدعون له وللزيتـه ولجميع المسلمين بحيث تكون القراءة مستمرة ليلا ونهارا على الدوام والاستمرار (ص ٣١) يصرف إلى القراء المذكورين ليلا في كل شهر سبعمائة درهم نقرة وأربعة وثمانون درهما نقرة بالسوية بينهم لكل واحد منهم ثمانية وعشرون درهما نقره في كل شهر . ويصرف إلى العشرين الباقين أربع مائة درهم نقره في كل شهر بالسوية بينهم لكل واحد منهم عشرون درهما نقرة . ويرتب الناظر في هذا الوقف رجلين مؤذنين (٦٦) من المؤذنين الحسنـي الأصوات يعطنان بالأذان والتسبيح والتذكـار بالمدينة المذكورة على العادة ويسلمان على النبي صلى الله عليه وسلم ليالي الجمع ويبلغان التكبير خلف الامام تكبير الحنفية (٦٧) يرتبهما الناظر لذلك بالنوبة على حسب ما يراه ويصرف لكل واحد منهما في كل شهر ثلاثون درهما نقره . ويرتب الناظر في هذا الوقف أربعة أنفس يكونون فراشين بالمدرسة المذكورة يفعلون ما يفعله أمثالهم في مثل ذلك ويرتبهم الناظر في ذلك بالنوبة على حسب ما يراه من التناوب ويصرف

ذكر المؤذنين

ذكر الفرائش

	إليهم في كل شهر مائة درهم واحدة نقرة وعشرون درهما نقره بالسوية بينهم لكل واحد منهم ثلاثون درهما نقرة ويزاد أحدهم ممن يراه الناظر منهم في كل شهر عشرة دراهم نقرة على أنه يسقى الماء بالمرزلة المذكورة على العادة في مثل ذلك . ويرتب الناظر أيضا شخصين يكونان قيمين بالمدرسة المذكورة يتوليان وقود (٦٨) ما بها وبالميضاه (ص ٣٢) من القناديل وطفئها ومسحها ويقعلان ما يفعله أمثالهما في مثل ذلك يصرف إليهما في كل شهر من النقرة ستون درهما نقره بالسوية بينهما لكل واحد منهما ثلاثون درهما نقره .	ذكر القيمين
	ويرتب الناظر في هذا الوقف شخصين يكونان بوابين (٦٩) بالمدرسة المذكورة وما هو من حقوقها يلازمان أبوابها ويمنعان من يدخل إليها من أرباب التهم يصرف إليهما في كل شهر ستون درهما نقره بالسوية بينهما لكل واحد منهما ثلاثون درهما نقره . ويرتب الناظر في هذا الوقف شخصين يرسم خدمة الميضاه المذكورة على أنهما يقومان بكنسها وغسلها ومسحها وتفقد ييوتها ويقعلان ما يفعله أمثالهما في مثل ذلك يصرف إليهما في كل شهر ستون درهما نقره (ختم) بالسوية بينهما لكل واحد منهما ثلاثون درهما نقره .	ذكر غادى الميضاه
	ويصرف الناظر في كل شهر عشرة دراهم نقرة ثمن بخور يبخر به بالقبة المذكورة والمدرسة المذكورة . ويصرف أيضا ثمن ما يحتاج إليه من الزيت الطيب يرسم الوقود بالمدرسة المذكورة وبالميضاه وما هو من حقوق ذلك وثمان قناديل وسلاسل وحصر وبسط وشمع (٧٠) بوقد وقت صلاة التراويح بالمدرسة المذكورة على ما يراه الناظر في ذلك ويزاد للزيت المذكور في نصف شهر شعبان وشهر رمضان من كل سنة على حسب ما يراه الناظر في ذلك . ويرتب الناظر خادمين زمامين (٧١) بالمدرسة (ص ٣٣) المذكورة يقيان بها دائما باليتين المذكورين أعلاه على أنهما يتفقدان المدرسة	ثمن البخور ثمن الزيت والقناديل والحصروغير ذلك ذكر الخادمين

المذكورة ويوتها وما هو من حقوقها والقبة المذكورة أعلاه
 ويرقبان حضور القراء المذكورين ويحشانهم على الحضور والقراء
 والملازمة ويضبطان عليهم الغيبة ويصرف لهما في كل شهر مائة
 وأربعون درهما نقرة بالسوية بينهما لكل واحد منهما سبعون درهما
 نقرة . ويصرف الناظر للمدرس المذكور أعلاه في كل سنة في وقت
 أوان البطيخ والعنب اثني عشر درهما نقرة ولكل معبد ستة دراهم
 نقرة ولكل طالب من الطلبة المذكورين أعلاه ثلاثة دراهم نقرة .
 ويصرف الناظر من ريع الوقف المذكور فيه في كلفه نقل ماء عذب
 من النيل المبارك^(٧٢) في كل يوم إلى المزملة المذكورة برسم شرب
 المقيمين بالمدرسة المذكورة والواردين إليها من ثمن جمال ينقلون
 عليها الماء وأجرة عمالين عليها وثمر عدة برسمها وعلفها على حسب
 ما يراه الناظر في ذلك . ويصرف ثمن ما يحتاج إليه من سفنج وعبي
 برسم مسح الرخام والبلاط بالمدرسة والمبضاة وما هو من حقوق
 ذلك وتنظيفه وثمر ما يحتاج إليه من المكائس والأزيار والكيزان
 والأباريق^(٧٣) . ويرتب الناظر في هذا الوقف شخصا حنقى المذهب
 ثقة أمينا دينا يكون خازنا للكتب^(٧٤) الختمات الربعات وغير
 ذلك بالمدرسة المذكورة (ص ٣٤) يصرف إليه في كل شهر خمسون
 درهما نقرة وإن بدا من الخازن المذكور تقصير أو خيانة في الكتب
 استبدل الناظر غيره . ويرتب الناظر في هذا الوقف شخصا يكون
 سواقا بالساقية المذكورة يتولى ادارتها وخدمة الأبقار به سم الإدارة
 واجراً الماء منها إلى المدرسة والمبضاة المذكورتين وما هو من حقوق
 ذلك ويفعل ما يفعله أمثاله في مثل ذلك يصرف إليه في كل شهر
 أربعون درهما نقرة . ويصرف ثمن ما يحتاج إليه من البقر برسم
 ادارة الساقية المذكورة وثمر علف برسمها وثمر قواديس وطوانس
 واكالات وسمار وأجرة نجار وثمر خشب ودهن وغير ذلك مما
 تحتاج إليه الساقية المذكورة . ويرتب الناظر في هذا الوقف (ختم)
 من الأيتام^(٧٥) الفقراء الذين لم يبلغوا الحلم أربعين نفسا ويرتب لهم

ثمن بطيخ وعنب
 في كل سنة
 للمدرس والمعيدين
 والطلبة

الماء العذب

ثمن سفنج وعبي
 وغير ذلك

خازن الكتب

ثمن ابقار برسم
 ادارة الساقية
 وتوابع ذلك

الأيام وموذيهم
وعريفهم

مودبا (٧٦) من أهل الخير والصلاح على أن المودب المذكور يجلس هو والأيتام المذكورون فيه بالمكان الذي هو بدلهيز المدرسة المذكورة المشار إلى ذكره أعلاه في كل يوم خلا الثلاثاء والجمعة وأيام البطالة (٧٧) الجارى بها العادة في المكاتب بالقاهرة المحروسة ويقىء الأيتام ما يطبقون (٧٨) قراته من القرآن العظيم ويعلمهم ما يحتاجون تعلمه (٧٨) من الخط العربي (٧٩) والاستخراج في كل يوم على العادة في مثل ذلك ويصرف إلى المودب المذكور في كل شهر أربعون درهما نقره ومن الخبز الطيب العلامة (٨٠) أربعة أرطال بالمصرى في كل يوم (ص ٣٥) ويصرف لكل واحد من الأيتام المذكورين فيه في كل يوم رطلان خبزا وسدس درهم نقره ويكسى (٨١) كل من الأيتام المذكورين في فصل الصيف قميصا ولباسا وقبعا ونعلا في رجليه وفي الشتاء مثل ذلك ويزاد في الشتاء جبه محشوه بالقطن ويرتب الناظر شخصا يكون عريفا (٨٢) لهم مساعدا للمؤدب المذكور يصرف إليه في كل شهر خمسة عشر درهما نقره وفي كل يوم رطلان خبزا ويصرف أيضا برسم الأيتام ومؤدبهم والعريف ثمن حلوى في نصف شهر شعبان وفي أول شهر رجب من كل سنة مائة درهم واحدة وخمسين درهما نقرة في كل وقت منهما خمسة وسبعين درهما نقره ويصرف ثمن ما يحتاج إليه الأيتام المذكورين من أقلام ومداد وألواح ودوى (٨٣) وحصر يجلسون عليها ويصرف في عيد الفطر (٨٤) من كل سنة مايتا درهم نقرة يشتري بها كعكا وتمرا وبندقا وخشكنانا ويفرق ذلك على الأيتام ومؤدبهم والعريف على ما يراه الناظر في ذلك . ويصرف في عيد الأضحى (٨٥) من كل سنة ثمن راسين من البقر يذبح ذلك ويفرق على المعيدن والفقهاء وأرباب الوظائف بالمدرسة المذكورة على ما يراه الناظر في ذلك ويصرف للمدرس المذكور في عيد الأضحى من كل سنة ثمن أضحية ستون درهما نقره ويصرف أيضا ثمن أضحية برسم الأيتام ومؤدبهم (ص ٣٦)

ثمن حلوى
برسم الأيتام
وغير ذلك

الاضحية

وعريفهم في عيد الأضحى من كل سنة مائة درهم واحدة وخمسون درهما نقره يذبح ذلك ويفرق عليهم على ما يراه الناظر في ذلك. ويصرف أيضا في شهر رمضان من كل سنة ثمن تشريفين ليلة الختم بالمدرسة المذكورة خمس مائة درهم نقره منها ثمن تشريف للمدرس المذكور ثلثمائة درهم نقره وثمان تشريف للإمام مايتا درهم نقره . ويدخر (٨٦) الناظر في كل شهر مايتي درهم نقره يرسم ما يحتاج إليه من العمارة بالمدرسة والربع والساقية وما هو من حقوق ذلك فان استغنى عن ذلك أو عن بعضه صرف ما يستغنى عنه في مصارف الوقف المذكور فيه يضاف ذلك إلى ريع الوقف المذكور ويصرف في مصارفه ويدخر أيضا من ريع الوقف المذكور فيه ما يكفي المصارف المذكورة عن سنة كاملة ليصرف ذلك عند الاحتياج (ختم) إلى صرفه لأرباب الوظائف أما بسبب تأخير استخراج ريع الوقف أو غلاء سعر فاذا صرفه أدخر نظيره من ريع الوقف المذكور فيه فان صرف المبلغ المذكور أو بعضه فيدخر الناظر نظيره ما صرف بحيث يكون المبلغ المذكور مدخرا تحت يده بالمدرسة (٨٧) المذكورة ليفعل فيه ما عين صرفه يجرى الحال في ذلك كذلك على النوام والاستمرار . ويصرف (ص ٣٧) لمن ينظر في الوقف المذكور بعد وفاة الواقف المذكور في كل شهر مايتا درهم نقره . ويصرف أيضا لشاهد (٨٨) يتولى ضبط ريع الوقف المذكور ومصروفه في كل شهر ستون درهما نقره . ويصرف لكاتب يقوم بوظيفة الكتابة (٨٩) في الوقف المذكور وتحصيل ريعه وضبطه ومصروفه في كل شهر مائة درهم واحدة نقره . ويصرف ما يحتاج إليه في تحصيل ريع ذلك من أجره جاب (٩٠) وشاد (٩١) وغير ذلك بصرف ذلك جميعه وما لعل الواقف المذكور يعين صرفه لجهات يختارها إما بالمدرسة المذكورة وحقوقها أو بغيرها أو بها وبغيرها على ما يراه يصرف ذلك كله من ريع الوقف المذكور فيه وما فضل (٩٢) بعد

ثمان تشريفين
أحدهما للمدرس
والثاني للإمام

الناظر

شاهد الوقف

كاتب الوقف

ذلك جميعه يشتري به الناظر عقارا أرضا وبتآء أو أرضا أو بتآء
بمكان يراه ويوقف ذلك على أن يضاف ريعه إلى ريع الوقف
المذكور فيه ويصرف من ذلك ما عين الواقف المذكور فيه صرفه
فيه وما لعله يعينه والباقي يصرفه الناظر فيما يرى صرفه من زيادة
أرباب الوظائف المذكورين فيه في عدد رؤسهم أو معلومهم أو فيها
جميعا على ما يراه الناظر في ذلك ويكون جملة ثمن ما يشتري به العقار
ثلثماية ألف درهم نقرة فان فضل شيء بعد صرف ثمن العقار المذكور
صرفه الناظر فيما يرى صرفه (ص ٣٨) من زيادة أرباب الوظائف
في عدد رؤسهم أو في معلومهم أو فيها جميعا على ما يراه الناظر
في ذلك فان تعذر الصرف إلى الجهات المذكورة أو إلى شيء منها
صرف ما تعذر صرفه في وجوه البر والقربات ومصارف الأجر
والثريات المطلقة العامة (٩٤) على الوجه الذي يراه الناظر في ذلك
فان عاد امكان الصرف إلى ما تعذر عاد الصرف إليه يجرى الحال
في ذلك كذلك أبد الآبدين ودهر الداهرين إلى أن يرث الله
الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وأن نقص ريع الوقف
المذكور فيه عن المصارف المذكورة وما لعله يعين صرفه لجهات
بر يختارها قسم ما يتحصل من ذلك بين الجميع بالمخاصة . وجعل
الواقف المذكور فيه النظر على الوقف (ختم) والولاية عليه لنفسه
أيام حياته وله أن يستنيب عنه في ذلك ويوكل فيه من شآء ويعزله
ويعيده ويستبدل به إذا أراد وله أن يوصي بذلك ويفوضه ويسنده
لمن يختار وله عزل من يوصي إليه به واعادته والاستبدال به فان
مات عن غير وصية ولا إسناد أو وصى وتعذر نظر الموصى إليه
كان النظر في ذلك لرأس نوبه الأمرا الجمدارية السلطانية الكبير
فيهم فان تعذر ذلك كان النظر فيه لأمير حاجب الكبير حاجب

السلطنة المعظمة فان تعلم ذلك (ص ٣٩) كان النظر فيه لداودار السلطنة المعظمة الكبير فان تعلم ذلك كان النظر فيه لحاكم المسلمين الحنفى المذهب بالقاهرة المحروسة للمدرس بالمدرسة المذكورة ينظر ان فى ذلك ويصرف لهما المبلغ المذكور بالسوية بينهما لكل واحد منهما مائة درهم واحدة نفقة . وللاواقف المذكور أحسن الله تعالى إليه أن يرتب فى الوظائف المذكورة وماشأ منها من يرى تربيته بالمعلوم المذكور أعلاه أو بما يراه من المعلوم قليلا أو كثيرا وله عزل من يرتبه وإعادته والاستبدال به متى شأ بريبه وبغير ريبه وله أن يصرف من ريع الوقف المذكور ما يرى صرفه لأرباب وظائف يرتبها بالمدرسة المذكورة أو بغيرها أو بهما جميعا على حسب ما يراه . وله أن يصرف لأرباب الوظائف المشار إليهم أو لمن يراه منهم ما يرى صرفه من ريع الوقف المذكور فيه زيادة على ما ذكر فيه وله تنقيصهم وتنقيص من يرى تنقيصه منهم من معلومهم وله صرف ما ينقصه من ذلك لمن يراه من أرباب الوظائف المذكورة أو بغيرهم أو لأرباب وظائف اخر يرتبها بالمدرسة المذكورة أو بغيرها أو بها وبغيرها على حسب ما يراه . وله أن يشترط فى حق أرباب الوظائف بالمدرسة المذكورة أو بعضهم وما لعله يرتبه من أرباب وظائف أخر بها (ص ٤٠) أو بغيرها ما يراه من الشروط وله تنقيصهم وتنقيص من يرى تنقيصه منهم من الشروط المشترطة عليهم فيه وله اختصار ما يرى اختصاره من الوظائف المذكورة فيه ويصرف ما هو مرتب لها لمن يراه اما بالمدرسة المذكورة أو بغيرها أو بهما جميعا على حسب ما يراه ويودى إليه اجتاده . وله التصرف فى ذلك كله بالزيادة والنقص والترتيب والولاية والعزل والاعادة وغير ذلك (٩٤) كل ذلك راجع إلى رأيه ونظره متى شا كيف شأ . فاذا فعل شياً من ذلك فليس للناظر بعده أن يغيره فاذا توفى

إلى رحمة الله تعالى ولم يفعل شيئا من ذلك استقر الأمر على الوجه المشروح فيه وليس للتأخر أن يفعل شيئا من ذلك (ختم) ومتى صدر من أحد من أرباب الوظائف المذكورين فيه ما يرى به التأخر صرفه فيصرفه ويرتب غيره . وإذا شغرت وظيفة أو أكثر منها من الوظائف بالمدرسة المذكورة كان للتأخر أن يولى فيها من هو أهل لها ^(٩٥) كل ذلك بعد وفاة الواقف المذكور فيه . يجرى الحال في ذلك كذلك أئبد الآبدن ودهر الداهرين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . فقد تم هذا الوقف ولزم ونفذ حكمه وانبرم وصار وقفا على ما نص وشرح بأعاليه فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر ويعلم أنه إلى ربه الكريم صاير (ص ٤١) أن يغير هذا الوقف ولا شيئا منه ولا يبطله منه ولا شيئا منه ولا يسعى في إبطاله ولا في إبطال شيء منه فن فعل ذلك أو أعان عليه فاقه تعالى طليبه وحسيه ^(٩٦) ومؤاخذه بفعله ومجازيه بعمله يوم لا تنفع الظالمين معذرتهم ولم لهم اللعنة ولم سوء الدار ولا يقبل الله منه صوما ولا صلاة ولا صدقة ولا زكى له قولا ولا فعلا ويلقى الله تعالى وهو غضبان عليه غير راضى عنه وجعله من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . ومن أعان على إثباته وتقديره في أيدي مستحقه وصرفه في جهاته برد الله تعالى مضجعه ولقنه حجته وتقبل منه صومه وصلاته وصدقته وزكى قوله وفعله وأحسن مآبه وأعطاه يمينه كتابه وجعله من الآمنين المطمئنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ويلقى الله تعالى وهو راضى عنه غير غضبان عليه فن بدله بعدما سمعه فاعلم أنه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم . ورفع الواقف المذكور فيه عن ذلك يد ملكه ووضع عليه يد ولايته ونظره واعترف انه رأى

المدرسة المذكورة والأماكن المجاورة لها وباقي الأماكن لم يره
والواقف المذكور فيه أن ينشئ بالموقوف المذكور ما يرى انشأه
ويغرس ما أراد من الأشجار ويكون حكم ذلك حكم الوقف المذكور
فيه . واشهد عليه بذلك في اليوم المبارك (ص ٤٢) السابع والعشرين
من شهر رمضان المعظم سنة سبع وخمسين وسبع مائة (٩٧) .

للبحث بقية

« التعليقات العلمية والصادر واللوحات »

في المدد القادم من المجلة

ماهية الإنسان ومقوماته

في العقائد المصرية القديمة

للدكتور عبد العزيز صالح

الأستاذ المساعد للآثار والحضارة المصرية القديمة

كلية الآداب - جامعة القاهرة

كرّم المصريون القدماء الإنسان ممثلاً في جنسهم ، من حيث أصله وصورته ، فتخللوا أنفسهم أقراناً لإلههم الخالق (*rmꜥ sn.nw n nꜥr*)^(١) ، وصوراً من الملىّ إمام السماء (*hꜥprw m ; hꜥnty ps*)^(٢) ، صلبوا عن بدنه (*n hꜥ.f*)^(٣) ، ومن عينه ، أى من أعز ما فيه ، ومن دموعها (*hꜥpr rmꜥ ps m rmw pr m irt.i*)^(٤) ، وشجع ذلك قائلهم على أن يدعو لأخيه برضا ربه الذى فيه (*nꜥr im.k*)^(٥) ، يعنى بذلك القيس الإلهى الذى يعمر قلبه أو نفسه^(٦) . (وذلك اعتقاد يختلف عن اعتقاد العراقي القديم فى عبود بخصه يرعاه ويتمهلده ويعتبره هوربه وأباه المقدس الذى أنجبها . وربطت العقائد المصرية القديمة بين الكيان المادى والمعنوى للإنسان فى دنياه وآخرته وبين عناصر ومقومات عدة ، طبيعية ومكتسبة ، تباينت الآراء قديماً

Papyrus Boulaq IV., 10, 7.

(١)

A. Piankoff, *The Tomb of Ramses VI*, p. 169.

(٢)

Papyrus Petersburg 1116 A, rt. 132 ; A. Piankoff., *op. cit.*

(٣)

Papyrus Boulaq XVIII, 3, 6 ; Apohis, 27,2-3 ; 27, 25; Cairo Ostrakon 25207

(٤)

(*ZAeS*, XXVIII, 23) ; Piankoff., *op. cit.*, 141, 169 ; J. Wilson, in *Ancient Near Eastern Texts*, p. 8.

ومن أتلعب القلب بين رى أو رمو بمعنى ألمع وبين رمث بمعنى البشر :

See, *Wb.* II, 420.

K. Sethe, *Urk. IV*, 117, 12 ; 149, 4 ; J. Tylor and F.Ll. Griffith, *The*

(٥)

Tomb of Pahari, pl. IX, 21 ; P. Lacau, *Textes religieux*, XLIV, 91.

(٦) راجع أيضاً ص ١٦٢ و ص ١٨٤

وحدثنا في تحديددها ، وفي بيان وظائفها ، وفي كيفية تقديم الأصل على الفرع فيها . ومن أهم ما رددت النصوص المصرية ذكره من عناصر الإنسان وهقوماته سبعة : جسم مادى (خت) ، وقلب مدرك أولب (لب) ، ونفس فاعلة أو طاقة (كا) ، وروح تسرى فى الباطن والظاهر (با) ، ونورانية تتكشف فى الآخرة (آخ) ، وظل ملازم (شوت) ، واسم شخصى أو سمعة (رن) .

ومع هذه العناصر الرئيسية ، قدر المصريون بعض الأهمية لما يحيط بكل إنسان من ظروف مؤثرة مثل « مسخت » أى موضع الولادة أو مسقط الرأس ؛ وأخرى قدرية كالحظ أو النصيب (شأى أو شأيت) ؛ وصفات شخصية كالهئية والقوة البدنية ؛ وأخرى مكتسبة كالمهارة والمعرفة . وذلك إلى جانب صفات علوية خصت النصوص القراعنة بها ، ومنها الإدراك اللدنى والنطق الخالق أو الإيحاء (سيا ، وحو) .

ولم يكن من المتوقع أن تثبت آراء المصريين عن هذه العناصر والمقومات على حال واحدة خلال عشرات القرون التى عاشتها حضارتهم القديمة ، أو فى سياق نصوص طوائفهم ذات العقليات المتباينة ، وإنما كان من البديى أن تتعدد تأويلاتهم لها باختلاف ثقافتهم واختلاف عهودهم . ويبدأ البحث التالى بمناقشة أقل هذه العناصر نموحا .

* * *

الجسد :

عبر اللفظ المصرى « خت » (أوخات) ^(١) عن الجسد بكل ما يتصف به من مادية وتركيب وشهوة ، وعبر فى الوقت ذاته عن كل مجموعة أعضاء ، فدل على معنى الجماعة والجيل والرعيل ^(٢) ، ورادفه فى ذلك لفظ « حح » ثم لفظ « جت » ، ودل هذا الأخير على معنيين متقابلين ، فشابه لفظ الجثة فى اللغة العامة الحالية ، كما استخدم فى عبارات التأكيد بالنفس ^(٣) . (ووردت مثل هذه المقابلة

Wb. III, 356 ; Pyr. 474 a.

(١)

Sec, A. H. Gardiner, *The Admonitions of an Egyptian Sage*, p.82.

(٢)

(٣) راجع عن تسميات أخرى للجسم قليلة الشيوخ :

Wb. II, 492 ; III, 37 ; IV. 180. 555.

فى لغات سامية أخرى ، فدلّت كلمة نفس الآرامية وكلمة نفس العربية على معنى النفس والجسد فى آن واحد ، فضلا عن معنى النصب) .

وكان من حديث الحكيم المصرى بتاح حوتب عن طبيعة الجسد قوله ، وهو يعظ ولده : « لا تردد البتان ولا تتسمعه فانه وليد جسد فائر » ^(١) ، وقوله : « إن الثقة هو من لا يستمع إلى نداء بدنه » ^(٢) ، وقوله : « إذا ضلّ القواد وأطاع جسده يكون قد أحلّ صفاره محلّ حبه . . . » ، ومن أطاع بدنه كان علو نفسه » ^(٣) . وقال الحكيم كايرو (٤) : « خفى من شره بدنه » ^(٥) .

وقال الحكيم آتى : إن بدن الإنسان أوسع من الشوتين المليكيتين ، يتسع لكل جواب ، فتخير خير الحديث وتكلم صوابا ، واحتفظ بيسئه فى جوفك » ^(٦) .

وردت المذاهب المصرية مادية الجسد إلى طين الأرض ، وقالت « إن الإنسان من طين وعصافه والإله مسويه » ^(٧) . ولا ندرى إن كان هذا التصور المصرى ، الذى قالت الكتب الساموية بمثله ، من بنات أفكار أصحابه أم أوحى إليهم به عن طريق رسل لم تصلنا أنباؤهم . ولكننا نعرف من جهة أخرى أنه ظهر له ما يشبهه عند بعض أصحاب الحضارات القديمة الذين عاصروهم ومنهم الأكديون الذى روت أساطيرهم أن ربهم أرورو غسلت يديها وقبضت قبضة من طين الأرض وشكلتها بشرا ^(٨) .

وأطلق المصريون على إلههم الذى تخيلوا أنه أول من شكل الإنسان من صلصال اسم « خنوم » أو « خنمو » ، ربما بمعنى المشكل ^(٩) ، أو المجمع ، مجمع أعضاء

Pap. Priase, 350-352.

(١)

Ibid., 235.

(٢)

Ibid., 243-244, 248.

(٣)

Ibid., I, 10 ; J. E. A. XXXII, 73.

(٤)

Pap. Boulaq IV, VII, 9, f.

(٥)

Brit. Mus. Pap. 10474, XXIV, 13-14.

(٦)

E. A. Speiser, Akkadian Myths ... , in *Ancient Near Eastern Texts*, ed., by J. B. Pritchard, 1955, 74.

(٧)

A. M. Badawi, *Der Gott Chnum*, 14.

(٨)

الإنسان (وجمع الماء في منطقة الشلال التي كان يقدس فيها والتي اعتقد بعض المصريين أن النيل ينبع منها أو يولد فيضانه فيها) (١) .

وأشركوا معه في عملية الخلق عددا من الربوات اعترافا لإخاليًا منهم بأثر الأثني في تكوين الأجنة ، ولأسباب محتملة أخرى تتصل بمفهوم أسماء هذه الربوات ورموزهن . فقد كانت منهن « مسخت » ، التي عبر اسمها ورمزها عن مكان الولادة ومهد المولود ، سواء صور هذا المهد على هيئة قالبين من الطوب في بيت فقير (٢) ، أم صور على هيئة سرير فخم في قصر كبير (٣) . وذلك مما يمكن الترجمة عنه بنوع مسقط الرأس أو البيئة الأسرية للطفل ، فقيرة كانت أم ثرية .

ومنهن « رننت » ، وكان لاسمها المصري ورمزها الإلهي صلة بمعنى كلمة المربية وعلمية التريبة ، وصلة بأمانى السعد والحماية للمواليد (٤) .

ثم « حقت » التي رمز أصحابها إليها بجسم أنثى ورأس ضفدع ، ولعلمهم افترضوا في صورة الضفدع بمظهرها الأغبر وجلدها المغضن ما يمثل مرحلة عتيقة من صور الخلق الأولى في عالم الكائنات . أو لعلمهم رأوا في كثرة ما تتوالد به الضفادع ما يمكن الرمز به إلى الكثرة العددية التي تعاقبت بها بقية كائنات الأرض والماء .

وهكذا قال المصريون : « إن مسخت وخنوم خلقا البشر » (٥) . وقالوا : « تعاونت حقت ورننت ومسخت منذ الأزل في خلق البشر » (٦) .

* * *

القلب والفكر :

عبر لفظ « لب » في اللغة المصرية القديمة عن القلب وعما ينصرف لفظ القلب إليه في اللغات السامية من معاني العقل والوعي والضمير والنية والإرادة

(١) عن مناقشة خاصة مع المرحوم الدكتور جرجس متى .

(٢) Wb. II, 148 ; Pap. Westcar, X, 10 ; Maspero, *Les contes populaires*, 48 ; Griffith, in *Hasting's Encycl. of Religion*, II, 646 ; Crum, in *J. E. A.* 1942, 69 ; Pillet, in *ASEA*, 1954, 86 f.

E. Naville, *Dier el Bahari*, II, pl. LI ; Gayet, *Louxor*, pl. LXV. (٣)

Wb. II, 436 f. (٤)

P. S. B. A., XVIII, 196. (٥)

Urk. IV, 389. (٦)

والوجدان والشعور ، فضلا عن دلالة على عضو مادي في بدن الإنسان .
وشاركت لفظ لب في أغلب معانيه كلمة « حاقى » ، مع تعبيرها عن معنى الصدر
أحيانا ^(١) .

وكان من أروع ما وصف المصريون القلب به بمعنى العقل والضمير أن قالوا :
« قلب الإنسان هو ربه » ^(٢) ، « هو معجزة الرب (أو وحيه) في كل بدن ،
وطوبى لمن هداه إلى خير سبيل للعمل » ^(٣) . وقالوا : « للقلب واللسان سيطرة
على أجزاء البدن » ^(٤) ، و « إن قلب الإنسان هو حياته ونعيمه وسلامته » ^(٥) .

وقالوا فيه بمعنى السريرة : « استقامة القلب (أى السريرة) أبقى بالحكم » ^(٦) .
و « إن خصال إمرئ قويم القلب (أى السريرة) لأكثر قبولا عند الرب من فعل
(يضحي به إليه) رجل اعتاد الشرور » ^(٧) . وقالوا في وصف أحد أختارهم :
« مفتوح القلب (واضح النية) تقى السريرة » ^(٨) .

وقالوا عن مركزة المشاعر في القلب « إن ما تراه العينان وتسمعه الأذنان ويشمه
الأنف ، يرقى جميعه إلى القواد » ^(٩) .

Compare, A. Piankoff, *Le coeur dans les textes égyptiens*, 1930 ; S. Morenz, (١)
La Religion Egyptienne, traduit, 1962, 97 f ; A. de Buck, in *Chr. d'Egypte*, 1946, 17 f.

وراجع عن تسميات أخرى للقلب قليلة الشروع :

Wb. I, 155, 477 ; II, 365 ; III, 134, 135.

W. Wreszinski, *Wiener Inschriften*, 160 ; *Aegyptische Inschriften aus dem* (٢)
K. K. Hofmuseum in Wien, 110 f.

Louvre C 26 ; J. H. Breasted, in *Z Ae S*, XXXIX, 47-48. (٣)

The Theology of Memphis (*Brit. Mus.*, 498, 54. See also, *B. D.* XXIX, 3. (٤)

Pap. Prisse, 552. (٥)

Pap. Petersburg 1116 A, rt., 46. (٦)

Ibid., 128-129. (٧)

H. J. Polotsky, *Zu den Inschriften der 11 Dynastie*, 1929, 57, also, 67, 73 ; (٨)
and see, Pap. Prisse, 550-551, 627 ; *Urk.* IV, 994 ; *Z Ae S*, XXXIV, 26, 3 ;
B. Gunn, *Syntax* ..., 165.

The Theology of Memphis (*Brit. Mus.* 498) , 56. (٩)

وقالوا عنه بمعنى العزيمة « إنما القلب الجرىء رفيق لصاحبه في مواطن الشدة »^(١).
 وقالوا عن مركزة إرادة الخير لدى الإنسان فيه « كبير القلب عطية الرب »^(٢).
 ثم وصفوا القلب بصفة شاملة فقالوا إنه « نرى »^(٣) ، أى قدسى .
 وكان من أمتع ما صوروا به مناجاة إنسان لقلبه بمعنى عقله ووجدانه ، قصة
 رجل ضاق بفساد الأمور في عصره فقال يناجى فؤاده : « فؤادى ، طالما
 تأملت من أجل هذه الأرض التى نشأت فيها . وقد أصبح الصمت نقيصة ، فثمة
 أشياء يتحدث القوم عنها . . . ، وقد ولى زمان الرجل الكفاء ، . . . فن أين
 تبدأ ؟ . . . لا تراعى (فؤادى) فالأمر واضح أمامك ، وعليك أن تقاومه ، فقد
 أصبح المسئولون عن البلاد يأتون فيها أمورا ما كان ينبغي أن تحدث . . . ، وتخربت
 الأرض وليس من يأمر عليها ، وليس من يتحدث عنها ، وليس من عين تبكى
 عليها . . . إلخ »^(٤) .

وقصة رجل آخر ضاق بفتور المم وميوعة الأوضاع في عصره ، فقال يناجى
 قلبه : « ليت لى من أحاديث غير مألوفة ، وحكم غريبة ، فى أسلوب مبتكر لم يسبق ،
 دونما تكرار ممل ودونما آراء سلفت وفاه بها السابقون . . . ، وحبذا لو تجاوب
 قلبى معى فأكشف له عن حزنى وألقى عليه حملا رسخ على ظهري ، حديثا أمني . .
 حين أفكر فى أحداث وأمور جرت فى هذه البلاد . . . » .

وبعد أن فرغ الرجل من بث شكواه ، قال لقلبه : « هلم فؤادى إذن ، أحداثك
 وتجيئنى على حديثى وتفسر لى كنه ما يجرى فى هذه الدنيا . . . » وما قد قصصت
 عليك قلبى ، فأجبنى ، حيث لا صمت لقلب مقدام . . . بعد أن تزايدت المسئولية
 عليك . . . »^(٥) .

Brit. Mus. Pap. 5645, 13; A. H. Gardiner, *The Admonitions of an Egyptian* (١)

Sage, p. 104.

Pap. Prisse, 247. (٢)

Cf., Wb. II, 365, 5-7. (٣)

Pap. Petersburg 1116 B, 20 f. (٤)

Brit. Mus. Pap. 5645, rt., 7 f.; vs. 5-6; A. H. Gardiner, *op. cit.*, p. 110 f. (٥)

وتخيل المصريون الرجل منهم يخاطب قلبه في آخرته فيقول له : « (قلبي) يا وعى كل وجودي (حرفيا : كل صوري) ، أنت كاهي (أى طاقتي) التي في جسدي ، أنت جماع أعصابي ومبعث سلامتها . . . » (١) .

وعندما صوروا تخيلاتهم عن حساب الآخرة ، اعتادوا على أن يصوروا قلب الإنسان في كفة الميزان ، وريشة العدالة في كفته الأخرى ، واعتبروا القلب بذلك موضع النيات ، أو هم قد عنوا به العقل الذي كرم الإنسان به ويحاسب عليه .

وفطن الأطباء المصريون إلى تأثير القلب في بقية أعضاء البدن ، وترجموا بعبارة كلام القلب ، عن نبضه ، وأوصوا بضرورة « قياسه » ، أى ضرورة اختبار قوة ضرباته ، حين تشخيص العلة في أجزاء الجسم المختلفة (٢) . وربما لم يهتدوا حينذاك إلى ملاحظة الدورة الدموية من القلب وإليه كما عرفها الإغريق بعدهم بقرون طويلة ، ولكن ما من شك في أن معرفتهم بالاتصال الحيوي بين القلب وبين بقية أجزاء البدن كانت معرفة ذات بال بالنسبة لعصورهم البعيدة .

* * *

الطبع والتطبع :

ارتبطت بفكرة القلب والفكر والإرادة قضية كثر الجدل فيها في المجتمعات المتحضرة القديمة والحديثة ، وهى قضية الطبع والتطبع واحتمال تغير الطبع من عدمه . وقد تجادل فيها في مصر فريقان : فريق رأى أصحابه أن « كل إنسان قد تشكل وفق استعداداته » (٣) ، وأنه « ما من جدوى في تقويم المعوج ما دام كل إنسان قد تشكل وطبعه معه كأنه عضو فيه » (٤) .

وفريق آخر آمن أصحابه بجدوى التعليم والتقليد في تقويم الطباع ، وأبوا الاعتراف بأن « الجاهل والعالم سواء ، أو أن الحظ والفلاح نقشا مع الطبع في صفحات الإله (أى في لوحه المحفوظ) » . ورأوا من ناحيتهم أن « التهذيب

The Book of the Dead, Ch. XXX B. and variants.

(١)

J. H. Breasted, The Edwin Smith Surgical Papyrus, 1930, 1 f.

(٢)

A. Volten, Studein zum Weisheitsbuch des Anii, 1937, 137 f.

(٣)

Petrie's Ostrakon 11 rt, 4 ; see, Volten, op. cit., 143.

(٤)

خير لا عناء فيه» (١) ، وأن من المستطاع تحويل الطباع من حال إلى حال ، تتساوى في ذلك الحيوانات كالفضل والسبع والحواد ، كما يتساوى الناس فيه على تباين ألسنتهم . واستشهدوا بفاعلية التقويم على الجماد ذاته فقال قائلهم : « إن القرع الأعوج المهمل في الخلاء ، والذي تداولت الشمس والظل عليه ، قد يتناول صانع ماهر فيقوم اعوجاجه ويبيء منه عصياً (يعتمد عليها) الأشراف» (٢) .

* * *

الاسم:

انصرف لفظ «رن» في اللغة المصرية القديمة إلى معاني الاسم الشخصي والسمعة والشهرة . ورثت النصوص المصرية على الأسماء وظائف عدة دفعت بعض الباحثين إلى القول بأن الاسم الشخصي في مصر القديمة كان له شأن يزيد عما عرفته له سائر الشعوب قديمها وحديثها (٣) . وقد لا يتخلو هذا الحكم من مبالغة ، وإن كان المصريون قد رتبوا على أسمائهم أهمية كبيرة فعلاً ، فاعتبروا الاسم جزءاً لازماً من كيان صاحبه ، يتميز به في دنياه ، ويتأكد به خلوده وسعادته في آخره (٤) ، ولهذا يتمنى ألا ينساه فيها (٥) ، كما يحرص على أن يردده الأحياء على آثاره بعد وفاته (٦) . وتخيّلوا أن ما يلحق بالاسم من خير وشر يلحق كذلك بصاحبه ، وأن الإنسان يمكن أن يسيء إلى خصومه أحياء وأمواتا عن طريق الإضرار بأسمائهم بالحو والسحر ولعنات الدين (٧) . وتخيّلوا أن من يعرف اسم معبود أو كائن مقدس في الآخرة يستطيع أن يتق غصبه ويكسر شرته (٨) . واشتركت أسماءهم مع أسماء غيرهم

A. H. Gardiner, *Hieratic Papyri* ..., 3rd. series, vol. I, p. 43. (١)

Pap. Boulaq IV, 10, 11 f. (٢)

وراجع عن القدر والخط والنصيب في المذاهب المصرية :

G. Thausing, in *Mitt. Kairo* VIII, 1939, 46 f.

See, H. Kees, *Totenglauben* ..., 79 f. and references. (٣)

Pyr. 764a-b ; 908 a-b, etc. ; *The Book of the Dead*, Ch. CXLIX. (٤)

Ibid., Ch. XXV. (٥)

Pyr. 256 c-d ; 764 d, 899 b, 336 b, 1372 ; *Coffin Texts*, Disc. 48, 291 ; 38, 162. (٦)

K. Sethe, *Achtungstexte* ..., 1926 ; G. Posener, in *Mélanges Syriens*, (٧)

1939, 313 f. ; *Chronique d'Egypte*, 1939, 39 f.

B. D. Ch. 144, 147, 108-109 ; Vandier, *La Religion Egyptienne*, 106. (٨)

من الشعوب في أنها وإن فقد أغلبها مدلوله الحرفي بعد شيوعه على السنة الناس بحكم الوراثة والعادة والتقليد ، إلا أنه تميزت منها أسماء قليلة أخرى وكتيات معبرة كان الأبوان يطلقانها على الحدث في صغره عن قصد فتغلو الصق به من اسمه في صغره وكبره ، ويصبح ذا من وضوح المدلول ما يمكن أن يؤثر به في شخصيته وفي معاملة الناس له تأثيراً ينفعه أحياناً ويضره أحياناً سواها . (ويراجع للمؤلف عن الدلالات الاجتماعية والمدنية للأسماء : الأسرة في المجتمع المصري القديم -- ص ٥١ - ٥٣ . والتربية والتعليم في مصر القديمة -- ص ٢٠ - ٢٢) .

الظل :

عبر لفظ « شوت » (أو شويت أو خايت) ^(١) عن الظل الذي يلزم صاحبه ويتخذ هيئة ويختص به . ولم تفصل نصوص الدولة القديمة في قيمة ارتباط الظل بصاحبه في آخرته ^(٢) ، ولكن نصوص الدولة الوسطى اعترفت بأهميته ، فوصفت القبر أحياناً بأنه « ظلة (أو وقاية) لاروح ومهبط للظل » ^(٣) . ثم توسعت نصوص الدولة الحديثة ومناظرها في تصوير مدلول الظل ، فصورت على هيئة شبح أسود عار يتخذ تقاطيع صاحبه ^(٤) . وأصبح من دعاء الرجل لربه في الآخرة أن « إحيي روحي وثبت ظلي » ^(٥) . وتضمنت كتب الموت فضلاً عنونه بعنوان « فصل فتح القبر للروح والظل » وتمنت فيه أن تتوفر للظل حرية مثل حرية الروح في الدخول إلى المقبرة والخروج منها ، وفي رؤية الشمس ^(٦) ، فضلاً عن مطابقتها للجسد في مثواه ، واكتسابه رعاية الأرباب ^(٧) . وهكذا غدا مصير الظل مرتبطاً بصاحبه ، ينعم بنعيمه ويعذب بعذابه ويختفي بتدمير روحه وانتقام ربه ^(٨) :

W. b. IV., 432 ; *ibid.*, III, 225.

(١)

(٢) اختلط مفهوم الظل مع مفهوم المظلة والوقاية في متون الأهرام .

Py. 413 c ; 1487 a, d (in contrary with Mercer's opinion in *The Pyramid Texts*, II, 22).

G. Steindorff, in *ZÄe S.* XXXIX, 119 f. ; Birch, « On the shade or shadow of the dead », in *Soc. Bibl. Arch.* VIII, 386 f.

(٣)

B. D. (Pap of Neferrenpet) p1. 27.

(٤)

Berlin 6910 (18 Dyn).

(٥)

B. D. Ch. XCII.

(٦)

A. Piankoff, *The Tomb of Ramses VI*, 248, 274.

(٧)

Leffebure, *Tombeau de Seti I.*, p1. XI, 162 ; A Piankoff, *op. cit.*, Figs. 12-14 ; p. 73, 74, 80, 100, ...

(٨)

ولأمر ما نسبت بعض النصوص إلى الظل نصيباً من مدى القدرة الجنسية في صاحبه^(١) .

* * *

أحاط بتفسير المقومات الغيبية الثلاثة ، الكا والبا والآخ ، جدل كبير يلمسه كل من بحث في العقائد المصرية القديمة . والجدل فيها وراء الحس والمنظور ليس بالأمر الغريب في كل مجتمع وزمان .

الكا (النفس الفاعلة والطاقة) :

عامل المصريون لفظ الكا معاملة المذكر ، وعبروا عنه في أغلب أحواله بصورة ذراعين مرفوعتين إلى أعلى ، ومن المحتمل أن تصويرهما مرفوعتين كان مجرد تصرف في الرسم تخلص الكنية به من صعوبة تصويرهما مملودتين إلى الأمام . وكتبوا نفس اللفظ بحرفيه المجائين (الكاف والألف الأخيرة) في مرات قليلة ، وبحرف الكاف وحده في مرات أقل^(٢) ، وذلك مما قد يعني أن ألفه الأخيرة كانت مجرد نصبة . وعبروا عن قداسة أصله بتصوير رمزه أحياناً فوق حامل مقدس^(٣) . وسوف نعامل لفظ الكا في أغلب الاستشهادات التالية معاملة المؤنث بما يتفق مع مدلوله العربي ويلامم أغلب التفسيرات في شأنه .

وقد اتفينا في بحث تفصيلي سابق عن الكا ، إلى أن «كا» كل إنسان تعبر من ناحية عن نفسه ونفسيته وذاتيته ، وتعبر من ناحية أخرى عما فيه من طاقة أو فاعلية مادية ومعنوية وشعورية . فإذا فارقت الكا صاحبها حين الوفاة فارقت كل صفاتها ، وإذا استعادها حين البعث استرد بها طاقتها وفاعليته^(٤) .

H. Kees, *Totenglauben*, 81, f.

(١)

واعتبر الإغريق والرومان الروح ظلاً للإنسان وقريناً له .

Pyr. 1220a; *Wb.* V, 86, and for other probable : Ki, Khoi (*Copt*) ; Ku (٢)

(*Babyl.*) ; Khoi (*Grec.*), see *Wb.* V, 86, 93.

Pyr. 564 b ; *Wb.* V, 86 ; *Urk.* I, 50, 15 ; 71, 4, 6 ; Mariette, *Mast.*, 274-275 ; (٣)

Junker, Giza, III, 156, 235 ; *ZaE S*, LXX, 49 ; etc.

Abdel-Aziz Saleh, «Notes on the Egyptian Ka » in *Bulletin of the Faculty* (٤)

of Arts, Cairo Univ., Vol. XXII, Part 2, Cairo 1965, pp. 1-17.

واختلفت هذه النظرية ، فيما يتعلق بالكا الشخصية ، عما أنت به نظريات كثيرة سابقة ، اعتبرت الكا روحا حارسة متمايزة عن كيان الإنسان (G. Steindorff; and Van der Leeuw ^(١) . وهذه تمثلت في رأى البعض في نموذج أثري ملون يتخذ هيئة صاحبه وجنسه ويصحبه منذ مولده (G. Maspero, Le Page ^(٢) Renouf; E. Naville; and G. Jequier) وتمثلت عند بعض آخر في جني علوى (أوطيف) أو إله حارس يلجأ المتوفى إليه في العالم الآخر فيحيا به أو في كنفه (J. H. Breasted) ^(٣) .

ونظريات عداها ردت الكا من حيث الأصل إلى روح علوية سرت سريان الروح الطوطمية (A. Moret) ^(٤) ، أو سرت من الإله اتخاتن إلى إله الدولة حور ثم إلى الفراعنة الحوريين والناس ، وظل الفراعنة أكثر المخلوقات نصيبا منها في الدنيا وفي الآخرة (Loret ; H. Stock ; J. Spiegel ; and U. Schweitzer) ^(٥) .

ثم نظريات اعتبرت الكا من حيث الوظيفة قوة حيوية أولية ، أو قوة حيوية خلاقة ، أو قوة حارسة موجهة ، أو قوة ذهنية ميتافيزيقية (G. Steindorff ;

G. Steindorff, in *ZÄS*, XLVIII, 152 f. ; Van der Leeuw, in *ZÄS*, LIV, (١) 56 f.

G. Maspero, *Étude Mythologie* ..., I, 7, 35, 48, 77f., 126 ; *Trans. Soc. Bibl.* (٢) Arch. VI, 494 f. ; and in *Memnon*, VI, 125.

See also, Naville, *La Religion*..., 53f. ; Wiedmann, *Das alte Aegypten*, 72 ; Jequier, *Histoire de la Civilisation égyptienne*, 1923, 151 f.

J. H. Breasted, *Development of Religion and Thought*, 52 f. (٣)

A. Moret, *Mystères égyptiens*, 199 f. ; in *Revue de l'Hist. des Religions*, (٤) LXVII, 181 f. ; *Le Nil et la civilisation égyptienne*, 211 f., 416 f.

Loret, in *Revue Egyptologique*, II, 87 ; H. Stock, «Aeg. Religionsgeschichte», (٥) in *Saeculum I* (1950), 627 f. ; J. Spiegel, *Das Werden der Alt-Aegyptischen Hochkultur* ..., 110 f. ; U. Schweitzer, *Das Wesen des Ka im Diesseits und Jenseits der alten Aegypter*, 1956, 21-22, 25, 42 f., 52 f.

H. Kees ; J. Vandier ; H. Frankfort ; J. Wilson ; S. Mercer ; J. S. F. Garnot ;
L. Greven ; U. Schweitzer ; and S. Morenz)^(١)

ونظريات أكثر وضوحا ، اعتبرت الكا قوة ذات طبيعة مزدوجة ، روحية
ومادية ، تلازم الإنسان منذ مولده (Erman and Sottas)^(٢) .

وأخرى تماثلها رأت في الكا جماع الخصائص المعنوية لكل إنسان ، مثل مزاجه
وحظه ومكانته ، فضلا عن تعبيرها عن روحه وشخصيته (H. Brugsch ;
E. A. W. Budge ; A. H. Gardiner ; A. M. Blackman ; W.C. Hayes ; H. Kees ;
and J. Spiegel)^(٣) .

ثم نظريات مكتملة ، رأت واحدة منها أن قوة الكا تنصب على القدرة الجنسية
(Jacobsohn) . وقربت أخرى بين دور الكا المصرية وبين الدور الذي ينسب إلى
شمسة الطفل في بعض العقائد القديمة والعقائد البدائية المتخلفة (A.M. Blackman)^(٤)
وذلك فضلا عن التفسير الذي رددته أغلب المؤلفات العربية عن ماسرو ، وهو
تمثل الكا في القرين الذي تقول بمثله بعض التصورات الشعبية المصرية حتى الآن .

ومن البديهي أن أغلب النظريات السابقة قد اعتمدت على قرائن أصابت بها

G. Steindorff, in *ZaE S*, XLVIII, 152 f. ; H. Kees, *Totenglauben* ..., 67 f. ; (١)
Die Götterglaube ..., 47, Jacobsohn, *Dogmatische Stellung*, 49, f. ; J. Vandier,
La Religion ..., 132 ; H. Frankfort, *Kingship and the Gods*, 61 f. ; J. Wilson and
others, *The Intellectual of Ancient Man*, 85 ; and in *Ancient Near Eastern Texts*,
p. 3n. 4 and 412, n. 9 ; L. Greven, *Der Ka in Theologie*, 1952 ; U. Schweitzer,
Das Wesen des Ka, 1956 ; J. S. F. Garnot, in *Studies in the History of Religions*, II,
1955, 14-27 ; S. Morenz, *La Religion Égyptienne*, traduit, 1962, 22A.

A. Erman, in *ZaE S*, XLIII, 14 Anm. 2 ; *Die Religion der Aegypter*, 209 f. ; (٢)
Sottas, in *Sphinx*, XII, 33 f.

H. Brugsch, *Wörterbuch* (Suppl.), 997, 1230 ; E. W. Budge, *The Egyptian* (٣)
Book of the Dead, p. LXII ; A. H. Gardiner, *Egyptian Grammar*, 1927, 172-173 ;
PSBA., XXXVI, 257 n. 3 ; A. M. Blackman, in *J. E. A.* III, 241, n. 3 ; W. C. Hayes,
The Scepter of Egypt, 79 ; J. Spiegel, *Die Idee vom Totengericht*, 9, Anm. 3 ; *Das*
Werden der Alt-Aegyptischen Hochkultur, 338, 448 f.

وكرر ياروسلاف تشرفي آراء جاردنر في الكا بحرفيتها .

Compare, J. Černý, *Ancient Egyptian Religion*, 1957, p. 82.

A. M. Blackman, «The Pharaoh's placenta», in *J. E. A.* III, 241 and note 3 ; (٤)
«The ka-house and the serdab», *ibid.*, 250 f.

طرفا من أطراف المشكلة ، غير أن تعددها يدل في الوقت ذاته على إحساس أصحابها بصعوبة الاهتداء إلى تفسير شامل أو يقيني يحل مشكلة الكا كلها ، الأمر الذي دعا كل باحث منهم إلى التردد في اختيار كلمة واحدة جامعة مانعة مترادفة لكلمة الكا ، ثم إلى تفضيل كل واحد منهم الجمع بين أكثر من رأى واحد في نظريته .

ويبدو أن المصريين القدماء لم يكونوا أقل حيرة في تكييف مفهوم الكا من الباحثين في عصرنا الحاضر . وغام عليهم أن يفرقوا بينها وبين البيا ، على نحو ما تصعب التفرقة الدقيقة علينا حتى الآن بين النفس وبين الروح . وكانت الكا أقرب إلى النفس العربية في تعبيرها عن الشخص ذاته واقترانها برغباته وغرائزه ، ثم اقترانها بالوفاة . قارن لذلك قوله تعالى في القرآن الكريم : (إن النفس لأماراة بالسوء) ، وقوله (كل نفس ذائقة الموت) . وقوله (الله يتوفى الأنفس حين موتها) . وقارن استخدام كلمة النفس في اللغة العربية الدارجة للتعبير عن الرغبات المادية في مثل : نفسى أكل ، نفسى استمتع ، نفسى أضرب . . إلخ ^(١) .

وفي سياق ما قدمناه عن الكا ، من حيث تعبيرها عن النفس والنفسية والذات ، ثم عن الطاقة أو الفاعلية بما فيها من إرادة ورغبات ، بدأنا في بحثنا آف الذكر بمناقشة ما دل عليه لفظ الكا في سياق النصوص ذات الصبغة الدينية ، مثل التراجم الخاصة ، والتعاليم الخلقية ، والأسماء الشخصية ، والأساطير الدينية ، وذلك على خلاف ما جرت عليه أغلب البحوث الأخرى من تركيز اهتمامها أساسا على النصوص الأخروية والسحرية . ويكفي الاستشهاد هنا بنماذج قليلة لما خالفنا به بقية النظريات في شأن الكا ، وندع التفاصيل لبحثنا المشار إليه .

فعلى خلاف ما ارتآه جيمس هنرى برستد من استبعاد أن تكون الكا من مقومات الكائن الحى وترجيح اعتبارها إلها حارسا يلجأ الإنسان إليه بعد وفاته ، وعلى

(١) وذلك في مقابل الطابع الممنوى القالب الروح وهى البيا في اللغة المصرية القديمة . انظر لذلك قوله تعالى (قل الروح من أمرى) ، وقولنا : صعدت روحه إلى بارئها . وانظر قولنا هفت روحى إليه ، أو مالت روحى إليه ، في تعبير الروح عن الرغبات الممنوية . وكانت هذه التفرقة بين النفس وبين الروح مجال مناقشة قديمة بين الأستاذ الدكتور محمد أنور شكرى وبيئى . وانظر ص ١٨٦

العكس كذلك مما قال به جاك فاندييه وغيره من اعتبارها شيئا خارجا عن كيان الإنسان^(١) ، نرى الحكيم المصرى يتاح حوِّب يتحدث عن الكا فى سياق تعاليمه بما لا يدع مجالا للشك فى دلالتها على نفس ونفسية الشخص الحى . ومن ذلك قوله لولده : «لا تتر وقت متعتك ، فكر به على الكا (أى النفس) إفساد وقت متعتها»^(٢) « وإذا تقاعد (المراء) عن أن يرضى خالصه قال الناس هو كا أنانية»^(٣) أى هو نفس أنانية . « وإن الكا هى الكا الحقبة التى يطمأن إليها»^(٤) بمعنى أن النفسية (الطيبة) هى النفسية التى يطمئن الناس إليها. « وإن الإساءة تبعد الكا عن محبة»^(٥) .

وعلى نفس النسق فى استخدام لفظ الكا اعتاد طلبة عصر الرعامسة على أن يحنثوا كراساتهم باهداءات يوجهونها إلى «كا» مدرسمهم ، أى إلى نفسه أو شخصه أو فاعليته ، مع وصفه بصفات الكفاية مثل *n k' n w' ikr mty* and *n k' m ikr mty* . وقد أنهى أحدهم قصة يافا بخاتمة قال فيها إنها أنت إلى خاتمة طيبة بفضل «كا» كاتب ماهر الأنامل ، كاتب الجليش . . . فلان . . .^(٦) ، يعنى بذلك نفسه .

وعلى العكس مما قال به كل من J. Greven and U. Schweitzer من أن الكا الملكية إذا ذكرت فى نص دلت على ملك متوفى وليس على ملك حى^(٧) ، نجد فى ترجمة حياة طبيب البلاط الملكى فى عنخ سخمة أنه خاطب ملكه ساحورع بقوله : « هلا سمحت كاهك التى يحبها رع وأذنت لى بباب حجرى لمقبرتى ...»^(٨)

(١) راجع ص ١٦٩ ، ١٧٠

Pap. Prisse, 188-189.

Ibid., 341-342.

Ibid., 344.

Ibid., 391-392.

See, Pap. Anastasi III 4, 11 ; 7, 10 ; IV vs. A; Pap. Bologna 1094, 11, 5 ; (٦)

Gardiner's Ostrakon 28 vs., 10, 17; *Chester Beatty Pap.*, p. 21 ; *Late Egyptian Miscellanies*, p. 38a ; Pap. d'Orbiney, XIX, 9.

Pap. Harris 500 vs. ; see J. E. A. XI, 227, 237.

L. Greven, *op. cit.*, 19 ; Schweitzer, *op. cit.*, 42.

K. Sethe, *Urkunden*, I, 38.

ومن البديهي أنه كان يرجو العطاء حينذاك من شخصية ملك حى وليس من ملك هالك . وبنفس الأسلوب جاء فى ترجمة حياة « ونى » الموظف الكبير فى أوائل عصر الأسرة السادسة أنه أشرف على حفر خمس قنوات فى صخور الجندل الأول فى عهد الملك مرينع ، ثم نسب الفضل فى المشروع إلى ملكه بقوله : « لقد نفذت كل شيء تبعا للإيجاء الذى أصدرته كاهه » ^(١) (أى كا أو شخصية الملك) . ومن الطبيعى أنه كان يتجه بولائه وإكباره حينذاك إلى ملك حى ، لا سببا وأنه يرجح أن ونى قد توفى فى عهد هذا الملك . وفى قصة سنوهى من الدولة الوسطى يقول سنوهى للملك سنوسرت الأول : « إن فرار خادمك الذى أتاه بجعله أمر تعلمه كاهك » ، « وعسى كاهك أن تجعل مصير بلنى فى وطنى » ^(٢) . وهنا مرة أخرى كان الرجل يتجه إلى كا (أى نفس) ملك حى يعاصره راجيا عفوه وعطاءه وليس إلى ملك متوفى .

وعلى شيء من التمايز مع استغلال كبير من المؤلفات العربية تفسير ما مبرو (وغيره) للكا ، لتسميتها بالقرين الذى تتخله التصورات الشعبية الحالية يولد مع صاحبه ويصونه ويتأثر بما يتأثر به ويسكن العالم السفلى ، نلاحظ من ناحيتنا أن التصورات الشعبية الحالية تتخلل قرين الطفل مختلفا فى الجنس عنه حين تقول له حين يصيبه أذى على سبيل المثال : اسم الله على أختك قبل منك . وذلك على العكس من العقائد المصرية القديمة التى تصورت الكا من جنس صاحبه وذلك بالنسبة للذكور دائما وإلى حد ما بالنسبة للإناث أيضا ^(٣) .

وبمعنى النفس والنفسية تداخل لفظ الكا فى كثير من الأسماء الشخصية المصرية القديمة ، مثل : كاوعب ^(٤) أى نفس طاهرة ، وكامنخ ^(٥) أى نفس فاضلة ،

Urk. I, 109.

(١)

See, Anc. Near Eastern Texts, p. 21.

(٢)

Urk. I, 214, 11, 12, 13, 16, 17; Mariette, *Dend.*, III, 29r, 20e ; *Edfu*, I, 240 ; *Steindorff*, in *ZAe S*, XLVIII, 157-158 ; *Wb.* V, 89, 12.

(٣)

H. Ranke, *Die aegyptischen Personennamen*, I, 339, 2.

(٤)

Ibid., 430, 3.

(٥)

وعز كا أى سليم النفس (أو النفسية) ^(١) ، ومرروكا أى محبوب النفس أو محبوب النفسية ، وشيسسكاف بمعنى عزيزة نفسه أو جلت نفسه . . . إلخ .
وبمعنى الطاقة أو القاعلية يمكن تفسير بعض الأسماء الشخصية المصرية التي تضمنت لفظ الكا ، مثل : نب كا بمعنى رب الطاقة أو رب القاعلية (وليس بمعنى الكا هو السيد ، أو الكا سيدى ، أو كا هى سيدى كما افترض كل من J. Spiegel and J. Černý ^(٢) . ومثل سخم كا بمعنى شديد الطاقة (وقد تقرأ سخم كاي بمعنى قويت فاعليتي) . ووحم كا ^(٣) بمعنى متجدد الطاقة . ونن سزر كاي بمعنى لن تهجع فاعليتي (أو لن تهجع نفسي) ^(٤) . وقال أحد الأسماء «كام عنخ» ^(٥) بمعنى الكا هى الحياة . وقال آخر «كاوزو عنخ» ^(٦) بمعنى الكا هى التي تسمح بالحياة .

وقد تكون الكا الموصوفة في هذه الأسماء هى كا صاحب الاسم ، أو تكون كا أبيه الذى سماه ورأى فيه صورة من نفسه معنى حياتها وتجدها في شخص ولده ، ولهذا الفرض الأخير رأى كل من H. Ranke, H. Junker, and B. Gunn إضافة ضمير متكلم محذوف في نهاية كل اسم ، وهذا قد يدل على صاحب الاسم أو يدل على والده . وإذا كان لنا أن نضيف شيئا آخر في هذا الصدد فهو أنه ليس من الضروري أن كل والد كان يدرك مدلول الاسم الذى يسمى ولده به ويقصد معناه الحرفي دائما فأغلب الأسماء وإن وضع القصد فيها في بداية ظهورها إلا أنه غالبا ما تختفي معانيها الحرفية وتصبح مجرد أسماء تقليدية بعد كثرة شبهها ^(٧) .

Ranke, *op. cit.*, I, 73, 23.

(١)

Compare, J. Spiegel, *op. cit.*, 219 ; J. Černý, in MDAIK, 1958, 25 f.

(٢)

H. Ranke, *op. cit.*, 338, 26 ; 339, 1.

(٣)

H. Junker, *Giza II*, 111.

(٤)

H. Ranke, *op. cit.*, 339, 17.

(٥)

Ibid., 39, 8.

(٦)

(٧) من أقدم الأسماء الشخصية التي تدخل فيها لفظ الكا أسماء كبار عصر الأسرة الأولى ، ومنهم حماكا ، نبت كا ، نس كا ... ، وأغلبها أسماء تصبب ترجمتها في حدود ما يعرف حتى الآن عن التراكيب اللفظية في عصر بداية الأسرات . وراجع عن احتمال صلة اسم الملك كا (؟) بكنية الملك

A. Saleh, *op. cit.*, p. 7.

المعرب :

وبمعنى الفاعلية كذلك أشادت الأسماء الشخصية المصرية بكاوات الآلهة لا سيما رع، ومنها : من كارع بمعنى دامت فاعلية رع ، ونب كارع أى رب الفاعلية رع .
ووسر كا رع بمعنى اشتدت فاعلية رع ، ثم وركا بتاح أى عظيمة فاعلية بتاح ،
وسوبك كا رع أى (الإله) سوبك هو فاعلية رع . وستخ كا رع أى (الإله)
سوتبخ هو فاعلية رع . . . إلخ .

وتمجيذا للقدرة الخارقة للمعبودات لم يكتف المصريون باقتراض «كا» واحدة لكل معبود ، وإنما نسب بعضهم إلى الإله رع أربع عشرة كا^(١) . وافترضوا مثلها لبعض ملوكهم^(٢) : ثم لبعض كبار الأفراد أحيانا . ولعلمهم ابتغوا أن يعبروا بتعددتها عن تعدد الطاقات ومصادر الفاعلية في هؤلاء وهؤلاء . أو تعدد الخواص الفعالة فيهم ، مع شيء من التمييز المنطقي بين المدلول الحرفي لفاعليات كاوات الأرباب وبين فاعليات كاوات البشر .

وتضمنت نصوص العصور المتأخرة ما يسمى كاوات رع بأسماء جمعت إليه آيات البأس والازدهار والرزق والجلال والاحترام والظنة والثبات (أو الدوام) والبصر (أو الفاعلية) والسمع والإدراك والتطوق الخالق والسحر والإشراق والقدرة .
(مع مرادفات أخرى تضمنت العدالة وغيرها)^(٣) .

وكان من أسماء القراعنة ما يمجّد كاوات الآلهة هذه : أى طاقاتهم وفاعليتهم ، في سياقه ، مثل : من كاو رع أى دامت فاعليات رع : ومن كاو حور أى دامت فاعليات حور .

Wb. V, 89, 8-9 ; Amarna, V, 2, 6 ; L. D. III, 194 ; Rochem, *Edfu*, I, 441 ; (١)
Dümichen, *Tempelinschriften*, I, 29, 2 ; Brugsch, *Wb. Suppl.* 1230 ; H. Kees, *Die Götterglaube* ..., 159.

E. Naville, *Dier el Bahari*, II, pl. LII ; Gayet, *Le Temple de Louxor*, p. 63, (٢)
Fig. 203 ; and compare Pyr. 396 a.

H. Brugsch, *Wb. Suppl.*, 997 f. ; E. W. Budge, *The Gods of the Egyptians*, II, (٣)
p. 300, A. H. Gardiner, in *PSBA.* 38, p. 83 ; Champollion, *Notices*, I, p. 279,

De Rougé, *Inscriptions recueillies à Edfu*, p. 1. 7 f. ; Mariette, *Dendera, Texte*, p. 200 ;
and U. Schweitzer, *op. cit.*, 73 f.

ثم وصفت النصوص المصرية كاوات الفراعنة بشيء مما كانت تصف به كاوات الأرباب ، مثل خعى كاو^(١) ، أى ظاهر الفاعليات أو ظاهر القوى ، وإمن كاو^(٢) بمعنى خنى الفاعليات أو خنى القوى ، ووركاو^(٣) أى عظيم الفاعليات أو عظيم القوى . ووصفت حاتشبوت بأنها وسرت كاو^(٤) أى شديدة الطاقات أو الفاعليات .

وجرت نصوص الدين والأساطير المصرية على المنوال نفسه فى التعبير بالكا الإلهية عن الطاقة العليا والفاعلية إلى جانب دلالتها على النفس والذات . فروى مذهب عين شمس عن الإله الخالق أتوم أنه بعد أن ذرأ ولديه شو وتغنوت ووضع ذراعه خلفهما بمقدرة الكا (أو ساعد الكا) فصارت كاهه فيهما^(٥) ، وذلك لما يمكن التعبير عنه بأنه أحاطهما بساعده بقدره الفاعلية (أو ساعد الحماية) فانتقلت طاقته أو فاعليته أو نفسه إليهما . ودعت متون الأهرام هذا الإله أتوم أن يشمل الملك ومنطقة هرمه بنفس المكرمة أى بقدره كاهه أو قدرة طاقته^(٦) . ثم خاطبت الإله جب بقولها : « أنت كا الأرباب كلهم (أى فاعليتهم) أوجدتهم ورعيتهم (أو نشأهم) وأحييتهم »^(٧) .

واعتبرت بعض النصوص المصرية الإله بتاح رب الكا الملكية^(٨) ، وذلك وصف يصعب تفسيره بغير اعتبار بتاح مصدر فاعليتها أو روحها . وقيل عن الإله آمون فى منظر للتتويج إنه وهب الملك « كا » الملكية^(٩) ، أى روحها أو طاقتها أو

Pap. Kahun, I, 1, 2.

(١)

Pyr. 1343.

(٢)

L. D. II, 12 b ; Cairo 42211.

(٣)

Urk. IV, 361, 4 ; 456.

(٤)

Pyr. 1652c—1653a.

(٥)

Pyr. 1653 b-d.

(٦)

Pyr. 1623.

(٧)

A. Scharff, in *Zae S.*, LXX, 49 ; U. Schweitzer, *op. cit.*, 72.

(٨)

Wb. V, 88, 10 ; U. Schweitzer, *op. cit.*, 59.

(٩)

فاعليتها) وليس بمعنى الاسم الحورى كما خن كل من (L.Greven and U. Schweitzer)^(١) .
ثم قبل عن رمسيس الثانى إنه كاكت ، بما يعنى أنه روح مصر أو طاقتها
(أكثر مما يعنى أنه واهب العطايا لها كما يقول قاموس برلين)^(٢) .

ونعود إلى الكا الشخصية ودورها فى حياة الإنسان وآخرته فنجد أن اقتراحاتنا
السابقة لمعانى الكا يمكن أن تفسر ما ذكرته النصوص المصرية من أن الإنسان يتلقى
كاكه (أى طاقته أو فاعليته) حين مولده بأمر الإله رع . أو الإله جب ، وبمعاونة
الربة مسخت ربة الولادة^(٣) . وأنه حين تفارقه كاهه يفقد حياته ، أى يفقد
طاقته وفاعليته ونفسه . وأنه يسعى بعد ذلك إلى كاهه^(٤) عند انتقاله إلى العالم الآخر ،
أو تسعى هى إليه^(٥) ، وحينئذ يسعى من يسعى مع كاهه^(٦) ، وتتوفر له
القدرة عن طريقها^(٧) ، فيتجه بفضلها إلى السماء^(٨) ، ويحصل بها على
غذائه^(٩) ، ويسعد معها إلى الأبد^(١٠) ، ويضعف إذا اعتراها وهن أو إذا
أقصيت عنه^(١١) .

ولصالح من انتقلوا إلى العالم الآخر اعتاد مقدمو القرابين المصريون على أن
يقدموا لقراينهم ودعواتهم وهداياهم إلى موتاهم أو يعقبوا على تقديمها إليهم :
بعبارة : "n k ; k" إذا خاطبوا المهدي إليه خطابا مباشرا ، وبعبارة "n k ; n" .

(١) L. Greven, *op. cit.*, 27 ; and see, U. Schweitzer, *op. cit.*, 52 f. ; 59 f. : «Der Horusname als Ka-Symbol des Königs».

Wb. V, 91, 5 ; 32, 14. (٢)

A. Erman, *Zaubersprüche für Mütter und Kind*, 5, 8 f. ; 26-27. (٣)

Urk. I, 50, 15 ; 71, 4, 6, etc. (٤)

Pyr., 375 b. (٥)

Pyr., 17a ; 1431a, also 826 ; 832. (٦)

Pyr., 18a—b ; 63 ; 1055a. (٧)

Pyr., 1431 b. (٨)

Pyr., 564b. (٩)

Pyr., 2028 ; Urk., IV, 499. (١٠)

Pyr., 1532. (١١)

إذا ألحقوا اسمه بها . وقد ظهرت العبارتان منذ أواخر الدولة القديمة (على العكس مما قال به شتيندورف وجاردنر عن رد العبارة الثانية منهما إلى الدولة الوسطى)^(١) . واحتملت كل من العبارتين نفس التفسيرات التي افترضناها بشأن الكا ، وحملها كل إنسان ما يتفق مع فكرته عنها وما يتبادر إلى ذهنه بشأنها . فهو قد يقولها بمعنى « إلى نفسك » كما تقول الآن على روحك ، وقد يزيد حينئذ فيصف هذه النفس بأنها نفس طاهرة أو نفس صادقة أو نفس حرة^(٢) .

أو يقولها بمعنى « إلى ذاتك »^(٣) إذا شاء أن يجعلها أكثر تأدبا من عبارة « إليك » العادية .

أو يقولها بمعنى « من أجل طاقتك » إذا تمثل في ذهنه أن دعواته وقرابينه ضرورية لتقوية طاقة المتوفى في حياته الثانية .

أو يقولها بمعنى « من أجل فاعليتك » إذا تمثل في ذهنه أن دعواته وقرابينه ضرورية لاستمرار فاعلية هذا المتوفى في عالمه الآخر .

وفي كل حالة من هذه الحالات لا يتصور المهدي أنه يقدم دعواته وقرابينه إلى جزء معين من المتوفى ، وإنما إليه ككل^(٤) . وعلى هذا الأساس خاطبت متون الأهرام القرون المتوفى بقولها « لن تغنى (وبالتالي) لن تغنى كاهك ، لأنك أنت الكا (بالذات) »^(٥) . وعلى نفس الأساس كذلك لقب المصريون كاهن المقبرة بلقب « حم كا » أى خادم الكا ، و « سخن كا » أى محتضن الكا أو راعيها^(٦) ، والمقصود بذلك أنه يخدم ويرعى المتوفى في مجمله بدعواته وصلواته وقرابينه ، ثم

(١) Cairo 1409, Pyr. 35 a—and compare, Steindorff, in *ZaE S*, XLVIII, 154; A. H. Gardiner, *Egyptian Grammar*, p. 172.

(٢) Wb. V, 87, 14 ; 88, 1 (Theb. T. 22, 124, Dyn. 18).

(٣) See also, Steindorff, *op. cit.*, 156 ; Junker, *Giza*, III, 156 ; Schweitzer, *op. cit.*, 82.

(٤) راجع أدلة هذا الرأى في مقالنا Abdel-Aziz Saleh, *op. cit.*, p. 15.

(٥) Pyr. 149 d.

(٦) Compare, Spiegel, in *ZaE S*, LXXXVI, 112 f. ; Junker, *Giza*, III, 118 ; Schweitzer, *op. cit.*, 86.

اعتبروه مسئولاً كذلك عن رعاية تمثال المتوفى باعتباره ممثلاً له ^(١) ، كما أطلقوا على المقبرة أحياناً اسم بيت الكا *het k* : ^(٢) — ويقصدون بالكا في كل هذه الأحوال المتوفى بذاته وبشخصه .

وأخذت بعض النصوص الأدبية الدنيوية المصرية بنفس الفكرة فوصفت الناس بأنهم «كاو» أى أنفس أو طاقات . و «كاو عنخو» ^(٣) ، أى أنفس حية أو طاقات حية . واعتبرت القراعتة أئمة لهم «ختيو كاو» ^(٤) ، والأرباب سادة لهم «نيوكاو» ^(٥) أى سادة الأنفس أو سادة الطاقات ، في الدنيا وفي الآخرة .

وقابل لفظ «كا» وجمعه «كاو» لفظان آخران اشتركا معهما في المبنى واختلفا عنهما في المعنى . وهما لفظ «كا» بمعنى الغذاء أو الزاد ، ولفظه «كاو» بمعنى الأقوات والقرايين وربما بمعنى الأرزاق والخيرات أيضاً . وافترض كل من أدولف إرمان وفون بسنج وجود رابطة بين الكا الإنسانية في أفرادها وجمعها وبين الكا بمعنى الزاد في أفرادها وجمعها أيضاً ^(٦) . وهو فرض مقبول ، ويمكن أن نعلل هذه الرابطة من ناحيتنا ببعض ما قدمنا به أى باعتبار الكا مصدر الطاقة والفاعلية للجسم في الدنيا والآخرة شأنها في ذلك شأن الزاد والقربان . وعبر قنان مصرى قديم عن هذا المفهوم فصور المتوفى في وضع تناول الطعام التقليدى ييسط يمناه نحو مائدة القربان ، وصور هذه المائدة على هيئة الكا ، أى هيئة ذراعين مرفوعتين ، فوق قاعدة مرتفعة . وكتب معها عبارة تقول : وضع اليد نحو كاهه «

(١) Steindorff, *op. cit.*, 155 ; H. Kees, *Totenglauben*, 182 ; Schweitzer, *op. cit.*, 88-89.

(٢) Gardiner and Davies, *The tomb of Amenemhet*, 73.

(٣) *Urk.* IV, 223, 245 ; *L. D.* III, 17e ; Mariette, *Abydos*, I, pl. 17 ; and see, *Wb.* V, 90, 5f.

(٤) *Ibidem*, and *Pyr.* 1220 d.

(٥) *Wb.* V, 89, 8-9 ; *Amarna*, V, 2, 6 ; *L. D.* III, 194 ; Rochem, *Edfu*, I, 441.

(٦) *Wb.* V, 91 f. ; A. Erman, in *ZAc S*, XLIII, 14, Anm. 2.

sd44, r k2.f^(١)، ويبدو أنه عبر بجملة وضع اليد هذه عما نعينه الآن بها من معاني التملك والسيطرة ، ورمز بها إلى استحواذ المتوفى على كاهه أى على زاده ومصدر طاقته.

ووصل فنان مصرى آخر بين المعنيين ، فصور المتوفى يد يده نحو كا ضخمة مرفوعة فوق حامل يشبه حوامل رموز الأرباب ، وتضم بين ذراعيها قرابين مادية وفيرة . ولعله رمز بها إلى النفس وإلى أنها استخلصت من القرابين ومقومات الطاقة ما يناسبها ويستوى صاحبها^(٢) .

وتشابكت المعاني السابقة نفسها فى مثل قول متون الأهرام عن الفرعون « إنه يقبض الكاوات ويرسل الكاوات »^(٣) مما قد يعنى أنه يقبض الأنفس ويطلقها ، أو يعنى أنه يقدر الأرزاق ويسطها . وفى مثل قولها عنه « إنه المشرف على الكاوات جامع القلوب »^(٤) ، ولو أن اقتران الكاوات بالقلوب هنا يرجع أنها عنث الأنفس أكثر من غيرها .

ومع كل ما قدمناه لن نجد بأسا فى الاعتراف بأن نظريتنا فى تفسير لفظ الكا مفردا وجمعا لن تحول دون احتمال تفسيرات أخرى يجانبها ، ولن تغطى كل ما ذكرت الكا به فى النصوص والمناظر المصرية وإن غطت معظمها ، وسوف نستشهد فيما يلى ببعض ما يبرر تعدد التفسيرات بشأنها .

فقد أوصى الحكيم المصرى بتاح حوتب ولده برعاية ابنه المطيع ثم عقب على هذه الوصية بقوله : « فانه ولدك الذى أنجبته كاهك (وفى مرادف آخر : الذى أنجبته لك كاهك) »^(٥) ، وذلك مما قد يوحى باعتباره الكا شيئا مستقلا عن صاحبها إن لم يعن رغبته فى أن يعتبر ولده حفيده البار قطعة من نفسه كما نقول الآن فى تعبيراتنا العربية .

ASEA, XI, 173 ; Schweitzer, *op. cit.*, Taf. V a-b.

(١)

Davies, *The tomb of Ramose*, p. 18, pl. XIX.

(٢)

Pyr. 311 a-d.

(٣)

Pyr. 267 a.

(٤)

وقارن المعاني المزدوجة المحتملة لقب الإلهى نخب كار Wb. II, 291.

Pap. Prisse, 204.

(٥)

وتضمنت بعض متون الأهرام ما يوحى باعتبار الكا في الآخرة فردا آخر خارج كيان صاحبه ، يمشی معه ^(١) ، ويمجأله ^(٢) ، ويأكله ^(٣) ، ويمجأده ^(٤) ويغفر لديه ^(٥) ، ويطهر ويطهره ^(٦) ، ويخلصه (من الوزر؟) في بركة داتى ويخفف ^(٧) لحمه ^(٨) ، ثم يتلقى رسله ^(٩) ، ويكون هذا الكا شقيقه فيتحدث عنه عند ربه ^(١٠) ، ويرعاه ^(١١) ، ويحميه بيديه ورجليه من أمامه ومن خلفه ^(١٢) . كما أشارت نصوص المقابر إلى كاوات تأخذ بيد المتوفى وتقوده إلى الأماكن الطاهرة والسبل القويمة ^(١٣) .

وقد يغطي بعض ما قدمناه من تفسيرات للكا بعض هذه الصور المعقدة ، لاسيما إذا قدرنا أمرين ، أولهما أنه كما اقترض أحد متون الأهرام أن المتوفى سوف يطهر كاهه ، اقترض في الوقت ذاته أنه سوف يطهر قدرته *sem.f* ^(١٤) ، وليست القدرة بشيء خارج عن الشخص نفسه ، وهكذا كانت الكا . أما الأمر الآخر فهو أننا نتحدث في اللغة الدارجة الحالية عن النفس (مرادف الكا) بعبارات تصورهما كأنها شيء مستقل عن صاحبه مع أنها جزء منه أو هي هو ، وذلك حين نقول عن شخص ما إنه قال لنفسه ، واختلى بنفسه ، وراجع نفسه ، وشاور نفسه ، وأجبر نفسه ، ونعني بذلك عملا يقوم به فرد واحد بنفسه وليس اثنين .

Pyr. 1575 a. (١)

Pyr. 789 b, 1357 b. (٢)

Pyr. 264b, 789b, 1357b. (٣)

Pyr. 2051 b. (٤)

Pyr. 894. a-b. (٥)

Pyr. 789. (٦)

Pyr. 372, 837, 839. (٧)

Pyr. 136 b. (٨)

Pyr. 816 d. (٩)

Pyr. 63. (١٠)

Pyr. 18a. (١١)

Urk. I, 189 ; Mariette, *Mastabas*, 10 D ; Junker, *Giza*, III, 118 ; Gunn, (١٢)

Teti Pyramid Cemetery, 122 ; Petrie, *Deshasheh*, pl. 28 ; Newberry, *Bersheh*, I, 34 ; *Beni Hasan*, II, pl. 6 ; Capart, in *ZAeS*, XI, II, 144, f.

Pyr. 837, 839. (١٣)

وعلى الرغم من هذين التعيينين المنطقيين ، فإن دواعي الحيلة تدعو إلى عدم إغفال تأويلات أخرى إغفالا تاما بعد شيوعها ، ومنها اعتبار مثل هذه الكاكا سلفية ترى الخلف في الآخرة وتحن إليهم . ثم هناك ما قال به ماسيرو وأصحابه من اعتبار الكا نموذجاً أثريا ملونا لصاحبه يشبه القرين . ويبدو أنه بنى مفهوم نظريته على أساس ما جرت عليه بعض المناظر المصرية من تصوير الكا الملكية على هيئة طفل عار مكتمل التكوين يشبه الملك ويجاوره حين تشكيل الإله خنوم له ، وحين ولادته ، ثم خلال طفولته ^(١) . وتصويرها إياه أحيانا أخرى يتبع الملك ، ويرفع اسمه على رأسه ويحتضنه من خلفه باسم « كانيسو عنخ » أى كالمالك الحى ، أو الكا الملكى الحى ^(٢) . فهل يدل ذلك على أن المصورين المصريين اعتبروا الكا قرينا للملك كما قال ماسيرو ، وبما خارج كيانه ، كما قال فاندنيه وغيره ؟ أم نفترض من جهة أخرى أن تصويرهم إياه هكذا كان مجرد تعبير فنى لإظهار الكيان الداخلى للملك بجانبه ، وهى طريقة قد تكون غريبة على الذهن المعاصر ولكنها كانت متبعة فعلا فى مصر القديمة حين تصوير بواطن الأشياء بجانبها لتأكيد وجودها ، وذلك مثل تصوير أكوام الفلال بجانب شونها أو فوقها أحيانا بينما هى فى الحقيقة بداخلها ^(٣)

وكان من مشاكل الكا فى العقائد المصرية ما أوحى إلى فلندرز بترى باعتبارها روحا ممثلة للأجداد ، وقد أيدته فى ذلك هرمان يونكر إلى حد ما ^(٤) . وإذا قبلنا الجانب المنطقى من هذا رأى أمكن أن نضيف أنه ما من بأس من اعتبار الكا فى بعض النصوص تشير إلى عنصر أسرى يسرى بين الوالد والولد ويحمل نفس

(١) Jequier, *Le Temple du Pepi*, II, p1. 30 ; Naville, *Dier el Bahari*, II, p1. XLVI f ; Gayet, *Louxor*, p1. LXIII f.

(٢) L. D. III, 34 b ; Steindorff, *op. cit.*, 157-158.

ويقترح B. Bruyère تفسيراً لبعض صور الكا التى تتبع الملك إلى قبره وتلقب بلقب كانيسو عنخ ويكتب معها فى السرخ اسم « كانتخت » أحيانا ، وهذه فى رأى تمر عن البديل أو القرين الذى يضى به من أجل الملك . ولو أن أدلته على ذلك غير كافية .

Rapport sur les fouilles de Dier el Medineh, 1952.

(٣) Wreszinski, *Atlas*, 63, 245 ; Schaefer, *Von aeg. Kunst*, Taf. 45 ;

ASEA, XLVIII, 177, Fig. 17 ; see also. Quibell, *The tomb of Hesy*, p1. XXI-XXII.

(٤) Junker, in *Mitt. Kairo*, IX, 26-27.

الدلالات التي اقترحناها له . وقد عبر عن هذا المفهوم عدد من متون الأهرام كان منها ما يقول للفرعون : « ادع كاهك ، وهو أوزير عساه يحميك من غضب الموتى » ^(١) . ومنها ما يقول : « لن يتأى حور عنك ، لأنك كاهه » ^(٢) « وقد دافع حور عنك وتصرف من أجل كاهه التي فيك (أو التي منك : *im*) فارض إذن باسمك الكا (الفس) الراضية » ^(٣) ومنها ما يقول : « قد نافع حور عنك (في الدنيا) فكن كاهه (في الآخرة) » ^(٤) . وقد يتصل بنفس الفكرة ما أسلفناه (ص ١٧٤) عن احتمال دلالة بعض الأسماء الشخصية على اعتقاد الوالد باستمرار كاهه في شخص ولده .

وما من بأس كذلك في احتمال دلالة الكا في بعض النصوص والمناظر الملكية التي صورت «كا» الملك الحاكم ترافقه إلى قبره ^(٥) ، على «كا» سلفية ترعاه وتكمل له الحماية . لا سيما إذا صور رمزها فوق حامل مقدس يوحى بقداسة أصلها ^(٦) ، أو أضيف إليها مخصص الربوبية ^(٧) . وقد وصف ملوك مدينة به (بوتو) القدماء أسلاف فراغة العصور التاريخية بأنهم «كاوات به» ، ووعدت متون الأهرام الفرعون باستقرار كاهه بينهم وخلودها بنخلودهم ^(٨) . وقالت «إن بهي هذا قادم إليك ، أبيه . إنه قادم إليك أوزير ، ليعيد إليك كاهك » ^(٩) . ولو أن الكا في هذه النصوص الثلاثة يمكن أن تخضع لتفسيرنا العام وتعبّر عن الطاقة والفاعلية أيضا ، فكأوات مدينة بوتو هم طاقتها القداس ، وإعادة الملك المتوفى كآبيه أوزير إليه قد تعني إعادته الطاقة التي استمدّها منه وحكم بها على الأرض .

<i>Pyr.</i> 63 a.	(١)
<i>Pyr.</i> 610 c.	(٢)
<i>Pyr.</i> 647 d, also 582 c.	(٣)
<i>Pyr.</i> 1609 b, 1831-132.	(٤)
Steindorff, <i>op. cit.</i> , 157 ; <i>L. D.</i> III, 20a, 21, 55b, 78a, 113a.	(٥)
<i>Pyr.</i> 561, 564b, 908, 1275a, 1357, 2051 a.	(٦)
<i>Pyr.</i> 564b ; <i>Wb.</i> V, 86.	(٧)
<i>Pyr.</i> 561.	(٨)
<i>Pyr.</i> 1328 a.	(٩)

نتهى إذن إلى أن الكا الشخصية لم تكن شيئا خارجا عن كيان صاحبها في دنياه ، وإنما هي على الأرجح نفسه وذاته وطاقته وفاعليته الذاتية ، تفارقه حين الوفاة ثم تعاوده حين البعث فينتفع بمقاماتها انتفاعا يناسب العالم غير المنظور الذى تصورت العقائد المصرية أنه سوف يعيش فيه . ولما كانت الكا هي مصدر الطاقة في الإنسان اعتبرت قبسا ربانيا في داخله ^(١) ، ولما كانت هي نفسه ومصدر رغباته تحدثت النصوص عن حاجتها إلى البراءة في الآخرة ^(٢) ، أى جعلتها شريكا لصاحبها في المسئولية الخلقية أمام بارئها . ومع هذه الكا الشخصية تمت بعض النصوص عن الاعتقاد في كا أسرية أو سلفية تسرى بين الوالد والولد في دنياه وتحن إلى الخاف وترعاه في أخراه ، فضلا عن كا إلهية تجل في نفسها وذاتها وطاقاتها وفاعليتها عن كاوات البشر .

وإذا افترضنا ترابطا بين هذه الأنواع الثلاثة من الكاوات : أى الأنفس والطاقات التى امتدت من الخالق إلى من صدر عنه من الأرباب ثم إلى الفراعنة والناس ، وربطنا ذلك بما ذكره المذهب المنفى المصرى في تفسير نشأة الوجود من اعتبار الإله الخالق « العظيم جدا » مصدرا خالدا لكل الطاقات المعنوية والعضوية في الوجود ، فهل يمكن أن نرى في كل ذلك أصلا قديما متواضعا استفاد به وطوره الفيلسوف السكندري الموطن أفلوطين فيما خرج به (في القرن الثالث الميلادى) عن النفس الكلية واعتبار النفس طاقة ألقتها الروح ، وما يتصل بذلك من تفسيرات في نظريته عن الفيض ؟ ذلك فرض محتمل وإن لم يكن بالوسع تأكيده .

وقد قال بشيء من الترابط الذى افترضناه بين أنواع الكا باحثون آخرون (راجع ص ١٦٩) ، وهؤلاء يمكن أن نستبعد من آرائهم رأى ألكسندر موريه عن الربط بين الكا المصرية وبين عقيدة المانا في المذاهب الطوطمية من حيث اعتبارها

A. Erman, in *Sitz. Berl.-Akad.*, 1924, 86 f.

(١)

Pyr. 935 a.

(٢)

روحا علوية سرت بين الآلهة والناس ، إذ لا نجد دليلا صحيحا يرجع أخذ المصريين القدماء بالعقائد الطوطمية وتوابعها ^(١) .

٢٠

البا (الروح) :

لم يكن تعريف البا أقل غموضا من تعريف الكا في المذاهب المصرية القديمة . وإن جرت العادة على ترجمته اصطلاحا بمعنى الروح . وقد نسب المصريون إلى الأرباب وإلى الناس . ورسخوا لفظه بصورتين صورة طائر أسود يتدلى هذب تحت عنقه ^(٢) ، وصورة مبخرة صغيرة . وأضافوا إليه في بعض أحواله مخصص الربوبية تلميحاً إلى طبيعته القدسية ^(٣) . وقليل ما أضافوا إليه حروفه الهجائية ^(٤) . ولستأ ندرى إن كانوا قد استخدموا صورة طائرهم ذى الهذب لقيمته الصوتية وحدها ، أى لأن اسمه « با » يشبه اسم البا البشرية : أم لأنهم تخيلوا خاصية مشتركة جمعت بينه وبينها . كالاطمئنان مثلا إلى الحياة الأرضية مع الخلفة في الوقت نفسه . القدرة على التحليق في الأجواء العليا . وحور كنية الدولة الحديثة وجه طائر البا إلى وجه إنسان ، وتخلوا عن هذبه : وميزوه أحيانا برفع كفيه البشريتين في هيئة الابتهاال والدعاء . وعامل هؤلاء وهؤلاء لفظ « با » معاملة المذكر : وإن كنا سوف نعامله فيما يلي معاملة المؤنث أحيانا لنفس الأسباب التي أسلفناها بشأن اسم الكا (ص ١٦٨) .

لم يظهر لفظ « با » في النصوص الدنيوية المصرية إلا لاما ، ومن استعمالاته المبكرة قضمينه في اسم « خع با » أحد فراغة عصر الأسرة الثالثة ، وهو اسم

(١) راجع عن مناقشة هذا الرأي : عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها ،

القاهرة ١٩٦٢ - ص ٢١٢ - ٢١٣

and see, N. W. Thomas, «What is the Ka ?», in *J. E. A.* VI, 265 f.

(٢) L. Klebs, in *Zae S.*, LXI, 106 ; ASEA, 1930, 1 ; Otto, in *Zae S.*, LXXVII (1942), 78 f.

Pyr. 854 a.

(٣)

Pyr. 1472 ; 1144 (b ; f).

(٤)

يعنى « تجلى الروح (أو تجلى روحا) »^(١) ، ويحتمل لفظ الروح فيه تفسيرين : فهو قد يرمز إلى ما تخيله أهله في ملكهم الحديد من روحانية وقداسة ، أو يرمز إلى اعتقادهم بتجسد روح السلف فيه ، لاسيما روح ملكهم الأسطورى المؤله « حور » ذلك الذى أكد « خع با » صلته به باتخاذ لقب « حور نوب »^(٢) ، وذلك للمرة الأولى فى الدولة القديمة .

واستخدم أديب من العصر الأهناسى « لفظ « با » فى النص الأدبى المعروف باسم حوار الياثس من الحياة ، وأجرى حوار ه بين رجل مصلح سُم عيوب الحياة فى عصره وبين روحه (با) ، وجعل الروح كائنا واعيا يجادل صاحبه كأنه شخص آخر ، واعتبر ما بينهما صراعا نفسيا كان يعتمل فى داخلية الرجل بين مذهبين ، أحدهما واقعى منشأه عبر عنه منطق حاله . والآخر قدرى متواكل متساهل عبرت عنه أحاديث باهه أى روحه^(٣) .

ولأمر ما تحدثت نصوص الآخرة فى عصور الدولة القديمة عن « با » الفراعنة والآلهة أكثر مما تحدثت عن « با » الأفراد . فلما انتهت أيامها بتفتت العقائد الملكية وشيوعها استعارت متون التوايت فى عصر الانتقال الأول وعصور الدولة الوسطى صفات البأ الملكية القديمة ، ونحلتها لكبار الأفراد ، واستمر هذا الاتجاه فى سبيله حتى أصبحت نصوص الدولة الحديثة ومناظرها أكثر صراحة فى التعبير عنه ، فأفاضت الحديث عن « با » الأرياب و « با » الإنسان بوجه عام .

وليس من بأس فى تطبيق المفهوم العرنى للفظ الروح على البأ المصرية ، من حيث اعتبارها جوهرها قدسيا خالدا ذا كيان معنوى غامض ، واعتبارها معبرة عن ماهية ما أسندت إليه من المسميات معنوية كانت أم مادية (كما نتحدث الآن

(١) انظر أيضاً : يرون ونيس حين يظهر روحاً (*Py. 394 (B. b.)*)

(٢) Petrie, *History ...*, 10th. ed., 77; H. Müller, *Die Formale ...*, 56-57.

(٣) عبد العزيز صالح : الحوار فى الأدب المصرى القديم - المجلة - سبتمبر ١٩٥٧ -

ص ١٦ - ٢٨

A. Schaefer, *Der Bericht über das Streitgespräch eines Lebensmüden mit seiner Seele*, 1937; R. O. Faulkner, «The Man who was tired of life» in *J. E. A.* 1956, 21 f.

عن الروح المصرية وروح القانون . . . وهلم جرا) . ثم من حيث تعبيرها عن خصوصية الفرد وجوهره وارتباطها برغباته المعنوية ، واقرانها بعالم السماء . ولكن بغير أن نتوقع أن يغطي هذا التفسير كافة الوظائف التي وصفت « الباء » بها في النصوص والمناظر المصرية القديمة .

ومن أرق ما صورت متون الأهرام « با » الأرباب به ، عبارة سبحت بها إله الشمس في فترة الشفق قاتلة له : « عز وجهك أيها الروح (با) في احمراره »^(١) وكأنها أرادت بذلك أن تنفذ بتسييحها من خلل كوكب الشمس المادى الظاهر إلى الروح المعنوى الذى يتحكم فيه ويخلع لونه الأحمر عليه^(٢) (إن لم تدل على معنى آخر تردد صده منذ عصور الدولة الوسطى وسوف نعرض له في ص ١٩١) .

واعتبرت متون الأهرام « با » القراعة عنصرا يفارق صاحبه حين الوفاة ويتخذ سبيله إلى السماء ويحيا بين أربابها وبين نجومها^(٣) . وكان لهذا التخيل صلتها بوصف السماء بأنها ذات ألف روح^(٤) ، وعدد الألف هنا يعبر عن الكثرة العديدة دون التحديد بطبيعة الحال . وتأرجحت هذه المتون في تصوير روابط الباء بصاحبها بين المعنوية وبين المادية ، فروى أحدها عن الفرعون أنه « أتت به روحه » ولعله غنى بذلك أن روحه الطيبة أو روحه القوية هي التي زكته في الارتفاع إلى العلى وإلى عالم الأرباب^(٥) . وقال آخر : « استخلص الأرباب

(١) Pyr. 854 a, 285 d ; see also C. T. 94, 69 (L. Spéleers, *Textes des Cercueils au Moyen Empire Egyptien*, 58, 321) ; H. Kees, *Farbensymbolik* ..., 448.

(٢) انظر أيضاً : « تتحدث روح رع على قرصه وتصدر الأوامر إلى المحيطين بها عن أسرار ساكن السماء .. وهم يتعبون حرارته ، وروحه تنطلق خلفه (خلف قرصه) » و « روح السماء يامن يسيطر على الأفق ، وظلك يعبر مناطقك الخفية ، وبدنك للأرض » و « التهليل لروح رع في السماء والخوف أمام بدنه في الأرض » .

Piankoff, *op. cit.*, 367, 176, 193.

Pyr. 723, 763, 904, cf. *Wb.* I, 411, 15.

Pyr. 785 b, 1303c.

(٣) Pyr. 250 d. — وعقب النص على ذلك بقوله « وزكاه سره » — قارن كذلك النص الذى وصف رعية أهل السماء حين يشهدون (الفرعون) قد تجل روحاً في إهاب إله ، وإن كان هذا الإله قد وصف بأنه يحيا على آباته ويلتهم أمهاته Pyr. 393 a-394b.

(الفرعون) بروحه إلى السماء فصار روحا بينهم^(١) . وقال غيره مخاطبا الفرعون : « روح ينبغي أن تكون وأنت روح ، شديد البأس ينبغي أن تكون وأنت شديد الأيد »^(٢) .

وتخطت طائفة أخرى من متون الأهرام صورها المعنوية إلى تصورات أخرى مادية ، فقال أحدها يخاطب الفرعون بقوله « روحك لك في بدنك »^(٣) ، أى أنه تحيل للروح مكانا في كثافة البدن .

وتحدثت بضعة متون عن عمليات للروحة ، فقال أحدها للمتوفى « انهض إلى خبزك الذى لن يحف وشرابك الذى لن يأسن حتى تصبح روحا به ، وتيقظ وتتجلد . . . »^(٤) ، وذلك مما يعنى أنه اعتبر الماديات وسيلة من وسائل بلوغ الروحانية واستمرارها .

وعلى نحو ما تحيلت متون الأهرام استمرار النفس (الكا) بين السلف وبين الخلف ، تحيلت للروح الدور نفسه ، فقالت : « تعال أوزير إلى روحك ، الروح بين الآخو (أى بين الأطياف النيرة) ، فلسوف تتأيد بذلك مكانته (أى مكانة الروح أو مكانة صاحبها) »^(٥) .

وهكذا كان الشأن بالنسبة لنصوص الدولة الوسطى في تصويرها لطابع الروح وعلاقتها بصاحبها في أخرا . . . فالى جانب ما أكدته لها من خلودها المعنوى في السماء ، جعلتها هى والكا صنوان في تقبل القرايين من الأحياء وفي رحاب الأرباب ، فقال خيتي فرعون أهناسيا لولده : « إن الروح تقصد المكان الذى عرفته ، وإن

Pyr. 799 c. (١)

Cf. Spiegel, *op. cit.*, 332. (٢)

Pyr. 753 a. (٣)

Pyr. 859 a ; See J. H. Breasted, *The Dawn of Conscience*, 48-49. (٤)

ولله أراد بكلمة « با » هنا معنى القوة (راجع ص ١٩٣) فيكون معنى النص « .. حتى تقوى وتيقظ وتتجلد » .

Pyr. 215 b. (٥)

تضل عن مسالك الأمس ولن يصدها سحر حين تهرع إلى من يهبونها الماء»^(١) .
وقال أحدهم في متون التواييت : « أبسط يدي اليوم نخوك ، يوم التقدمة لكاهك
وباهك »^(٢) ، أى أبسط يدي لك بالدعاء وبالقربان من أجل فاعليتك ومن
أجل روحك . وخاطبت نفس المتون أصحابها بقولها « روحك على الأرض ، وجسدك
على التراب »^(٣) . وقولها « روحك على الأرض وظلك في القبر (أو في
الخفاء) »^(٤) ، أى أنها اعترفت بالفصل بين المادة وظلها من ناحية وبين الروح
من ناحية أخرى . ولكنها للغريب ربطت الروح بعالم الأرض ، وإن كان من
المحتمل أنها عنت بذلك أحد أمرين آخرين وهما تأكيد قدرة الروح على مشاركة
الأحياء حياتهم على الأرض ، وتأكيد وجودها بينهم في شخص ابن صاحبها^(٥) .

وميزت نصوص الدولة الحديثة بين الكاويين البا في مثل قولها :

wsr kī.k, inw bī.k : أى اشتدت فاعليتك (كاهك) ، ومميزت روحك
(باهك)^(٦) .

وقولها : sw 3 bī.f shlp kī.f : أى تقدست روحه (باهه) واطمأنت
نفسه (كاهه)^(٧) .

واحتفظت بعض هذه النصوص للبا بقدرة ذهنية في الآخرة ، فقالت على
لسان المتوفى وهو يخاطب أحد المسيطرين على مسالك الآخرة : « افتح سيلا لروحي
حتى تفسر حديث أوزير لأصحاب الأماكن الخفية »^(٨) . وروت عن الأبرار
أن « أرواحهم تتحدث عنهم في الآخرة »^(٩) .

(١) Pap. Petersburg, 1116 A, rt. 52-53. وقارن كذلك قوله « ينبغي أن يفعل

إنسان ما يصلح روحه (عن طريق) خدمة الكهنة الشهيرة ولبس النمل الأبيض » Ibid., 64.

Textes des Cercueils, Discours 45, 193. (٢)

Ibid., Disc. 20, 56. (٣)

Ibid., 2, 8 and sec, Speleers, op. cit., p. 106 f. (٤)

Textes des Cercueils, Disc. 34, 128 ; 35, 130 ; 38, 162. (٥)

Wb., V, 87, 1 (Theb. Grab Nr. 68—517. 523—D. 18/19). (٦)

Ibid. (Med. Habu 803 Raum 44). (٧)

B. D. Ch. XCII, 9-10 ; B. Gunn, Syntax ..., 163. (٨)

Plankoff, op. cit., 248. (٩)

وربطت بعض مناظر الدولة الحديثة بين بلوغ الروحانية وبين طقوس دينية تؤدي من أجلها فاحتفظت مقبرة رعمس وزير أمنحوتب الثالث بمنظر يصوره بين كاهنين يصبان فوقه ماء طهورا ويرتلان عليه دعواتهما . وعنون الفنان هذا المنظر بأنه منظر « تمهده يوم مولده روحا (با) قلمسية مؤهلة ، (ويوم) تقديمه بين الآخر (أى بين الأطياف النيرة) »^(١) *rrniet. f hrw n ms(w)t. f r b i ; pr ntry shnwt. f m-m i hio* أى أنه اعتبر العملية التى قام الكاهنان بها قد استهدفت تخليص رعمس من ماديته وإظهاره فى خلق جديد وفى صورة تليق بروحانية الآخرة .

واتسعت التصورات الدينية منذ الدولة الوسطى وخلال الدولة الحديثة بخاصة ، فى تصوير آفاق الروح . فتمتت أرواح البررة بالكفاية والفضل^(٢) ، وعينت لها أعيادا تعرفها وتجتمع فيها^(٣) ، ونحلت لها حرية التنقل حيث شاءت والتشكل بأى صورة شاءت^(٤) . لا سيما صورة الطائر . فصورتها تحط طورا على شجرة قرب مقبرة صاحبها . وطورا ترتوى من بركتها ، وطورا تنساب إلى مدخل القبر وتنزل فى بئر الدفن . وطورا تحط على الجسد وتلبسه ونحيه^(٥) ، وطورا ترف على قمة الهرم الذى يعلو المقبرة عند شروق الشمس^(٦) ، وتحقق بذلك أمل صاحبها فيما عبرت عنه متون التواييت وكتب الموتى باسم الخروج بالهار^(٧) ، وحينذاك قد تصحب إله الشمس فى موكبه « على حين يبقى جسدها فى مكانه »^(٨) . على حد تعبير المصريين . وطورا تنصرف الروح إلى عبادة ربيها^(٩) ، وطورا

Davies, *The Tomb of Ramose*, p1. XXI, p. 20. (١)

B. D. Ch. I, 30 f. (٢)

B. D. Ch. XCII, 5-6, 8 ; Piankoff, *op. cit.*, 37. (٣)

B. D. Ch. XV, 18 ; LXXXIII ; K. Sethe, *Die Sprüche frü das Kennen der Seelen der heiligen Ortes*, Leipzig 1925. (٤)

B. D. Ch. LXXXIX, 1, 5-6, 12 ; Piankoff, *op. cit.*, 78 ; London Stele 599. (٥)

Vatican 127 A (5), D. 18. (٦)

Textes des Cercueils, 93-97 ; etc. ; B. D., Ch. I ; XCII ; etc. (٧)

B. D. Ch. LXXXIX, 10-11 ; XCII ; Piankoff, *op. cit.*, 135, 219, 322, 328, 331, 336. (٨)

Pap. of Ani, p1. 33-34 ; Piankoff, *op. cit.*, 353. (٩)

تكون مع ابن صاحبها في دنياه بحيث ترعاه وتؤيده وبحيث تسمح له بأن يعتبر نفسه «الروح الحية» لأبيه على الأرض^(١). وقد تحضر تقديم القرابين باسم صاحبها^(٢) وتنفع بها انتفاعا يناسبها ويناسب العالم غير المنظور الذي تعيش فيه.

وقضمت متون التواييت وكتب الموتى تعاويذ تحول دون احتجاز الروح في الأرض وتحول دون سلبها من صاحبها^(٣)، وتعاويذ أخرى ترشدتها إلى صاحبها وتصرفها إليه إذا تباطأت عنه^(٤).

وتوسع أهل الدولتين الوسطى والحديثة في تصوير مفهوم البأ. فاعتبروها معبرة عن مظهر ما أسندت إليه وعن آيته^(٥). فضلا عن تعبيرها عن روحه وجوهره، ماديا كان أم معنويا. عاقلا كان أم غير عاقل. فاعتبروا الظلام «بأ» الليل، أى مظهره (bꜣ ꜥꜣ n Kꜣw grh)^(٦). واعتبروا الهواء «بأ» الإله شو، أى المظهر الدال على وجوده^(٧). وعملوا «بأ» الإله رع في أكثر من مظهر من مظاهر دنياه. فتمثلوها في كوكب الشمس وفي طائر البنو وفي فاعلية السحر^(٨).

واعتبروا اليم «بأ» الإله حوح أى مظهر وجوده. واعتبروا الماء «بأ» نون أى آيته (bꜣ ꜥꜣ n Nꜣwꜣ mꜣ)^(٩). وكان نون عندهم أصلا للوجود. وتقبلوا نجم الجوزاء «بأ» الإله أوزير. أى آية خلوده. واعتبروا نجم الشعرى «بأ» الربة إيسة أى مظهرها لبهاثا ونورها. واعتبروا الإله حور (ومن يقوم مقامه

Textes des Cercueils, Disc., 34, 128 ; 35, 130 ; 38, 162. (١)

Ibid., Disc. 45, 193 ; B. D. Ch. I, 34-36 ; Piankoff, op. cit., 192, 193, 243. (٢)

B. D., Ch. LXI ; XCI ; XCII, 8f. ; Piankoff, op. cit., 129. (٣)

B. D., Ch. LXXXIX, 2, 5-6. (٤)

A. H. Gardiner, in P. S. B. A., XXXVI, 258 ; Egyptian Grammar, 1927, 173. (٥)

The Book of the Cow, see, Piankoff, op. cit., Fig. 157, p. 225. (٦)

Wb. I, 411, 14 ; Piankoff, op. cit., 225. (٧)

Wb. I, 411, 13 ; Urk. IV, 48: Dester., 87 ; Sonnenlit., 206 ; Badge, Papyrus of Ani, p. 620, 552 ; Piankoff, op. cit., 189, 193, 225, 274. (٨)

Piankoff, op. cit., 225. (٩)

من الفراعنة) البأ الحية لأبيه أوزير على الأرض^(١) . واعتبروا التساح «بأ»
المعبود سوبك ، أى مظهره المختار أو آيته في الماء^(٢) . واعتبروا هيئة التيس
«بأ» رب جلد (وهو أوزير رب منديس)^(٣) . واعتبروا الفحل سماور «بأ»
المعبود جب^(٤) ، أى مظهرها من مظاهر قدرته . واعتبروا الفحل حب (أييس)
بأ المعبود بتاح ، أى آيته أو رسوله على الأرض^(٥) .

ترجم إيرهارد أوتو مفهوم البأ بأنه Lebenskräfte واقترض له ثلاثة وجوه
اثنين يعينان المظاهر الخارجية للحياة وثالثا يدل على حفظها الروحي وخصائصها
الدينية^(٦) . وعارضه يواقيم شيجل ورأى أن إطلاق اسم «بأ» على إله أو ملك أو فرد
عادى أو بخاد يعنى أنه مجرد حامل لقوة ربانية ، أو هو جسد وتجسيد لها^(٧) . ورتب
شيجل على هذا الأساس أن المصريين اعتبروا الفرعون «بأ» لأنه حامل التاج المقدس ،
وأنهم رمزوا إلى ملوك ما قبل الأسرات في مدن أونو وونو وبه ونخن . باسم «باو»
لأنهم كانوا في رأيه ممثلين للأرباب على سطح الأرض وحاملى رسالتهم . كما لقبوا
المعبود أوزير بلقب «بأى» ، وهو لفظ يعنى الخفة . باعتباره حامل الملكية القديمة
أو حامل شخصية أبيه جب رب الأرض . وأطلقوا على يد الأداة الموسيقية التى كانوا
يستخدمونها في أعياد الربة حتحور (وهى آلة الستروم) اسم «بات» لأنها تحمل
رأس المعبودة حتحور المشكل فوقها وتحمل قداستها . واسترسل شيجل في
استشهادات أخرى لا تخلو من جهد ، ولكن أغلبها يمكن أن يفسر بغير ما فسر به ،
كما سيتضح بعد قليل .

(١) راجع حاشية ١ ص ١٩١

A. Erman, in *Sitz. Berl. —Akad.*, 1916, 1148. (٢)

W. Budge, *Pap. of Ani*, p. 569, etc. ; Piankoff, *op. cit.*, 225. (٣)

B. D. Ch. XVII, 116 (Budge, *op. cit.*, p. 397). (٤)

Harris, I, 449 ; Vatican 127 ; A. Erman, *op. cit.* (٥)

Eberhard Otto, in *Miscellanea Gregoriana*, 194, 151 f. ; in *ZfA S*, LXXVII, (٦)
(1942), 78 f., and see, *Le compte rendu de J. Capart*, in *Chronique d'Egypte*, 1942, 104.

J. Spiegel, *Das Werden der Alt-Aegyptischen Hochkultur ...*, 330 f. (٧)

وعلى نحو ما تخيل أنبا رع لإلههم الأكبر أربع عشرة كا . اقترضوا له كذلك سبعة أرواح^(١) ، تأكيداً منهم لخلوده وتعدد آياته .

وعلى نحو ما احتمل لفظ «كا» وجمعه «كاو» أكثر من معنى . احتمل لفظ «با» وجمعه «باو» معاني أخرى غير الروح بأحوالها المختلفة . فعبّر مفردة عن القدرة والسمعة^(٢) ، وكان ذلك أساساً فيما يبدو لما خاطبت متون الأهرام الفرعون به باعتباره أوزير ، حين قالت : «استخلص (حور) عينه بيده ووهبك إياها ، فكن «با» بها»^(٣) ، وأرادت أن ترمز بذلك إلى وفاء الابن لأبيه واستعداده لأن يهبه أعز ما لديه مثلاً في عبته التي سوف تعيد قوته إليه ، أو مثلاً في تاجه الذي سوف يعيد هيئته إليه . وأكدت كتب الموتى هذا المعنى الأخير حين قالت «إن ما فعله حور من أجل أبيه هو أنه هباً البأ (له) بعد أن أصلح التاج» ، أى هباً له القدرة والهيبة بعد أن استرجع له تاجه . وعقب حور على ذلك بقوله «... وقد خلصتك ممن تأمروا ضدك وجعلتك «با» أنت وما يتعلق بك» .

وعادت متون الأهرام فعبّرت عن جلال (الفرعون) المتوفى في الآخرة بمثل قولها : «bꜥ. f ꜥp. f» ، أى قدرته فوقه (أو تعلوه قدرته) ، ويحضره على جانبيه^(٤) . وبمثل قولها : «bꜥ. k m kꜥ»^(٥) . وتحتل هذه العبارة الأخيرة أكثر من معنى . فهي قد تعني قدرتك مثل (قدرة) رع ، أو روحك مثل (روح) رع . أو تعني روحك من رع .

ويبدو أن أمثال هذه النصوص التي أدى فيها لفظ «با» معنى القدرة ، فعلاً واسماً وصفة . هي التي صرفت شبيجل إلى ما ارتآه من معنى حامل القدرة : وإن أسرف في تطبيقاته .

(١) أدولف إرممان : ديانة مصر القديمة - ص ١١٢

ولسنا نفرض إن كان تمييز السبع أرواح أصلاً لما يتخيله العامة حتى الآن لأرواح القنوط ذات الصلة القديمة برموز رع ، أم أن تخيلهم هذا هو وليد ملاحظتهم السطحية لقدرة القنوط على النهوض من الكبوة الميتة فيما لو سقطت من حلق ، نظراً لمرونة أجسامها .

Wb. I, 411, 15.

(٢)

A. Piankoff, *op. cit.*, 163.

(٣)

Pyr. 992 c, 1472.

(٤)

Pyr. 2110.

(٥)

وعبرت صيغة الجمع « باو » عن الأرواح في مثل حديثها عن « باو أونو » ،
و « باو ونو » و « باونخن » و « باوبه » ، أى أرواح ملوك فجر التاريخ في كل من
مدن عين شمس ، والأشمونين (أو ما يجاورها) ، وما يقابل الكاب قرب إدفو ،
وفي تل الفراعين أو تل إبطو الحالية ^(١) . ثم عبرت النصوص باللفظ نفسه « باو »
عن القدرة كما عبر مفرده ، ومعنى آخر عبرت به عن مجموعة الصفات التى تؤدى
إلى القدرة ^(٢) ، لاسيما بالنسبة للآلهة والفراعة .

الآخ (أو النورانية) :

ظل « الآخ » أكثر العناصر المعنوية الثلاثة غموضاً ، ويبدو أنه كان يعنى قبساً
إلهياً ، وكياناً نورانياً ، يتحول الأبرار إليه في أخراهم ويعرفون به . وعبرت اللغة
المصرية بلفظ « آخ » عن فضائل معنوية كثيرة مثل الصلاح والنفع والإخلاص
والنبالة والشرف والقداسة والجلال والبهاء فضلاً عن الروحانية ^(٣) . ويبدو أنه
كان لاشتقاق هذا اللفظ صلة بكلمة آخو التى تعنى ضوء الشمس ونورها ، وكلمة
آخت التى تدل على الأفق والمشرق وربما على أرض النور أيضاً ^(٤) . وعلى هذا
الأساس تحدثت متون الأهرام عن أزلية القرعون المتوفى وأبديته بين الأرباب في
أفق السماء ، ثم فسرت ذلك بقولها « لأن أرواحهم في بدنه ونورانياتهم (آختهم)
لديه (أى بين يديه) » ^(٥) . وقالت متون التوايت لأحد الموتى « أنت من

(١) K. Sethe, *Unters* ..., III, 1f. ; *Urgeschichte* ..., 127, 165, 170, 172 f, 186 ;

J. H. Breasted, in *B. I. F. A. O.*, (1931) 709 f. ; F. L. I. Griffith, *Two Hieroglyphic Papyri*, pl. IX, 10.

J. Vandier, *La Religion* ..., 131 ; Pyr. 477 a, 1449 b ; etc. (٢)

Wb. I, 13-16, and see H. Kees, *Totenglauben* ..., 57-58 ; Spiegel, *op. cit.*, 240, 719 ; Sethe, in *ZÄS*, LVII, 137. (٣)

Wb. I, 13, 33 ; Pyr. 585. (٤)

(٥) Pyr. 413 a. — انظر أيضاً عن الربط بين آخ وآخت : « لديك آخ حور » ،
باسمك آخت الذى تخرج الشمس منه » Pyr. 585. وذلك مما يحتمل أن يعنى : لديك نورانية
حور بما يناسب اعتبارك المشرق الذى تخرج الشمس منه .

أصبحت آتخا بالضياء كالشمس والكوكب الفرد ^(١) . ووصف أحدهم نفسه في كتب الموتى بقوله « إني حور في نورانيته » ، « إني واحد من أولئك الآخو الذين في النور الإلهي » ، « إني واحد من أولئك الآخو الذين في النور الذي خلقه (الإله) أتوم بنفسه . الموجودين في مقلة عينه التي برأها وزكاها . أولئك الذين ميز (أتوم) وجوههم (بالنور) منذ وجودهم معه ^(٢) . قارن لذلك قول القرآن الكريم (ونورهم يسعى بين أيديهم) .

ونسبت المصادر المصرية صفة الآخ إلى الأرباب والفراعنة وخيار الناس ، ورفعها إلى السماء . فقالت متون الأهرام « الآخ للسماء والجسد للأرض ^(٣) » ، ولعلها ابتغت أن تفرق بذلك بين النقيضين ، بين التوراتية الشفافة وبين الكثافة المادية . وكان من أعز ما يتمناه المرء لنفسه أن يصبح « آخ في السماء ، وسرف في الأرض ، ماع خرو في الآخرة ^(٤) » ، أي نورانيا في السماء : مقتندرا في الأرض ، صادق الدعوى في الآخرة . وقليل ما ذكر لصفة الآخ مكانها في الأرض أو في الجبانة ^(٥) .

وربطت تقاليد الدين المصري بين بلوغ غاية الآخ وبين دعوات وتراتيل أدت غرض عبارات التزكية والتأيين الحالية ، وأطلقت عليها اسم « سآخو » ^(٦) وجعلتها قرينة للبراءة ، فقالت متون الأهرام « وقف حور وزكاك وبرأك فانطلق إذن إلى السماء » . وعنونت متون التواييت فصلا فيها بعنوان « عبارات التزكية » ^(٧) وبداية كتاب تبرة الإنسان في الآخرة ^(٨) . ووعدت بعض

Textes des Cercueils, 44, 181. (١)

B. D. Ch. LXXVIII, 39-40 ; 15 ; 19-21. (٢)

Pyr. 474. (٣)

Lacau, Sarc., I, 171 ; *Cairo* 20450 ; *Urk.* IV, 518 ; *Mem. Miss.*, V, 640 ; *ZAeS*, LVII, 137. (٤)

L. D. II, 72a ; *Textes des Cercueils*, Disc. 12, 40 ; 74 ; 80-81 ; 95, 74 ; 96 ; (٥)

ZAe S. LVII, 11, Taf. III, 2.

وعن تغيلها بالخور والماء والقرايين :

Wb. I, 16, 7, *Piankoff, op. cit.*, 176, 274, 300.

Textes des Cercueils, Discours I ; also 36, 136. (٦)

النصوص صاحبها بقولها «لسوف تتلى من أجلك آيات التزكية *sdꜥꜣw n. k rꜣw sꜥꜥꜣw* (أو ترائيل وتركيات ؟) ^(١) . وعنونت نصوص أخرى قراءات بعض الكهنة بأنها *sdꜥꜣw sꜥꜥꜣw* أى قراءة تركيات كثيرة أو قراءة تزكية الجمهور ^(٢) . ويبدو أنه كان يتعهد هذه العملية ، عملية التزكية ، فى عصر بداية الأسرات ، كاهن يلقب بقلب سخن آخ *sdꜥꜣw sꜥꜥꜣw* ^(٣) ، ربما بمعنى محتضن الأخ أو متعهد النورانية ^(٤) ، ثم تولاها بعد ذلك الكهنة المرتلون (خربو حبت) ليزكوا المتوفى بها باسم الدين نيابة عن الأحياء . وليس من المستبعد أن يكون هذا التقليد أساسا لما سجله المؤرخ ديودور الصقلى عن حفلات التأبين المصرية القديمة التى روى أن الجمهور كان يشترك مع الكهنة فيها لإعلان صلاح المتوفى وطهارته ^(٥) .

وأُسندت النصوص الدينية أداء هذه العملية فى رحاب السماء ، إلى الأرباب لصالح بعضهم البعض ولصالح الفراعنة . فصورت حفلا يقول الآلهة فيه «يا أرض اسمعى ما يتلوهُ حور وهو يزكى (*sdꜥꜣw f. var. sꜥꜥꜣw f.*) أباه» ^(٦) . ويقال «صمتا صمتا أيها الناس ، سمعا سمعا أيها الناس ، اسمعوا هذا الحديث للجليل الذى قاله حور لأبيه أوزير فأصبح به (آخا) حيا ، وروحا مبجلا . . . » ^(٧) . «ويا أرض اسمعى ما يقوله رع وهو يزكى (الفرعون) بى حين يتلقى نورانيته (*sdꜥꜣw f.*) فى مواجهة الأرض ، وحين يهبها له ، بعد أن اعتبره فى منزلة الإله» ^(٨) ، «ويا أرض اسمعى هذا الذى يردده جب وهو يزكى أوزير لمنزلة الإله» ^(٩) . ووعد رجال الدين الفرعون بقولهم «لسوف تخرج على صوت

A. H. Gardiner and G. Davies, *The Tomb of Amenemhet*, p. 56. (١)

Cairo 20571. (٢)

Petrie, *Royal Tombs*, I, pl. XXXI, 20, 26 ; XXXII, 23-30 ; Zaki Saad and E. Drioton, in *ASEA*, Cahier 3, p. 8 No. 2. (٣)

(٤) اعتبر Weill هذه العبارة وصفاً للمتوفى وقرأها *iꜥꜥꜣw shꜣw* بمعنى الروح المحيية

R. Weill, *Recherches sur la Ire Dynastie*, II, 185, n. 2.

Diodorus, I, 92. (٥)

Pyr. 1712 a. (٦)

Textes des Cercueils, 29, 81. (٧)

Pyr. 795. (٨)

Pyr. 1013 a. (٩)

(الإله) إنبو حين يزكبك^(١) ، وقالوا : وإن ما يقلعه آتوم لرع هو أن يزكبه ويقلس روحه ويؤذي أعباءه^(٢) .

[illegible]

Ры. 796. (1)

Piankoff, *op. cit.*, 147. (2)

Pyr. 752b, 833 b. (2)

cf. *Wb.* I, 15, 17; 16, 4 (Avignon 1 (Var. 42) D. 18; Hannover 22-27 N.K.). ()

Pyr. 153-159 ; 556 b, 1220 b, 2103. (•)

Textes des Cercueils, Disc., 36, 142. (7)

Pyr. 1771 a ; *Urk.* I, 224 ; Louvre C 15 (M. K.). (v)

Urk. I, 79, 122, 143; J. H. Breasted, *Ancient Records*, I, 378, 329. (A)

Junker, Giza II, 55 ; L. D. II, 72 a. (9)

Brit. Mus. 947 (N. K.) ; Totb. Naville, 127 A. 11. (1.)

Textes des Cercueils, 30, 86 : 33, 112 : 36, 137. (11)

Die Belegstellen (Wb.) I, 16, 4 (Hannover 22 (27) N. K.) (12)

Wb. I, 16. 10. (12)

الدبلوماسية

للدكتور حسن على حسن العلوه

مدرس الوثائق - كلية الآداب - جامعة القاهرة

(لولا) اشتقاق كلمة الدبلوماسية (١)

الدبلوماسية ، من حيث الاشتقاق ، هي علم الدبلوماسية . وبيان ذلك أنه يوجد في اللغة اليونانية القديمة الفعل διπλοῦν (دبلون) ، ومعناه يشئ أو يصف ؛ ومنه الإسم اليوناني διπλωμα (دبلوما) ، ومعناه الحرق الشيء المزدوج . وقد انتقل هذا الاسم إلى روما ، ليستعمل في الدلالة على تذاكر الطريق ، التي يمنحها ال « سيناتوس » والامبراطور للبريديين ، لتخول لهم حق السفر بالبريد العام ؛ وكذلك في الدلالة على الأجازات التي تمنح للجنود الذين يتمون الخدمة العسكرية على نحو مشرف . وتعرف هذه الأجازات بالدبلوماسية العسكرية . لأنها تتألف من لوحين متجاورين من البرونز ، أي من لوح مزدوج تحفر عليه نصوص المراسم الإمبراطورية ، التي تمنح هؤلاء الجنود حقوق المواطنين الرومانيين ، ويغلق كما يغلق الكتاب . وجاء العصر الوسيط ، فلم ييطل استعمال الإسم تماماً ، وإن كنا لا نجد له أثراً على الإطلاق في لغة الدواوين . ثم أقبل عصر النهضة ، فأطلقه العلماء على وثائق الملوك والشخصيات الكبيرة القديمة ، واشتقوا منه الكلمة اللاتينية (de re diplomatica) (في الدبلوماسية) : التي أعطت في اللغات الأوروبية الحديثة : (diplomatique) ، بالفرنسية ؛ (diplomatica) ، بالإيطالية ؛

(١) أنظر A. Giry, Manuel de diplomatique, Paris, 1925, p. 6—8.

وانظر كلمتي « cursus publicus » و « diploma » في Ch. Daremberg et E. Saglio, Dictionnaire des antiquités grecques et romaines, Paris, 1877 — 1919. وفي Du Cange, Glossarium mediae et infimae latinitatis, éd. Didot, Paris, 1840—1850.

(diplomats) ، بالإنجليزية ؛ (diplomatie) ، بالألمانية ، وإن كان يفضل عليها اليوم (Urkundenlehre) . وقد رأينا أن نقلها إلى العربية ذوق الدبلوماسية ، على غرار قولنا « الميتافيزيقا » .

لكن ليس هناك من يعرف الدبلوماسية من حيث الاشتقاق ، فيقول أنها علم الدبلوماسية . لأن لفظ الدبلوم لم يكن محدد المفهوم تماماً لدى المؤرخين والباحثين في التاريخ من عصر النهضة ؛ ولأن مفهومه المأخوذ به اليوم لا يصدق على جميع الوثائق التي تندرسها الدبلوماسية ، وإنما يصدق على وثائق معينة ، تعنى بالشكليات عناية خاصة ، صدرت عن الحكام وبعض كبار الشخصيات في العصر الوسط .

(ثانياً) موضوع الدبلوماسية ومنهجها

الوثيقة القانونية الدبلوماسية هي العلم الذي يدرس الوثيقة القانونية ، والوثيقة القانونية هي كل مكتوب يشتمل على تصرف قانوني أو واقعة قانونية . فأما المصروف القانوني ، ففعل إرادي ترتب عليه آثار قانونية من إنشاء حق أو التزام أو تعديله أو إبطاله . وقد يصدر عن إرادة واحدة ، كالعق ، والهبة ، والوصية ، وأمر الرئيس لمروعوسيه ، والمسامحات ^(١) ، والطرخانيات ^(٢) ، والإقطاعات ، والأجازة بالفتيا والتدريس ^(٣) وعراضة الكتب ^(٤) . أو يصدر عن اتفاق إرادتين

(١) وهي المسامحات ، بما جرت به عادة النواوين السلطانية من المقررات والقرارات السلطانية (القلقشندى ، صبح الأعشى . دار الكتب الخديوية . ج ١٣ . القاهرة ، ١٩١٨ م ، ص ٢٣) .

(٢) والمراد بها أن يصير الشخص مسموحاً له بالخدم السلطانية : يقيم حيث شاء ، ويرتفع متى شاء : تارة بمعلوم يتناوله مجاناً ، وتارة بغير معلوم . وهي « تكبت للأمرأ تارة وللأجناد أخرى ، وأكثر ما تكبت لمن كبرت سنه وضعفت قدرته وعجز عن الخدمة السلطانية » (القلقشندى ، المرجع نفسه ، ص ٤٨) .

(٣) « جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس - أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرس ، ويكتب له بذلك » (القلقشندى ، المرجع السابق ، ج ١٤ ، ص ٣٢٢) .

(٤) « وأما الأجازة بعراضة الكتب ، فقد جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتاباً في انفق ، أو أصول الفقه ، أو النحو ، أو غير ذلك من الفنون ، يعرضه على مشايخ العصر ، فيقطع الشيخ المعروض عليه هذا الكتاب ، ويفتح منه أبواباً ومواضع ، يستقره إياها من أي مكان اتفق ، فإن مضى فيها من غير توقف ولا تلثم ، استدل بحفظه تلك المواضع على حفظه بجميع الكتاب وكتب له بذلك كل من عرض عليه » . (القلقشندى ، المرجع نفسه ، ص ٣٢٧) .

أو أكثر ، مثل العقود على اختلاف أنواعها ، سواء منها ما يعقد بين الأفراد أو الدول ، كالزواج والبيع والشراء والاتفاقيات السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها . وأما الواقعة القانونية . فحدث قد تتدخل الإرادة فيه كالفعل الضار مثلا . وقد لا تتدخل كالميلاد وبلوغ سن الرشد والوفاة . وفي الحالين تترتب آثار قانونية كما في التصرف القانوني تماما من انشاء حق أو التزام أو تعديله أو ابطاله ، مع هذا الفارق الجوهرى . وهو أنه في التصرف القانوني تترتب الآثار على الفعل الإرادى . بينما هي في الواقعة القانونية تترتب على الحدث نفسه دون اعتبار للإرادة إن هي وجدت (١) . وتختلف الآثار القانونية تبعا لنوع الفعل أو الواقعة بطبيعة الحال (٢) .

الشكل هذه الوثائق القانونية يصح أن تدرس من أكثر من وجه من وجوه المعرفة . وإنه ليدرسها المشتغلون بعلوم الكتابة واللغة والنظم والقانون وغيرها ؛ ويجلون فيها - كل فيما يخصه - معلومات على جانب كبير من الأهمية . فن أى وجه من وجوه المعرفة يدرسها الدبلوماسيتى اذن ؟

إنه يدرسها من حيث الشكل : كى يتحقق من صحتها ويحدد قيمتها باعتبارها شواهد تاريخية . وشكل الوثيقة هو مجموع خصائصها الخارجية والداخلية . فأما الخصائص الخارجية فتشتمل على كل ما يتصل بالمادة المكتوب عليها والمادة المكتوب بها والخط والختم وطريقة اخراج الصفحة والتصحيحات وعلامات الصحة . وكلها أمور لا يمكن دراستها إلا فى الأصل نفسه . وأما الخصائص الداخلية فتشتمل على كل ما يتصل باللغة والصياغة والوقائع التاريخية والقانونية . وكلها أمور تدرس فى الأصل نفسه إن وجد ، ولكن ليس ما يمنع من أن تدرس فى نسخة صحيحة من الأصل إن انعدم أو تعذر الحصول عليه .

ولما كانت الوثائق القانونية مرآة تنعكس عليها حضارة البيئة التى أنشأتها ، فقد تغير شكلها فى الزمان والمكان بتغير هذه الحضارة كيفا وكما . وكان على

(١) إن موضع الاعتبار فى الواقعة القانونية بالنسبة للدبلوماسيتى هو الشخص الذى تقع عليه الواقعة وليس الشخص الذى تصدر عنه ، فإنها من حيث صلتها بهذا الأخير تصرف قانونى .

(٢) قارن : Georges Tessier, *Diplomatique* (Encyclopédie de la Pléiade, vol. XI: L'histoire et ses methodes, p. 633-676, Bruges, 1961), p. 664-665.

حيث يقتضى أثر فكر (Ficker) فيمد مفهوم الفعل القانوني المكتوب ليشمل الوثيقة التى تصاغ برهانا على حدث غلو من المضمون القانوني ، كالحديث الفنى أو الادبى أو الماطفى أو السياسى .

الدبلوماسيتى أن يصف الشكل وما يعتره من تغيرات . وكان عليه أيضا ألا يقف عند مرتبة الوصف ، وإنما يتعداه إلى مرتبة التفسير فيرد التغيرات إلى أسبابها الحضارية العامة والخاصة وهى على وجه الاجمال : تقاليد العصر أو البلد الذى أنشأ الوثائق ، وأنواع ما تشتمل عليه الوثائق من تصرفات تنظم العلاقات القانونية بين الناس ، وعادات الدواوين وتقاليدها فى الانشاء ، وصفة من يعهد إليه بالانشاء أو الكتابة وما قد يخضع له من أمزجة وأهواء .

وغنى عن البيان أن هذا الوصف وهذا التفسير يقتضى من الدبلوماسيتى أن يكون على إلمام واسع بمعارف فنية متنوعة ، تتعلق بحساب الأزمنة . والنظم ، والآثار . والكتابة ، واللغة ، والقانون العام والخاص ، وغير ذلك ، فى أزمنة مختلفة وأماكن مختلفة ، حتى يتسنى له أن يفهم ما فى الوثيقة القانونية من العناصر الزمنية ، وأسماء الأشخاص وصفاتهم وألقابهم ، وأسماء الأماكن ، واللغة ، وطريقة الانشاء ، وغير ذلك مما يرد فيها منذ أن لم يكن لها شكل معين وإلى أن أخذ يبرز لها شكل شيئا فشيئا ليثبت فى نهاية الأمر على أوضاع معينة محددة يختص بها ديوان دون آخر من الدواوين المختلفة .

والشكل بعد كل هذا هو جوهر الوثيقة القانونية وسر كيانها اذن . فإذا هو روى فصدرت الوثيقة فى الشكل المتفق عليه فى الديوان المنشئ أو لدى الشخص المنشئ ، تحقق لها بذلك كمالها وتمامها وترتبت عليها آثارها القانونية . وإذا هو أغفل لسبب من الأسباب فصدرت الوثيقة على غير القواعد المرعية فى الديوان المنشئ أو لدى الشخص المنشئ ، لم يتحقق لها بذلك كمالها وتمامها وفقدت بالتالى قيمتها القانونية وأفادت صاحبها الغاية المرجوة منها .

الصحة والدبلوماسيتى لا يدرس الشكل لذاته ، وإنما يدرسه للتحقق من صحة الوثيقة . وهو يعنى هنا الصحة الدبلوماسية على وجه الخصوص ، وهى التى تتحقق عندما تصدر الوثيقة فعلا عن الجهة التى تقول إنها صادرة عنها وطبقا لقواعد الانشاء المرعية هناك بما يضمن لها قيمتها الشرعية . وهى فى هذا المعنى تختلف عن الصحة التاريخية التى تتحقق عندما تكون المعلومات الواردة فى الوثيقة مطابقة لواقع . لكن ، ليس معنى هذا أن الدبلوماسيتى يغفل الصحة التاريخية ، فانه يستفيد بها فى الحكم على الصحة الدبلوماسية وكذلك فى تقويم الوثيقة باعتبارها شاهدا من شواهد التاريخ .

وقضية الصحة الدبلوماسية لهذه قضية جوهرية بالنسبة للدبلوماسيين ، بل إنها أولى القضايا التي يواجهها وأدقها .

القيمة التاريخية واهتمام الدبلوماسيين بالصحة التاريخية إلى جانب الصحة الدبلوماسية معناه أنه يحلل الوثيقة إلى عناصرها الشكلية والموضوعية المختلفة ، ويقوم كل عنصر منها على انفراد ومن حيث ارتباطه بالعناصر الأخرى ، كي يستخلص منها شاهداً تاريخياً ويحدد قيمتها من هذا الوجه . وقد تكون الوثيقة - كلها أو بعضها - صحيحة شكلاً (الصحة الدبلوماسية) وموضوعاً (الصحة التاريخية) ، أو غير صحيحة شكلاً وموضوعاً ، أو صحيحة شكلاً غير صحيحة موضوعاً ، أو صحيحة موضوعاً غير صحيحة شكلاً . فترقى بذلك إلى مرتبة الأصل الصادق^(١) الذي يعد شاهداً تاريخياً من الدرجة الأولى يطمئن إليه المؤرخ عند استخدامه غاية الإطمئنان ، أو تهبط إلى مستوى النسخة التي تدعى انتساب عناصر الشكل والموضوع فيها إلى عصر سابق على العصر الذي أنشئت فيه فتمد المؤرخ مع ذلك بمعلومات قيمة عن مظاهر الحضارة في العصر الذي وقع فيه التزييف^(٢) أو تقع في مرتبة من المراتب المتوسطة العديدة بين هاذين التقيضين ، فيتيسر للمؤرخ بذلك أن يحدد - بدوره ، موقفه منها إذا ما فكر في استخدامها في كتابة التاريخ .

وتحديد قيمة الوثيقة باعتبارها شاهداً تاريخياً أمر جوهري بالنسبة للدبلوماسيين . وهو الذي يقرر مفهوم كل من الأصل والمسردة والنسخة وأنواع الصلات التي تربط بينها .

تحقيق النص وتقرن العمليتان السابقتان - التحقق من صحة الوثيقة ، وتقويمها باعتبارها شاهداً تاريخياً - بعملية أخرى هي تحقيق النص ، يحاول فيها الدبلوماسي أن يقرأ الوثيقة ليقدم نصاً لها واضحاً كاملاً قدر الإمكان ،

(١) من الأصول ما يشتمل على معلومات غير مطابقة للواقع ، ويعرف هذا الصنف من الوثائق باسم « مزيفات الدواوين » ، وهو صعب تمييزه ، لكنه نادر .

(٢) الواقع أن العناصر الكاذبة - شكلاً أو موضوعاً - في الوثيقة لا تقل في قيمتها التاريخية عن العناصر الصحيحة فيها .

دون أن يقضى مع ذلك على شخصيتها أو طابع العصر الذى أنشئت فيه ، فينقط حيث ينعدم النقط ، ويشكل متى رأى ضرورة لذلك ، ويصحح أخطاء المولى أو الكاتب ، ويكمل النقص حيث تفتقد الحروف أو الكلمات لسبب من الأسباب . وجملة القول ، فانه يدخل على النص ما يرى من تعديلات بالإضافة أو الحذف على أن ينبه إلى ذلك بالوسيلة الملائمة -

وتحقيق النص أمر هين نوعاً عندما يوجد الأصل ، لكنه يصبح عسيراً أو معقداً عندما يفقد ولا يصلنا منه سوى نسخة أو أكثر قد تحتوى على أخطاء أو إضافة أو حذف ، فيستعين الدبلوماسي عليها بالنقد اللغوى ، فيقارن بين النسخ بعضها بعضاً ، ويصفنها . ويقرب بنها وبين شيباتها الصادرة عن نفس الجهة وفى نفس التاريخ .

(ثالثاً) الدبلوماسية والتاريخ

والدبلوماسية تصلها بالتاريخ صلة قوية . فهى تدرس مصدراً من مصادر التاريخ (ا) ، وتنتج فى دراساتها المنهج التاريخي (ب) ، وتقصد - فيما تقصد - من وراء هذه الدراسة أن تمهد الطريق للمؤرخ (ج) .

(ا) الوثيقة القانونية مصدر من مصادر التاريخ إن مصادر التاريخ كثيرة متنوعة ، تنقسم إلى صنفين رئيسيين : مصادر مقصودة ، قصد بها منشؤها أن تكون شواهد تاريخية مثل كتب التاريخ ، والحوليات ، والمذكرات ، والسير ، ومصادر غير مقصودة ، لم يقصد بها منشؤها أن تكون شواهد تاريخية مثل قطعة النقود ، وجرة الفخار ، والتحف الفنية . والأثر المعماري ، والنص الأدبي أو الديني ، والوثيقة القانونية .

ويعيب المصادر المقصودة أنها تنعدم فى بعض فترات التاريخ فيجب حينئذ الاستعاضة عنها بغيرها ، وتأثر بهوى مؤلفها - وكثيراً ما يظهر تحيزاً يبتعد بنا عن الحقيقة التاريخية - ، وترتبط قيمتها بقيمة المصدر الذى يستقى منه - وكثيراً ما يستقى من مصادر غير موثوقة من غير نقد لها أو قدرة منه عليه - فيجب حينئذ التحقق من صحتها .

أما المصادر غير المقصودة فهي أوفر . لأنها ترتبط بمظاهر الحياة اليومية الجارية ، وهي أوثق وأضمن ، لأنها تخلو من عامل الهوى أو تخضع لرقابة الجهة التي تنشؤها أو تشارك في إنشائها ، كالموثق أو القاضي أو الديوان والأطراف المتعاقدة ، وليس لأى منهم مصلحة في أن يغش أو يندع إلا في القليل النادر . ومع تعذر ذلك في أغلب الأحيان . ولذلك فانه يستعاض بها عن المصادر المقصودة عندما تنعدم ، ويتحقق بها من صحتها عندما توجد .

غير أنه ينبغي عند استخدام المصادر غير المقصودة في هذا الغرض أن يكون قد سبق دراستها دراسة نقدية بقصد تفهمها الفهم الصحيح . وتأويلها التأويل السليم ، وتقييمها على حقيقتها . ومن هنا نشأت إلى جانب علوم التاريخ علوم أخرى مساعدة مثل دراسة اللغات المقارنة . وعلم الآثار . والدبلوماسية . وغيرها ، يتناول كل منها مصدراً من هذه المصادر فيحدد منهج البحث فيه وطرق التحقق منه .

(ب) المنهج التاريخي ويتضح لنا مما تقدم أن منهج الدبلوماسية إنما هو في جوهره المنهج التاريخي يطبقه الدبلوماسيتي على صنف معين من أصناف المصادر التاريخية - هو الوثائق القانونية - يتميز بأن له جهة معينة صدر عنها ، وتاريخاً معيناً صدر فيه . وصحة يمكن التحقق منها .

وليس المقصود بالمنهج التاريخي هنا العمليات التحليلية والتركيبية معاً . وإنما المقصود العمليات التحليلية وحدها ، أو ما يعرف بالنقد بمظهره الخارجي (أو المادى) - وفيه يتحقق الدبلوماسيتي من نص الوثيقة ، ومصدرها أى منشؤها وتاريخ إنشائها ومكانه - والداخلي (أو التفسيري التأويلي) - وفيه يتحقق الدبلوماسيتي من مدى مطابقة المعلومات الواردة في الوثيقة للواقع .

وليس النقد الخارجي والداخلي عمليتين مستقلتين تسبق إحداهما الأخرى . إنما هما عمليتان مترابطتان تمان في نفس الوقت ، وتعتمدان على نفس العناصر النقدية ونفس المقارنات .

(ج) الدبلوماسيتي والمؤرخ وبالنقد الخارجي (المادى) والداخلي (التفسيري التأويلي) ينتهى عمل الدبلوماسيتي . غير أنه يبدأ حينئذ عمل المؤرخ ،

وهو التركيب - أو البناء - التاريخي ، الذي يمثل الشق الثاني من المنهج التاريخي ويعرف بالعمليات التركيبية : وفيه يستخدم المؤرخ الشواهد الدبلوماسية التي أعدتها له الدبلوماسية ، ويربط بينها وبين غيرها من الشواهد التاريخية التي تعدها له العلوم المساعدة الأخرى مثل علم المسكوكات وعلم الآثار وغيرها ، في محاولة منه لكتابة التاريخ . والوظيفتان - وظيفة الدبلوماسي ووظيفة المؤرخ - مختلفتان تماماً . وليس للدبلوماسي أن يجمع بينهما بالضرورة . فان هو فعل ، فانما بصفتين مختلفتين كل الاختلاف إذن . وليس الجمع بينهما بالأمر اليسير ، لأنه يتطلب وقتاً وجهداً قلما يتوفران ، بل إنهما لم يتوفرا - فيما نعلم - إلا لقلّة من العلماء يعدون على الأصابع في العالم كله .

تلك هي المظاهر الثلاثة للصلة القوية التي تصل الدبلوماسية بالتاريخ وتجعل منها علماً من علوم التاريخ المساعدة ^(١) . ومن ثم فان المنطق يقضي بأن تستقل الدبلوماسية وما يلحق بها من علوم - كالكتابة والأرشفة والنظم وفقه اللغة وغيرها - في قسم خاص من أقسام كلية الآداب أو في معهد من المعاهد العليا ، أو أن يجمع بينها وبين علوم التاريخ في قسم التاريخ إن كان ثمة ضرورة للجمع بينها وبين علم آخر . ولكن ليس من المنطق في شيء أن يجمع بينها وبين علوم المكتبات كما هو حاصل في قسم الوثائق والمكتبات بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

(١) فارن Georges Tessier, *Diplomatique* (Encyclopédie de la Pléiade, vol. XI : L'histoire et ses méthodes, p. 633-676, Bruges, 1961), p. 670.

حيث يقول : « ان فكرة العلم المساعد المطبقة على الدبلوماسية تبدو لنا موضع جدل ، وعيقة ، تماماً ، كفكرة قصر المنهج على وثائق العصر الوسيط وحدها . ان هذه الفكرة تتجسد في أسطورة الإلهة كلير (Clio) التي تحول بمبقريتها المواد التي تقدمها لها خادمتها حافظات . وأنتا تبين هنا التركة الشعورية قليلاً أو كثيراً التي خلفها لنا موقف جدير بالإحترام ، مشروع ، بل وضروري في نظامه ، لكنه غريب على الروح العلمية الدقيقة . وإذا كانت هذه الروح ما تزال تريد أن تخلع على التاريخ شيئاً من الوجود الحقيقي ، فإن عليها أن ترضه بالأحرى عند مفترق طرق متلاقية ، تربط بينها فضلاً عن ذلك روابط متعددة ، وتمثلها العلوم التاريخية المستقلة المختلفة ، التي يتميز كل منها بموضوعه ومنهجه . إن الأفعال القانونية المكتوبة - شأنها شأن الظواهر الخطية التي تدرسها الباليوجرافيا أو مقاياس الزمن الذي تدرسه الكرونولوجيا - تبدو من هذا الوجه بمثابة ظواهر اجتماعية ووقائع حضارة تستحق أن تدرس لذاتها . »

فالدبلوماسية بعيدة عن هذه العلوم بعد علوم الإجتماع ، واللغة العربية ، والآثار ، والجغرافيا ، والتاريخ عنها . ولأن تنفصل وتستقل خير لها وأبقى من هذا الوضع الذى ينعدم فيه الإنسجام تماماً : إنها زيجة خلت من الوفاق ولن يتحقق لها فى يوم من الأيام .

(رابعا) فصول الدبلوماسية

وتشتمل الدبلوماسية على فصول ثلاثة : (الفصل الأول) فى أحوال انتقال الوثائق إلينا . ويدرس مفهوم المسودة والأصل والنسخة والسجل ويقرر قيمة كل منها . (الفصل الثانى) فى شكل الوثيقة . ويدرس الوثيقة وصفاً وتفسيراً فى حالتها الساكنة عند صدورها وقد صبت فى القالب الخاص بها . (الفصل الثالث) فى إعداد الوثيقة . ويدرس الوثيقة فى حركتها . فيتبعها . أولاً ، فى مراحلها المختلفة — كالإلتباس والتسويد والتبويض والمراجعة ووضع علامات الصحة — التى تنتهى بها إلى صدورها فى حالتها النهائية الساكنة التى يدرسها الفصل السابق . ويتبع ، ثانياً ، الأشخاص الذين قاموا بأعدادها ليتبين ظروفهم وأحوالهم فى العمل . ويتبع ، ثالثاً ، التقاليد التى يتقيد بها هؤلاء الأشخاص ليتبين المصدر الذى يستقون منه نماذجهم فى الإنشاء .

ويضمن الدبلوماسية هذه الفصول الثلاثة ما يجمعه من ملاحظات فى أثناء استقرائه للوثائق . وهو يستعين فى هذا الاستقراء بتصنيف الوثائق إلى عامة وخاصة ، ودبوانية وغير دبوانية : ومنشئة ومثبتة . وهى أصناف تختلف فى أساس التصنيف الذى تقوم عليه والغاية المرجوة منه .

الوثيقة العامة والخاصة يصنف الدبلوماسي الوثائق القانونية إلى عامة وخاصة . ويذهب فى ذلك مذهباً يختلف عن مذهب عالم القانون . ووجه الاختلاف أن الدبلوماسي ينظر إلى التصرف القانوني من حيث تعلقه بالقانون العام أو الخاص فيعتبر أن الوثيقة العامة هي كل وثيقة تتعلق بالتصرف القانوني فيها بالقانون العام وأن الوثيقة الخاصة هي كل وثيقة تتعلق بالتصرف القانوني فيها بالقانون الخاص . أما عالم القانون فينظر إلى علامات الإثبات من حيث كونها رسمية أو عرفية

فيعتبر أن الوثيقة العامة هي كل وثيقة رسمية تحمل من ثم علامات إثبات رسمية ، وأن الوثيقة الخاصة هي كل وثيقة غير رسمية لا تحمل من ثم علامات إثبات رسمية ، سواء في ذلك أن يتعلق التصرف القانوني فيها بالقانون العام أو الخاص . فعقود البيع بين الأفراد ، مثلا ، هي في نظر الدبلوماسي وثائق خاصة سواء توجه المتعاقدون إلى الهيئات العامة المختصة لتدعيم هذه العقود بعلامات الإثبات الرسمية أو لم يفعلوا ذلك . بينما هي في نظر عالم القانون وثائق عامة في الحالة الأولى وخاصة في الحالة الثانية .

وإذن ، ففي مذهب الدبلوماسي تصدق الوثيقة العامة على جميع وثائق القانون العام ، وتصدق الوثيقة الخاصة على جميع وثائق القانون الخاص . أما في مذهب عالم القانون فإن الوثيقة العامة تصدق على جميع وثائق القانون العام وبعض وثائق القانون الخاص ، وهي تلك التي تحمل علامات إثبات رسمية ، وتصدق الوثيقة الخاصة على البعض الآخر من وثائق القانون الخاص ، وهي تلك التي لا تحمل علامات إثبات رسمية^(١) .

وكلا المذهبين مشروع تماما . غير أن مذهب عالم القانون يقوم على نظرة ضيقة النطاق ، تعتبر الوثيقة مجرد أداة إثبات ، فتدرسها من حيث قيمتها الإثباتية في كتب القانون المدني أو كتب الاجراءات في فصل الإثبات وطرقه . أما مذهب الدبلوماسي فيقوم على نظرة أوسع نطاقا ، تعتبر الوثيقة مرآة تعكس حضارة العصر الذي أنشأت فيه ، فتدرسها من حيث الشكل وطريقة الاعداد على ضوء العلوم الانسانية جميعها ، لتتحقق من صحتها وتحدد قيمتها باعتبارها مصدرا تاريخيا . وجدير بالذكر ، هنا ، أن الدبلوماسي عندما يتناول علامات الإثبات في فصل من فصول الدبلوماسية ، إنما يتناولها في ضوء هذه النظرية التاريخية العريضة ويتبعها على مر العصور باعتبارها

(١) الدبلوماسيون في الحقيقة فريقان : فريق الدبلوماسيين الفرنسيين ويعتق المذهب الأول . وفريق الدبلوماسيين الألمان ويعتق المذهب الثاني ، فيرى أن الوثيقة العامة هي تلك التي تتحقق لها خاصيتان : الشرعية والحجية ، ويخلط بذلك بين الفاعل القانوني (أي منشيء التصرف القانوني في الوثيقة المكتوبة) والفاعل الكتابي (أي منشيء الوثيقة المكتوبة دون التصرف القانوني الذي تشتمل عليه) ، مع أنه يميز تمييزاً واضحاً بين الإثنين في مصنفاته .

مرحلة من مراحل تطور الفكر البشرى فى محاولته أن يضيق على الوثيقة القانونية قيمة الثابتة أضمن وأقوى .

زد على ذلك أن مذهب عالم القانون لا يسمح بتصنيف الوثائق تصنيفا ذا قيمة عامة . بينما يسمح مذهب الدبلوماسيتى بعزل مجموعة وثائق القانون الخاص ، ودراسة تطورها مرحلة مرحلة خلال القرون . وهى مجموعة ضخمة متميزة فى نظر الدبلوماسيتى ومؤرخ القانون . لأنها تطورت على حدة . وتتطلب من ثم منهجا نقديا مناسبا لها .

وإذن . فالدبلوماسيتى يعلم تمام العلم أن هناك فارقا جوهريا فى المضمون بين الوثيقة العامة والوثيقة الخاصة . فلا يقبل أن يفصل فى دراسته بين وثيقتين من وثائق البيع التى تعقد بين الأطراف بحجة أنه اتبعت فى اعداد الواحدة اجراءات تختلف عن تلك التى اتبعت فى اعداد الأخرى . كذلك هو يعلم تمام العلم أنه ليس فى مقدوره أن يعدل من نظراته التى يقوم عليها مذهبه فى التمييز بين الوثيقة العامة والوثيقة الخاصة . فيضيق من مداها على نحو ما يفعل عالم القانون . وإلا فانه يخرج على الغاية من العلم الذى يشتغل به : ويتنكر من ثم لمهمته .

ويتضح مما تقدم أن الدبلوماسيتى وعالم القانون يستعملان كلا من مصطلحي « الوثيقة العامة » و « الوثيقة الخاصة » فى مفهومين متباينين تماما . ولعل المنطق يقضى بأن يستبدلاهما بمصطلحين آخرين هما « وثيقة القانون العام » و « وثيقة القانون الخاص » على أن يوصف بالرسومية أو العرفية ما يتحقق له شروط هذه الصفة أو تلك من الوثائق ، فيخفى بذلك اللبس الناشئ عن استعمال المصطلح الواحد فى مفهومين متباينين ، ويختفى بالتالى ما بين الدبلوماسيتى وعالم القانون من اختلاف فى تعريف الصنفين ، لأنه لا خلاف بينهما فى مفهوم كل من القانون العام والخاص .

والدبلوماسيتى لا ينكر أن مذهبه فى التمييز بين الوثيقة العامة والوثيقة الخاصة مذهب تجريبي عملى لا تتوفر له الدقة التامة من الناحية العلمية ، وأن هناك بعض الوثائق القانونية يصعب عليه أن يقرر ما إذا كانت عامة أم خاصة . غير أن هذا

النقص مصدره ، في الحقيقة ، طبيعة العصر والظروف التاريخية التي نشأت فيها هذه الوثائق^(١) ، وليس مصدره المذهب نفسه .

الوثيقة الديوانية وغير الديوانية يختلف هذا التصنيف عن سابقه من حيث أساس التمييز ، ومنهجه ، وغايته . فأساس التمييز هنا هو طريقة انشاء الوثيقة ؛ ومنهجه هو دراسة خطها وأسلوبها ؛ وغايته هو الكشف عن الجهة التي صدرت عنها . فالوثيقة الديوانية هي الوثيقة التي تنشأ في ديوان معين . فيتبع في انشائها القواعد المرعية في انشاء اشباهاها في الديوان . والوثيقة غير الديوانية هي الوثيقة التي لا تنشأ في ديوان معين ، فلا يتبع في انشائها قواعد ديوانية ما . وقد يبدو لاهلة الأولى أن هناك تطابقا في الماصدق بين الوثائق الديوانية والوثائق العامة . وكذلك بين الوثائق غير الديوانية والوثائق الخاصة . وهذا صحيح بوجه عام . بمعنى أن التطابق قائم ولكنه ليس تاما : فالوثائق الديوانية تشتمل ، على وجه العموم . على الوثائق العامة . ولكن ليست كل الوثائق العامة وثائق ديوانية . فان منها ما قد انشئ . أحيانا . خارج الدواوين . كذلك . فان الوثائق غير الديوانية تشتمل . على وجه العموم . على الوثائق الخاصة . ولكن ليست كل الوثائق الخاصة وثائق غير ديوانية ، فان منها ما قد انشئ . أحيانا ، داخل الدواوين .

والسبيل الرئيسي للتمييز بين الوثائق الديوانية وغير الديوانية . وكذلك بين وثائق ديوان معين ووثائق الدواوين الأخرى هو دراسة الخط والأسلوب دراسة مقارنة دقيقة عميقة . فيها يقع الدبلوماتيق على خصائص كل كاتب أو منشئ ويعترف على وثائقه ، وبها يقع أيضا على خصائص الكتابات الاقليمية المحلية ويعترف على وثائقها . ومحور هذه الدراسة هو التشابه : فالتشابه في الخط والأسلوب بين وثائق متعددة صادرة عن منشئ واحد وموجهة إلى أشخاص مختلفين لا رابط

(١) في فترات الإضطراب والفتنة حيث يتعذر على الباحث أن يحدد أين يبدأ السلطان وأين ينتهى ، فلا يتبين بوضوح من وثائق الحاكم التي تنتمي بطبيعتها إلى القانون الخاص ما إذا كان هذا الحاكم يتصرف بوصفه حاكما ذا سيادة أم بوصفه فردا من الأفراد . وهذا هو حال وثائق السادة الإقطاعيين في العصر الوسيط الأوروبي ، وإن من كبرى المسائل التي تتعرض الابلوماتيقيين هو تحديد الصنف الذي تنتمي إليه هذه الوثائق : هل هي عامة أم خاصة .

بينهم يكون بمثابة شهادة ميلاد لهذه الوثائق فيما يتعلق بمصدرها ، ويعنى بكل تأكيد أنها صادرة عن ديوان واحد هو ديوان المنشئ المذكور . وكذلك التشابه في الخط والأسلوب بين وثائق متعددة صادرة عن منشئين مختلفين وموجهة إلى شخص واحد بعينه يكون دليلا قاطعا على أنها أنشئت بمعرفة الشخص المذكور . لا سيما عندما يلاحظ نفس التشابه بين هذه الوثائق ووثائق أخرى صادرة عن الشخص المذكور باعتباره منشئا هذه المرة .

الوثيقة المنشئة والمثبتة يقوم هذا التصنيف على علاقة الوثيقة بالتصرف القانوني الوارد فيها . فالوثيقة المنشئة هي التي تنشئ التصرف القانوني . فلا يكون له وجود بدونها . والوثيقة المثبتة هي التي تحل التصرف القانوني وتثبت عند الحاجة ، فيصح أن ينشأ بدونها . وواضح أن الوثيقة المنشئة للتصرف القانوني هي في الوقت عينه مثبتة له إذا ما اقتضى الأمر ذلك .

ولما كانت الدبلوما تيقا تدرس التصرف القانوني المدون . فإنها تدرس الوثيقة المنشئة والوثيقة المثبتة على السواء . أنها تدرس الوثيقة المنشئة التي يدور معها التصرف القانوني وجودا وعدما ، وتدرس الوثيقة المثبتة إن وجدت ، فإن وجد التصرف القانوني بدونها اختصت به العلوم القانونية وانعدم موضوع الدبلوماسية حينئذ .

وتتضمن الوثائق المنشئة والوثائق المثبتة مجموع الوثائق العامة والخاصة . وقد تطور مضمونها تبعا لما طرأ على الشعوب من تطور في ثقافتها القانونية على مر العصور . ولذلك فإن هذا التصنيف أداة من أدوات النقد الدبلوماسي ، لا يستغنى عنها فيما يتعلق بالوثائق الخاصة ، ويستعان بها في الحالات التي تمتنع فيها الوثائق على التصنيف إلى ديوانية وغير ديوانية . ولكنها لا تغني كثيرا في نقد الوثائق العامة ، لأنه يغلب على هذه الوثائق أن تكون منشئة كلها . فيما عدا القليل النادر ، كالأحكام القضائية التي لا تدون إلا بعد النطق بها .

(خامسا) الدبلوماسية العربية

تلك هي الدبلوماسية : العلم الذي يدرس الوثائق القانونية ، وصفا وتفسيرا ، من حيث الشكل ، طبقا للمنهج التاريخي ، بقصد التحقق من صحتها ، وتقويمها

باعتبارها شواهد تاريخية . وهي لا تنقيد بمكان أو زمان . وإنما تدرس وثائق جميع البلدان في جميع العصور . وتتفرع من ثم فروعاً ، بقدر ما هناك من حضارات . فمن ذلك ، على سبيل المثال لا الحصر ، الدبلوماسية البابلية ، واليونانية ، والرومانية ، ودبلوماسية العصر الوسيط في فرنسا وألمانيا وإيطاليا ، والدبلوماسية العربية ، وغيرها . وتختص الدبلوماسية العربية بالوثائق القانونية العربية ، في العالم العربي كله . منذ أقدم العصور إلى الوقت الحاضر . وهي حديثة ناشئة ، ينقصها الكثير من جهود المشتغلين بها كي تؤتي ثمارها المرجوة منها . وإن الطريق إلى ذلك طويل شاق ، يتطلب تخطيطاً علمياً للدراسات ، تنضاف الجهود على تنفيذه . برعاية الهيئات العلمية المختصة . ويؤسفنا أن نقول إن ما تم من دراسات حتى الآن لا يسمح بأن يكتب فصل واحد كامل من فصول الدبلوماسية العربية . بينما اكتملت اليوم — أو تكاد تكتمل — فصول دبلوماسية العصر الوسيط في فرنسا وألمانيا وإيطاليا ، على سبيل المثال . ونحن نأمل أن تلقى دار الوثائق التاريخية القومية في الجمهورية العربية المتحدة مزيداً من الرعاية المادية والمعنوية . حتى يتسنى لها — وهي التي من المفروض أن تضم أثمن مصادر تاريخنا القومي (١) — أن تسهم في تقديم الدراسات الدبلوماسية العربية . بأن تقدم ما ينتظر من خدمات للباحثين في هذا الميدان .

المراجع :

A. de Bouthard, Manuel de diplomatie française et pontificale.
1. Diplomatie générale. 2. L'acte privé, 2 vol. et albums, Paris, 1929 et 1948.

A. Giry, Manuel de diplomatie, Paris, 1893. Nouveau tirage, sans aucune modification, Paris, 1925.

G. Tessier, La Diplomatie (Collection «Que sais-je ?»), Paris, 1952.

G. Tessier, Diplomatie (Encyclopédie de la Pléiade, vol. XI : L'histoire et ses méthodes), p. 633-676, Bruges, 1961.

(١) المعروف أن دور الوثائق التاريخية القومية ، في دولة ما ، تتلقى وثائق الإدارات العامة والخاصة ، بعد أن تستند أغراضها هناك ، كي تقوم بفرزها وحفظ ما يترشح لها على نظام هذه الإدارات ووظائفها ونشاطها ، فكاننا أمام كتاب نفتحهُ فنقرأ فيه تطور حضارات الشعوب في عصورها المختلفة .

NATIONAL LIBRARY LEGAL DEPOSIT

No. 152, 1969

Cairo Univ. Press, 1497-1968-450 ex.

Printed by Cairo University Press

AHMED SALAMA

Director

page d'une envolée superbe, qui se dit : «Assez pour aujourd'hui, nous allons nous reposer» (38). Et alors n'importe quoi, une banalité quelconque, un mouvement à trois temps, des triolets qui se tournent et se retournent comme des toupies, des accords parfaits plaqués pendant trois pages, du bruit pour étourdir. Ou bien des récitatifs insipides—Un livret absurde (surtout comme style)—Des ballets médiocres, même un peu ridicules—Une orchestration qui a vieilli. Mais je pardonne tout en faveur d'une soixantaine de pages qui sont ce qu'on a senti de plus profond, ce qu'on a écrit de plus beau, en musique dramatique, depuis 1800 jusqu'à l'arrivée sur notre scène, des novateurs et des révolutionnaires. C'est le chef d'oeuvre de l'ancien opéra ...

Ah ! ce misérable Rossini ! s'il avait un peu moins aimé son repos et le macaroni ... Mais il n'eût pas été, sans doute, Rossini le sensuel, le railleur(39).

Quand il écrivait ces lignes, Romain Rolland était alors âgé de 22 ans. Et l'on sent déjà chez le jeune normalien qui confie ses impressions au papier, pour lui seul, la méthode qui fera plus tard le succès du musicologue : «Ne pas séparer l'homme de l'oeuvre: aimer surtout dans celle-ci le reflet de la grande âme qui s'y mire» (40).

(38) «J'avais de la facilité, j'aurais pu faire quelque chose», aurait déclaré Rossini à Wagner au cours d'un entretien. (R.K.)

(39) Romain ROLLAND : *Le Cloître de la Rue d'Ulm. op. cit. p. 197-198.*

(40) Henri PRUNIÈRES : *op. cit. p. 304.*

Etrange et dominatrice personnalité de celui que l'on considère en Allemagne comme l'héritier du génie de Wagner—celui qui a eu la double audace de récrire, après Beethoven, une *Symphonie Héroïque*, et de s'en représenter comme le héros ...

Richard Strauss est à la fois un poète et un musicien. Ces deux natures coexistent en lui, et chacune tend à dominer l'autre. L'équilibre réussit à le maintenir, l'union de ces deux forces, lancées vers le même but, produit des effets d'une intensité qu'on ne connaissait plus depuis Wagner. L'une et l'autre ont leur source dans une pensée héroïque, que j'estime plus rare encore que le talent poétique ou musical. Il y a d'autres grands musiciens en Europe; mais celui-ci est de plus un créateur de héros."

*

Dans cette galerie de portraits, nous avons intentionnellement laissé pour la fin un compositeur qui n'entre pas dans le cadre de notre classification chronologique : Gioacchino-Antonio Rossini. Romain Rolland ne lui a consacré aucune étude, n'en a dessiné aucune silhouette. Mais dans *le Cloître de la Rue d'Ulm*, le jeune normalien rend hommage à cet artiste aujourd'hui si décrié qui fut adulé par les plus grands écrivains de son temps : Chateaubriand et Musset, Stendhal et Heine. Quel dommage qu'il n'ait pas été le contemporain de Romain Rolland ! Cela nous eût sans doute valu quelques pages savoureuses, un portrait haut en couleur de ce personnage sympathique, à la fois truculent et sage, gourmand, paresseux et bonhomme. Les quelques lignes que lui consacre Romain Rolland dans son *Journal* ne manquent cependant pas de piquant et méritaient d'être rappelées.

ROSSINI

(1792-1868)

Jeudi 22 mars 1888.—«Rossini me plait, décidément. C'est un beau coloriste, vivant et chaud. J'étais heureux, en jouant son *Otello*. Mais quel scapetique et quel farceur ! Avoir été chercher son air bouffe de la Calomnie dans l'accompagnement de la mort de Desdémone. 4. *avril 1888.*—(après une représentation de *Guillaume Tell*). Ce diable de Rossini m'est incompréhensible : un vrai artiste, un grand, très supérieur à Meyerbeer, Mendelssohn, Auber, Halévy, toute la Séquelle. Une nature richement douée, un coeur capable de sentir les émotions les plus pures, les plus hautes; un cerveau capable de les exprimer et qui l'a fait souvent, avec un talent admirable ... Et cet homme qui se moque de son public et de lui-même, de ses héros et de son art ... On le voit, après une

accentue les rythmes, lourdement, violemment rebondissants, avec une énergie saccadée qui secoue l'épaule droite, sans que le reste du corps fasse un mouvement. Véritable automate, quand il salue, de tout le corps, rapidement, sèchement, trois fois de suite ...

J'aime peu Tchaïkovsky comme mélodiste... Il a un vigoureux orchestre moderne, avec une forme haendelienne. J'ai plaisir à me dire qu'il y a donc un homme encore, de l'âge classique, presque scolastique ; un homme qui trouve un plaisir puissant à entendre vibrer un grand accord parfait, sans essayer de le relever par quelque piment harmonique" (35)

JOSEPH JOACHIM

(1831—1907)

Moins connu comme compositeur que comme virtuose, le grand violoniste hongrois, ami de Brahms, de Mendelssohn et de Schumann, avait fondé, en 1896, le fameux *Quartette Joachim* qui s'illustra par la perfection de ses interprétations d'œuvres de musique chambre. Joachim est aussi l'auteur de plusieurs *cadenzas* pour violon. Celle du *Concerto en re majeur*, de Brahms est justement célèbre.

A la date des 16 et 23 Janvier 1887, Romain Rolland note dans son Journal :

"[Écouté] Joachim au concert du Châtelet (Beethoven, Spohr, Brahms, et la *Fantaisie* 131 de Schumann, qui lui est dédiée). Rythme puissant et qui enlève. Simplicité de Joachim : il reste grave, froid ; bonne tête couverte d'une crinière grise qui commence à se déplumer ; figure large et calme, encadrée dans une barbe et des favoris gris ; rien d'un artiste. Une grande sobriété de gestes, un peu de raideur dans la façon de saluer. Tel il est, tel est son jeu. Sobriété, vérité. Nulle exagération. Le plus grand naturel dans ses traits de violon et ses tours de force. Ce n'est pas un artiste de notre temps. Bonne fortune, d'entendre, à la fin du siècle, Schumann interprété par un ami de Schumann (31)".

RICHARD STRAUSS

(1864—1949)

"Silhouette haute et maigre, aux gestes saccadés et impérieux ... figure pâle un peu fiévreuse, les yeux singulièrement clairs, vagues et fixes à la fois, une bouche d'enfant, la moustache d'un blond blanc, des cheveux frisottants, formant une couronne au-dessus des tempes dégarnies, le front rond et gonflé

(35) Romain ROLLAND: *Le Cloître de la Rue d'Ulm. op. cit.* p. 190-191 (à la date du 4 Mars 1888).

(36) Romain ROLLAND : *Le Cloître de la Rue d'Ulm. op. cit.* p. 63.

et avec bonne humeur. J'imagine que Wagner devait parler ainsi : « Vous aimez-ma musique. Vous faites bien, c'est bien de votre part, je vous fais mes compliments ... vous avez entendu ma Messe ? Vous avez été content ? L'exécution était bonne. Cela a dû vous faire plaisir ... Oui ... Et la connaissiez-vous déjà ? ... Non ? ... vous ferez bien de la jouer ... Vous savez, elle est bonne à lire, elle est bonne à lire ... Et vous n'êtes pas le seul, à l'Ecole Normale, à admirer ma musique ? Allons, j'espère qu'elle se répandra ... ».

Et puis un geste qui en disait beaucoup. Et tout cela en souriant, en montrant ses dents menues et pointues, sans éclat de voix, sans hésitation, comme si ce qu'il disait était l'évidence même ... Il avait l'air d'un homme convaincu de la beauté des oeuvres du grand artiste César Franck, assuré du triomphe prochain du Beau, du Bien et du Vrai, et en tout cas dévoué à la cause de Franck "

Cette pointe d'humour malicieuse n'en est pas moins empreinte de quelque juvénile sévérité. Pourtant, Romain Rolland professait pour le grand compositeur belge une admiration sincère. Ainsi, le 30 janvier 1887, il notait encore dans son Journal :

« A cette heure, je me demande comment j'ai pu arriver à 21 ans sans m'être douté de ce qu'était César Franck »

Et le 12 octobre 1903, seize ans plus tard, il écrivait à Sofia Guerrieri-Gonzaga :

« César Franck est pour moi le seul génie musical depuis Wagner—beaucoup plus pur que lui—le plus sincère des musiciens depuis Beethoven ”

TCHAIKOVSKY

(1840—1893)

Une tête de diplomate ou d'officier russe. Favoris et barbe carrée. Front dégarni, osseux, fendu au milieu par une grande ride transversale ; de fortes arcades sourcilières ; les yeux très fixes, sans mobilité, regardant bien en face, mais en dedans tout ensemble ; ganté et cravaté de blanc. Quand il conduit l'orchestre, sa haute taille ne bronche pas, tandis que le bras droit, sec, dur, rapide, frappe la mesure dans l'air, parfois (dans la finale de la *Troisième suite*)

(32) Romain ROLLAND : *Le Cloître de la Rue d'Ulm. op. cit.* p. 201-202

(33) Romain ROLLAND : *Le Cloître de la Rue d'Ulm. op.cit.* p. 64.

(34) Romain ROLLAND : *Chère Sofia. Choix de Lettres de Romain Rolland à Sofia Bertolini Guerrieri-Gonzaga.* (1901-1908). Préface de Umberto Zanotti-Bianco, *Cahiers Romain Rolland* N° 10, 2 volumes, Albin Michel, Paris 1959-Tome Ier, p. 142.

Les portraits qui suivent, ceux de César Franck, Tchaïkovsky, Joachim, Richard Strauss, présentent un intérêt particulier. L'Artiste a, en effet, dessiné ces croquis d'après nature. Romain Rolland a eu, dans sa jeunesse, l'occasion de s'entretenir avec César Franck; il a vu Tchaïkovsky dirigeant l'orchestre qui exécutait ses oeuvres; il a assisté à un concert de Joachim. Enfin, son amitié avec Richard Strauss a duré de longues années. Aussi nous donne-t-il de ces grands musiciens une peinture en vision directe.

CESAR FRANCK (1822-1890)

«C'est un grand vieillard, maigre, sec, non pas timide mais gauche, de figure peu distinguée, encadrée de favoris blancs; un vilain sourire forcé ou gêné, lui ouvre la bouche et laisse voir les dents, quand il veut faire l'aimable. Rien d'un musicien mondain; il s'en faut de beaucoup. Il dirige l'orchestre d'une façon raide, automatique, un vrai métronome, avec des mouvements réguliers et secs, des gestes tranchants. C'est à peine s'il regarde ses chanteurs: c'est à eux de le regarder et de le suivre ...»

Ces lignes, écrites le 30 janvier 1887, sont extraites du Journal que tenait Romain Rolland alors qu'il était étudiant à l'Ecole Normale (30). Il continuera l'année suivante à y consigner ses impressions sur Franck :

Jendredi 22 mars 1888.—«Avec [André] Suarés, à Saint-Eustache, pour entendre la *Messe solennelle* de Franck ... Franck dirigeait, avec assez de feu, plus d'ampleur dans le geste qu'au concert où je l'avais vu. Une bonne tête de magistrat, un peu grimaçante».

28 mars 1888, Mercredi Saint.—«Je me décide enfin à faire visite à César Franck ... La porte s'ouvre, Franck paraît.

J'ai une courte conversation avec lui. Il ne me fait pas bonne impression. Il me semble d'un orgueil démesuré. Très aimable, d'ailleurs. Un grand vieillard, sec, vif, alerte, souriant de toute sa grande bouche, en montrant toutes ses dents petites et séparées les unes des autres; de petits yeux vifs; une petite tête grimaçante avec des favoris gris; une parole rapide, un peu nasillarde, assez sonore. Il me fait songer à Wagner, ce vieillard alerte, orgueilleux naïvement

(30) *Le Cloître de la Rue d'Ulm*. Journal de Romain Rolland à l'Ecole Normale (1886-1889) suivi de quelques lettres à sa mère et de *Credo quia Verum*. Cahiers Romain Rolland N°4, Paris, Albin Michel 1952.

(31) *Le Cloître de la Rue d'Ulm*. op. cit. p. 196.

machoires marque le rythme avec une sauvage puissance. Cette habitude inconsciente lui vint au cours des dernières années, dans le long exercice de la solitude. *Qui n'a point vu Romain Rolland sous le Démon de la musique, délivrant les forces qui inspirent la crainte, ne le connaît pas entièrement ...*

BERLIOZ
(1803-1869).

Romain Rolland a consacré à Berlioz des pages admirables. On aurait voulu pouvoir citer en entier le chapitre des *Musiciens d'aujourd'hui* traitant du grand romantique. La vie de Berlioz a été, on le sait, un long et douloureux calvaire, illuminée seulement par les éclairs de son génie. Nous nous contenterons de donner ici le portrait de l'homme.

«Il était très blond, et il avait les yeux bleus. «Des yeux enfoncés et perçants qui parfois, dit Joseph d'Ortigue se recouvrent d'un voile de mélancolie et de langueur. «Une crinière de cheveux», un immense parapluie de cheveux, surplombant en auvent mobile au-dessous d'un bec d'oiseau de proie. Un large front déjà sillonné de rides à trente ans; La bouche grande et fine, aux lèvres serrées, froncées au coin d'un pli sévère. Le menton saillant. Une voix assez grave. «Une conversation inégale, brusque, brisée, emportée, quelquefois expansive, plus souvent retenue et rude». De taille moyenne, svelte, proportionné, paraissant beaucoup plus grand assis. Maigre, anguleux toujours en mouvement, ayant gardé de son origine dauphinoise un goût d'alpiniste, une passion de marches, d'ascensions, de vagabondages qu'il conserve jusqu'à soixante cinq ans. Une santé de fer, qu'il ruine avec ses privations et ses extravagances, ses courses sous la pluie, ses sommeils en plein air, et presque dans la neige. Dans ce corps de montagnard robuste, sec, et endurant, une âme brûlante et débile, dont le sentiment le plus fort, le plus constant, le plus torturant, fut un besoin maladif de tendresse », (29)

(28) P. J. JOUVE: *Romain Rolland vivant*. Paris, Ollendorff 1920, p. 19-20—C'est nous qui soulignons cette phrase pour mieux faire ressortir la légèreté avec laquelle s'est exprimé Pierre de Boisdeffre à ce sujet, quand il a écrit à propos de Romain Rolland: "Il voulut être musicien, mais l'opposition de sa famille (sic) et son manque de volonté le réduisirent à penser des idées musicales sous une forme littéraire" ce qui est, on le voit absolument faux, et ses ouvrages sur Beethoven et Haendel sont là pour le prouver. Romain Rolland fut à la fois interprète et musicologue. S'il ne devint ni un virtuose, ni un concertiste ni un compositeur, il possédait néanmoins à fond sa matière, en artiste et en érudit, et non point seulement «sous une forme littéraire» comme le veut Boisdeffre. (Pierre de BOISDEFFRE: *Une Histoire vivante de la littérature d'Aujourd'hui*. (1939-1964). Paris, Perrin 1964, p. 252). On peut opposer aussi aux affirmations de Pierre de Boisdeffre la citation de Martinet reproduite au début de notre article.

(29) Roman ROLLAND: *Musiciens d'Aujourd'hui* (18ème édit). Paris, Hachette 1947, p. 8-9.

ils tournaient vers le ciel un regard mélancolique. Le nez était court, cassé, large, un mufle de lion. Une bouche délicate, mais la lèvre inférieure tendait à avancer sur l'autre. Des mâchoires redoutables, qui auraient pu broyer des noix. Une fossette profonde au menton, du côté droit, donnait une étrange dissymétrie à la face. «Il avait un bon sourire dit Moscheles, et dans la conversation, un air souvent aimable et encourageant. En revanche, le rire était désagréable, violent et grimaçant, du reste court»,—le rire d'un homme qui n'est pas accoutumé à la joie. Son expression habituelle était mélancolique, «une tristesse incurable». Rellstab, en 1825, dit qu'il a besoin de toutes ses forces pour s'empêcher de pleurer, en voyant ses doux yeux et leur douleur poignante».

Son visage se transfigurait, soit dans ses accès d'inspiration soudaine qui le prenaient à l'improviste, même dans la rue, et qui frappaient d'étonnement les passants, soit quand on le surprenait au piano. «Les muscles de sa face saillaient, ses veines gonflaient; le yeux sauvages devenaient deux fois plus terribles; la bouche tremblait; il avait l'air d'un enchanteur vaincu par les démons qu'il a évoqués». Telle une figure de Shakespeare. Julius Benedict dit : «Le Roi Lear».

A ce dernier portrait de Beethoven nous ne pouvons nous empêcher de comparer un autre, plutôt oublié celui-là, de Romain Rolland lui-même quand il se mettait au piano, et que nous a conservé P.J. Jouve. Ils procèdent tous deux d'une même inspiration, et l'on constate que Jouve avait lu les pages du maître :

« Il arrive que sur les instances d'une ami, [Romain Rolland] se mette au piano. Il joue quelques pages des demi-dieux de la musique, familiers à son esprit, consolation de son coeur : Heandel, Bach ou Beethoven, celui des dernières *Sonates*, des *Variations* ou de la *Messe en Ré*; ou encore il ouvre ses carnets de notes, et fait revivre un vieil air grégorien, une ariette italienne de Niccolo Provenzale ou de Scarlatti, un chant de Gluck... C'est un autre homme. Le masque est devenu presque effrayant dans sa rigidité froide qu'habite le feu. Le dos s'est voûté un peu plus, le front s'abaisse, l'oeil s'absorbe. Une formidable énergie semble l'exalter et l'épuiser, avant de descendre jusqu'aux doigts longs et arqués, qui brisent les touches ou les effleurent. Une contraction des

(27) Romain ROLLAND : *Vie de Beethoven*, Paris, Hachette 1927, p. 1-4.

Beethoven écrivait, en 1824 : «Haendel est le plus grand compositeur qui ait jamais vécu. Je voudrais m'agenouiller sur sa tombe ».

BEETHOVEN

(1770-1827)

Nous possédons, dus à la plume de Romain Rolland, deux portraits de Beethoven, portant des dates différentes. L'un de 1894, est extrait de la *Correspondance avec Malwida von Meysenbug* (26) ; l'autre, de 1903, se trouve dans la *Vie de Beethoven*, qui parut aux *Cahiers de la Quinzaine*. Nous les donnons tout deux dans l'ordre chronologique.

1. «J'ai maintenant sous les yeux, à la muraille de ma chambre, le visage de Beethoven. C'est un masque qui fut fait de son vivant, en 1812, l'année de la *Symphonie en la*, et de la rencontre avec Goethe à Teplik ... Il est terrible. La bouche est violemment serrée, les paupières lourdement abaissées. C'est d'un sérieux imposant, et sombre jusqu'à la mort. Cependant on sent qu'il vit ; et on a des instant de frayeur, le soir, qu'il ne se mette à parler. Les traits sont laids ; on voit comme les productions allemandes l'ont idéalisé d'une façon banale. C'est une figure de Mongol, au front bosselé (mais sans rides, seulement le plissement des sourcils), au nez court et un peu écrasé, aux profils très irréguliers (un des côtés du menton est beaucoup moins élevé que l'autre). L'impression qui vous pénètre à sa vue, est celle d'une solitude oésolée, inaccessible et violente.»

2. «Il était petit et trapu, de forte encolure, de charpente athlétique. Une large figure, de couleur rouge brique, sauf vers la fin de sa vie, où le teint devint maladif et jaunâtre, surtout l'hiver, quand il restait enfermé, loin des champs. Un front puissant et bosselé. Des cheveux extrêmement épais, où il semblait que le peigne n'eût jamais passé, hérissés de toutes parts, «les serpents de Méduse». Les yeux brûlaient d'une force prodigieuse, qui saisit tous ceux qui le virent ; mais a plupart se trompèrent sur leur nuance. Comme ils flambaient d'un éclat sauvage, dans une figure brune et tragique, on les vit généralement noirs ; ils ne l'étaient pas, mais bleu gris. Petits et très profondément enfoncés, ils s'ouvraient brusquement dans la passion ou la colère, et alors roulaient dans leurs orbites, reflétant toutes leurs pensées avec une vérité merveilleuse. Souvent,

(25) Romain ROLLAND : *Voyage musical au Pays du Passé*, Paris, Hachette 1946 (1ère) édition : 1920) p. 54-73.

26 Romain ROLLAND : *Choix de Lettres à Malwida von Meysenbug*, établi par Marie ROMAIN-ROLLAND, Paris, Albin Michel 1948, p. 113.—La lettre en question est datée de «Dimanche soir, lundi matin, 4-5 mars 1894».

et noyée dans la graisse, doubles joues, triple menton, le nez gros, grand, droit, l'oreille rouge et longue. Il regardait bien en face, une lumière railleuse dans l'oeil hardi, un pli moqueur au coin de la grande bouche fine. Son air était imposant et jovial. «Quand il souriait dit Bierney—sa figure lourde et sévère rayonnait d'un éclair d'intelligence et d'esprit : tel le soleil sortant d'un nuage».

Il était plein d'humour. Il avait «une fausse simplicité malicieuse qui faisait rire les personnes les plus graves sans que lui-même il rit. Jamais homme ne conta mieux une histoire. L'heureuse manière qu'il avait de dire les choses les plus simples autrement que tout le monde leur donnait une couleur amusante. S'il avait possédé l'anglais aussi bien que Swift, ses bons mots eussent été aussi abondants et de même nature». Mais, pour bien jouir de ce qu'il disait, il fallait presque savoir quatre langues : l'anglais, le français, l'italien et l'allemand, qu'il mêlait tout ensemble.

Il resta toute sa vie d'une liberté admirable. Il haïssait toutes chaînes et demeura en dehors des fonctions officielles ... Peu instruit, semble-t-il en dehors de la musique, il avait le dédain des Académies et des musiciens académiques. Il ne fut pas docteur d'Oxford, quoiqu'on lui eût offert ce titre ... A Dublin, quand on l'intitulait sur une affiche «Dr. Haendel», il se fâchait et faisait bien vite rétablir sur les programmes «Mr. Haendel ...».

Dans ce combat perpétuel (que fut sa vie), jamais il n'usa de concessions, de compromis, de ménagements ... Il tint tête à l'aristocratie londonienne. La guerre fut âpre, impitoyable, ignoble de la part de ses ennemis ... Et si plus tard il finit par vaincre, ce fut pour des raisons étrangères à l'art ... Haendel devint subitement, après la bataille de Culloden (24) et les deux oratorios patriotiques, *l'Occasional Oratorio* et *Judas Macchabée*, un barde national. A partir de ce moment, sa cause fut gagnée, et la cabale dut se taire : il était une partie du patrimoine de l'Angleterre; le lion britannique était à ses côtés ...

Cette puissante nature, ces violences, ces emportements de colère et de génie étaient dominés par une maîtrise souveraine. En lui régnait cette paix que reflètent en leurs fils certaines unions robustes et tardives. Il garda, toute sa vie, dans son art, cette sérénité profonde ...

Mais le plus beau sentiment, le plus pur qui fût en lui, à été son ardente charité ... La charité fut pour lui la vraie foi ... Il aimait Dieu dans les pauvres ...

(24) Bataille qui eut lieu en 1746 et au cours de laquelle les Jacobites, partisans de Jacques II et de son fils Jacques III, ainsi nommés après la révolution de 1688, furent défaits par le duc de Cumberland, ce qui mit ainsi fin aux divisions intestines qui déchiraient l'Angleterre (R. K.).

brillaient d'esprit et de malignité. Le nez charnu, aux narines gonflées, des joues lourdes, sabrées de plis grimaçants. Les lèvres épaisses, une grande bouche volontaire, qui, lorsqu'elle ne bouffonnait point, avait une expression dédaigneuse. Le menton gras, creusé d'un sillon au milieu. Le cou fort. Paul Mignard et Edelinck cherchent à l'ennoblir dans leurs portraits : ils l'amaigrissent, ils lui donnent plus de caractère ; Edelinck lui prête la physionomie d'un grand oiseau de proie nocturne. De tous les portraitistes, le plus vrai paraît être Coysevox, qui ne s'est point soucié de faire un portrait d'apparat, mais qui l'a présenté simplement, comme il était dans la vie ordinaire, le cou nu, dépoitraillé, l'air brutal et maussade.

Au moral, on le connaît—assez fâcheusement. On sait qu'avec tout son talent, il ne fût jamais arrivé à la situation exceptionnelle qui lui fut dévolue sans un esprit de basse intrigue, un mélange de bouffonnerie et de flagornerie qui lui conquirent, au moins autant que sa musique, le protection du Roi. On sait par quelles ruses—disons : par quelles perfidies—il supplanta Perrin et Cambert, fondateurs de l'Opéra français et trahit Molière, dont il était l'associé et l'ami... Il était d'une ambition extrême (22)."

HAENDEL

(1685—1759)

"Le «magnifique portrait» de Haendel, qu'on va lire ci-après, est extrait d'une étude publiée dans *Voyage musical au Pays du passé*. Il ne figure pas dans la monographie que Romain Rolland a consacrée à ce compositeur, et qu'un éditeur, avec un entêtement absurde et sacrilège, l'obligea à mutiler, à réduire de moitié ... (23) ».

"On l'appelait le grand ours. Il était gigantesque, large, corpulent : de grandes mains, de grands pieds, les bras et les cuisses énormes. Ses mains étaient si grasses que les os disparaissaient dans la chair et formaient des fossettes. Il allait, les jambes arquées, d'une marche lourde et balancée, très droit, la tête, en arrière, sous sa vaste perruque blanche, dont les boucles ruisselaient pesamment sur ses épaules. Il avait une longue figure chevaline, devenue bovine avec l'âge,

(22) Romain ROLLAND : *Musiciens d'Autrefois*, 14ème édition. Hachette, 1946, p. 108 et suivantes. — Sur la vie de ce compositeur, on lira avec profit, à part le chapitre qui lui a consacré Romain Rolland, l'excellent ouvrage de Henry PRUNIÈRES : *La Vie illustre et libertine de Jean-Baptiste Lully*. Collection «Le Roman des grandes existences» Paris, Plon 1929, ainsi que l'étude de P. FENELON dans *les Grands Musiciens*, Paris, éditions Olivier Lesourd 1945.

(23) Henry PRUNIÈRES : *op. cit.* p. 304 ... Il s'agit de l'édition de 1910; celle de 1951, bien qu'augmentée de chapitres inédits, comme l'affirme une note, ne contient pas, non plus, ce portrait.

de m'y retremper par grands bains prolongés (plus de 20 concerts et théâtres en 30 jours). Je dois me consacrer aux tâches principales qui exigent toutes mes forces ... Impossible de faire au milieu d'elles une place à la musique. Je l'aime trop pour écrire sur elle négligemment. Je ne suspendrais mon vœu de silence que le jour où je rencontrerais un Beethoven vivant. Alors je lui sacrifierais tout le reste pour un temps''.

Il tint parole. En janvier 1928 paraissait le premier des sept volumes de l'oeuvre monumentale dont la publication se poursuivra jusqu'après la mort de son auteur.

La seconde rencontre avec Beethoven, à ses yeux le seul et l'unique, le grand Beethoven toujours vivant, avait réussi à lever l'interdit.

II.—PORTRAITS DE MUSICIENS

Les portraits de musiciens de Romain Rolland rejoignent sa célèbre galerie de portraits de femmes : Sabine, Anna, Jacqueline, Antoinette, Ada ... Ici aussi le génie de l'artiste rivalise avec le talent de l'écrivain.

Les textes que nous présentons ci-après sont disposés selon l'ordre chronologique et accompagnés d'un bref commentaire.

J. B. LULLY (1632—1687)

Romain Rolland avait entrepris pour la première fois, succinctement, l'étude de Lully dans son *Histoire de l'Opéra en Europe*. Plus tard, il reprendra le sujet dans un chapitre de ses *Musiciens d'Autrefois*, en s'inspirant surtout d'un biographe contemporain du compositeur : Lecerf de la VIEVILLE.

«Une figure intelligente et vulgaire. Les sourcils gros. De petits yeux noirs, bordés de rouge, qu'on voyait à peine, et qui avaient peine à voir, mais qui

(20) Henry PRUNIERES : *op. cit.* p. 306.

(21) Romain ROLLAND : Beethoven. Les grandes époques créatrices. 7 volumes. Paris, Editions du Seuil. 1928-1949.

Tome 1 : *De l'Héroïque à l'Appassionata* (1928).

Tome 2 : *Goethe et Beethoven* (1930).

Tome 3 : *Le Chant de la Résurrection* (La Messe Solennelle et les dernières sonates) (1937).

Tome 4 : *La Cathédrale interrompue*.—1. *La Neuvième Symphonie* (1943).

Tome 5 : *La Cathédrale interrompue*.—2. *Les derniers Quatuors* (1943).

Tome 6 : *La Cathédrale interrompue*.—3. *Finita Comoedia*. (1945).

Tome 7 : *Les Aimées de Beethoven* (Suppléments et Compléments) (1949).

Une nouvelle édition réunissant les 7 volumes en un seul a récemment paru chez Albin Michel (1966).

de ce dernier. Cette inconscience même est une garantie de sa sincérité. Quelques pages d'un grand musicien apprennent plus sur son âme que ses biographies ou ses lettres ... (15). Le développement des phrases, la marche du morceau parlent éloquentement de son intelligence, du mécanisme de ses idées, de l'ordre et de la raison qui règnent dans son cerveau ... Le musicien qui crée n'a qu'à laisser vibrer ses souvenirs et ses passions; tout ce qu'il sent devient musique ... (La Musique) est une psychologie dont le cœur a la clef (16)».

C'est pourquoi ses autres ouvrages seront accueillis avec la même faveur. Mais voici que, après *Musiciens d'Autrefois et Musiciens Aujourd'hui*, (1908) *Haendel* (1910) (17), quelques articles publiés dans *l'Encyclopédie de la Musique* (1913) (18) et enfin *Voyage musical au Pays du Passé* (1919) (19), brusquement Romain Rolland se tait, et son silence durera dix années entières. Dans une lettre à Prunières, il explique lui-même les raisons qui l'ont motivé : «Non, mon cher ami, je n'écris plus d'articles sur la musique. *Tempi Passati* ! Je me contente

(15) On voit ici avec quelle hardiesse Romain Rolland innove puisque déjà à cette date (1885), il attribue la création musicale à une production du subconscient.

(16) Romain ROLLAND : *Histoire de l'Opéra ... op. cit.* p. 9.

(17) Une édition augmentée du *Haendel*, revue par Félix RANGEL, a paru chez Albin Michel en 1951.

(18) Dans la préface ajoutée à sa thèse en 1931, Romain Rolland note à ce sujet : «J'ai réécrit entièrement, sous une forme abrégée mais précise, et en l'accompagnant de nombreux exemples musicaux, toute l'histoire de l'Opéra au XVII^{ème} siècle en Italie, en France en Allemagne, en Angleterre dans *l'Encyclopédie de la Musique* et le *Dictionnaire du Conservatoire*, publiés sous la direction de Robert Lavignac, dans les années qui ont précédé directement la guerre».

Pour la chronologie de l'œuvre musicologique de Romain Rolland, voir notamment : Raouf KAMEL : *Bibliographie de l'œuvre de Romain Rolland*, in *Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University*, volume XV, part 1, May 1953, pp. 59-61. Une bibliographie plus détaillée et complète se trouve par ailleurs dans la thèse de Arthur LEVY : *L'Idéalisme de Romain Rolland*, Paris, Nizet 1946. Mais il faut compter aussi la volumineuse correspondance publiée depuis cette date par Marie ROMAIN-ROLLAND : *Lettres à Malwida von Meysenbug et à Richard Strauss*, où l'on trouve des renseignements précieux. Il en va de même pour les Mémoires et autres fragments du Journal de l'auteur, récemment publiés. Et la série ne semble pas terminée.

(19) Il s'agit, dans ce volume aussi, d'études publiées entre 1900 et 1910. Seul «de Télémann est inédit», prévient Romain Rolland dans une note. Mais sans doute cette étude se trouvait-elle déjà dans ses cartons puisqu'elle avait fait l'objet d'un cours.

Romain Rolland collabore à la *Revue d'Histoire et de Critique musicale*, qui deviendra plus tard la *Revue Musicale*, de même qu'à la *Revue de Paris*, jusqu'en 1910. Chargé, par ailleurs, d'un cours sur l'histoire de l'Art à la Sorbonne en 1902, il avait introduit pour la première fois l'histoire de la musique dans l'enseignement de la faculté. «C'est devant une foule enthousiaste et qui s'écrasait pour l'entendre, que Romain Rolland professa durant plusieurs années», nous apprend encore Henry Prunières qui fut son élève (11). Et ce sont justement ses notes de cours qui se trouvent à l'origine des deux recueils que nous venons de mentionner.

En 1903 parut, aux *Cahiers de la Quinzaine*, la *Vie de Beethoven*. Ce fut un événement littéraire que Péguy relate en ces termes : «Le *Beethoven* de Romain Rolland venait de paraître. (On) se rappelle encore quelle soudaine révélation fut ce cahier, quel émoi il souleva d'un bout à l'autre, comme il se répandit soudainement, comme une vague, comme en dessous, pour ainsi dire instantanément, dans une révélation aux yeux de tous, dans une entente soudaine, dans une commune entente, non point seulement le commencement de la fortune littéraire de Romain Rolland, mais infiniment plus qu'un commencement de fortune littéraire, une révélation morale, un pressentiment dévoilé, révélé la révélation, l'éclatement, la soudaine communication d'une grande fortune morale (12)».

La raison d'un tel succès en était la vision même de l'auteur : «Romain Rolland se refuse de juger son héros en pur musicien. Il ne sépare pas l'homme de l'oeuvre. Il aime surtout dans celle-ci le reflet de la grande âme qui s'y mire(13)» Cette remarque de Prunières rejoint celle de Marcel Martinet, à savoir que Romain Rolland «toujours aime et cherche l'homme, dans l'oeuvre critique comme dans l'oeuvre de création; autrement la science ni l'art n'ont de sens pour lui».(14) On voit cette tendance s'esquisser déjà dans la thèse de doctorat : «La musique est l'expression immédiate et profonde du sentiment, y lit-on; chez les génies, l'expression est le reflet exact du sentiment, sans que l'artiste ait souvent conscience

(11) Henry PRUNIERES : *op. cit.* p. 302.—Romain Rolland occupa ces fonctions jusqu'en 1911.

(12) Charles PÉGUY, cité par H. PRUNIERES : *op. cit.* p. 217.

(13) Henry PRUNIERES : *op. cit.*, p. 304.

(14) Marcel MARTINET : *op. cit.* p. 40.

rendu à la vie un Claudio Monteverdi, tombé jusqu'alors dans un oubli complet. L'auteur souligne lui-même le fait dans ses Mémoires: «Ma thèse, écrit-il, a rouvert à la musique de cette fin du 19^{ème} siècle, les sources bien oubliées des maîtres italiens du début du 17^{ème} et en particulier de Monteverdi. Quand on voit aujourd'hui la célébrité d'un tel nom, dont le génie a repris place au premier rang de l'histoire des arts et dont les oeuvres les plus rares sont à présent diffusées par le gramophone et la radio, on a de la peine à se figurer qu'en 1885, il fût pratiquement inconnu-un nom sans contenu, une étiquette sans flacon-relégué dans les dictionnaires de musique (7)».

Sans doute, relève encore Henry Prunières à propos de l'*Histoire de l'Opéra*, «nous constatons bien des lacunes dans cet ouvrage, et les chapitres : France, Allemagne, Angleterre sont insuffisants (8).» Dans une nouvelle préface ajoutée à son livre en 1931, Romain Rolland reconnaissait lui-même le fait (9), aussi avait-il pris soin de compléter ces chapitres par des articles ultérieurs qui, réunis, formèrent les deux volumes intitulés *Musiciens d'Autrefois et Musiciens d'Aujourd'hui*, publiés en même temps en 1908 (10). En effet, de 1901 à 1906

(7) Romain ROLLAND : *Mémoires*, op. cit. p. 194-195.

(8) Henry PRUNIÈRES : op. cit. p. 301;

(9) Romain ROLLAND : *Les Origines du Théâtre lyrique moderne. Histoire de l'Opéra en Europe avant Lully et Scarlatti* (Thèse pour le doctorat) Bibliothèque des Ecoles françaises d'Athènes et de Rome, fasc. LXXI, Paris, Thorin 1895.—L'ouvrage qui contient la préface de 1931 a pour éditeur Boccard. Il s'agit en fait, pensons-nous, de l'édition même de 1895, non épuisée, reprise par Boccard et à laquelle l'auteur ajouta la préface en question.

(10) On nous permettra ici une remarque à propos d'un fait qui semble n'avoir retenu l'attention d'aucun commentateur. Nombreux sont, on le sait, les critiques qui ont reproché à Romain Rolland son style jugé «lâche» et sa «syntaxe défectueuse». Or, il ne paraît pas que l'*Histoire de l'Opéra* puisse encourir ce reproche. Décèlerait-on la direction — et peut-être la plume — de Michel Bréal qui était, on s'en souvient, professeur de philologie et de grammaire comparée à la Sorbonne, comme ce sera le cas, par exemple, pour la thèse complémentaire de Romain Rolland : *De la Décadence de la Peinture italienne au XVI^{ème} siècle*. (*Cahiers Romain Rolland* No. 9. Paris, Albin Michel 1957)? Jacques Robichez fait observer, en effet, au sujet de notre auteur, que son beau-père ... voyait d'un mauvais oeil les débuts nonchalants de sa carrière. A lui, dit-il, Rolland ne put refuser ce qui était la condition de son mariage : la préparation d'un doctorat ès-lettres. Il n'avait aucun enthousiasme pour cette besogne qui le détournait de ses ouvrages d'imagination. C'était un pensum dont, malgré tout, sans cesse contre les exigences de l'érudition, il se débarrassa en quatorze mois». (Jacques ROBICHEZ : *Romain Rolland Collection* «Connaissance des lettres». Paris, Hatier 1961, p. 31). Rien de plus naturel donc que le grand érudit, excellent écrivain du reste, eût supervisé le travail de son gendre. Il en est résulté un exposé intéressant, certes, nouveau pour l'époque mais d'aspect didactique et quelque peu professoral, plutôt terne, il faut l'avouer, en dépit de sa perfection grammaticale, et qui forme un contraste assez frappant avec les deux volumes qui devaient lui servir de complément. (Sur l'école de Michel Bréal et ses théories linguistiques, voir notamment Albert DAUZAT : *La Philosophie du Langage* : Bibliothèque de Philosophie scientifique, Flammarion Paris, 1917 *passim*, mais surtout pp. 166-168. C'est Bréal qui, en philologie, créa la Sémantique).

musiciens brossés par un artiste authentique, en nous réservant le rôle modeste d'encadreur. Ces deux mots d'introduction permettront donc de mieux comprendre les textes qui vont suivre.

On sait tout ce que Romain Rolland doit à sa mère : ce fut elle qui lui ouvrit l'univers des sons, et des pages admirables ont été consacrées à cette noble femme dans le *Voyage Intérieur* (4). Mais l'«illumination», comme il dit lui-même, se fit en 1883 : «Je m'étais gorgé de Berlioz, de Wagner, pendant tout l'hiver [1883-1884], écrit-il ; la révélation beethovenienne était venue par la *Septième Symphonie* et l'impérial *Concerto en mi-bémol* imprimé dans ma chair par la griffe souveraine de Rubinstein. [L'année] 1884 marque le plein de ma conquête par Beethoven et Wagner. Je trépignais» (5). Néanmoins, quelques années plus tard, Rome le ramènera aux pré-classiques : Bach et Rameau. En 1889, il écrit à sa soeur : «Je me mozartise toujours davantage».

En octobre 1891, Romain Rolland épouse Clotilde Bréal, fille de Michel Bréal, professeur à la Sorbonne. Ensemble, les deux jeunes gens partent à la recherche des manuscrits qui serviront pour la thèse que soutiendra Romain Rolland en 1895 sur *l'Histoire de l'Opéra en Europe avant Lulli et Scarlatti*. «Nous avons pris un appartement au premier de la via del Babbuino, près de la place d'Espagne, lit-on dans ses Mémoires ; à quelques pas, la bibliothèque Santa Cecilia où... le cavalier Berwin... veillait sur la musique ensevelie dans les manuscrits et les éditions rares des temps passés... Ma jeune femme était musicienne autant que moi ; la musique était de moitié dans notre amour. Quelle joie c'était de partager ensemble l'émotion des découvertes ! Elle passait des matinées, avec moi, à la bibliothèque, à copier des partitions. Nous étions tous les deux enivrés de ces arômes de belle musique, que nous faisons lever des manuscrits où couraient nos yeux et nos doigts... Et le soir, au piano, nous savourions nos conquêtes : c'était la première fois, depuis des siècles, que ces chants se réveillaient, nous en humions le renouveau, tout frais encore, non éventé... En moins de quatre mois, entre Noël [1892] et Pâques [1893] j'avais ramassé la matière de mon livre sur l'Opéra... » (6)

La valeur de cet ouvrage demeure indéniable, bien qu'il soit aujourd'hui naturellement dépassé. Entre autres mérites, il a eu notamment celui d'avoir

(4) Romain ROLLAND : *Le Voyage Intérieur* (Nouvelle édition augmentée de textes inédits) Paris, Albin Michel 1959, pp. 80-89.

(5) Cité par Jean-Bertand BARRÈRE : *Romain Rolland par lui-même*. Collection «Ecrivains de toujours» Paris, éditions du Seuil, (s.d.) p. 28

(6) Romain Rolland : *Mémoires et Fragments de Journal*. Paris, Albin Michel, 1956, p.194.

PORTRAITS DE MUSICIENS DE ROMAIN ROLLAND

Présentés par

RENÉ KHOURY

I.—INTRODUCTION

Alors que la vie de Romain Rolland a, pour ainsi dire, tout entière baigné dans la musique, il est étrange de constater combien peu de pages ont été consacrées à son oeuvre de musicien. A part les brèves études de Henri Prunières (1) et de Gustave Samazeuilh (2) personne, à notre connaissance, ne s'est occupé de Romain Rolland musicologue. Il ne fait point de doute cependant que, chez lui, l'écrivain procède de l'artiste et ce dernier de la musique, dont le rythme cadencait toutes les pulsions de la pensée. «On peut dire, observe Marcel Martinet, que c'est par la musique et en elle que son intelligence, autant que sa sensibilité, s'est connue et s'est formée, et nous en retrouvons l'inspiration et les méthodes dans les conceptions du penseur et jusque dans l'esthétique de l'écrivain. Le cas est rare dans la littérature et, en France, peut être exceptionnel» (3).

Le silence des auteurs à ce sujet a donc lieu de nous surprendre. Mais il est vrai que l'œuvre musicologique de Romain Rolland, pour importante qu'elle soit, s'étend sur une période de temps assez considérable. N'empêche que la Musique plane sur chacun de ses livres. En certaines pages tourmentées de "Jean-Christophe", on sent passer la houle des grandes orchestrations.

Notre petite étude n'entend pas traiter de Romain Rolland musicologue. Nous avons voulu simplement présenter, dans ces pages, quelques portraits de

(1) Henri PRUNIÈRES *Romain Rolland et l'Histoire musicale in Revue Europe*, numéro spécial dédié à Romain Rolland à l'occasion de son soixantième anniversaire, Paris, février 1926-Cette étude contient malheureusement quelques erreurs de dates.

(2) Gustave SAMAZEUILH : *Romain Rolland et la Musique - in Correspondance de Richard Strauss et Romain Rolland, Cahiers Romain Rolland*, N° 3, Paris, Albin Michel 1951, p. 223-235.

(3) Marcel MARTINET: *Pages choisies de Romain Rolland*, 2 volumes, Paris, Ollendorff, 5ème édition 1921, p. 37.

17. 300.
18. 19.
19. 19.
20. 19.
21. 19.
22. 19.
23. 20.
24. 20.
25. 20.
26. 20.
27. 20.
28. »Wen man tun liesse, was er wolle, der koennte sich bald vor Verwirrung den Kopf einrennen. Oder so : Wer sich erfuehlen kann, was er mag, weiss bald nicht mehr, was er wuenschen soll« S. 20.
29. 21.
30. 21.
31. 21.
32. 21.
33. 264.
34. 662f.
35. 668.
36. 668.
37. Diese ebenso knappe wie treffende Formel entnehmen wir der Musil-Studie von H. P. Puetz, in : Deutsche Dichter der Moderne, hrsg. von B. v. Wiese, Berlin o. J., S. 317. Musils wichtigste grundsatzliche Bemerkungen ueber den »anderen Zustand« finden sich in dem Aufsatz »Ansaezte zu neuer Aesthetik. Bemerkungen ueber eine Dramaturgie des Films«, T 673f. Eine erschoepfende Analyse der Reflexionen Ulrichs ueber den »anderen Zustand« leistet R. v. Heydebrand, Die Reflexionen Ulrichs in Robert Musils Roman »Der Mann ohne Eigenschaften«, Muenstersche Beitrage zur Deutschen Literaturwissenschaft Bd. 1. Muenster 1966, S. 95ff.
38. T 677.
39. Darauf verweist schon die Vorausdeutung S. 777, deren Gueltigkeit durch alle ueberhaupt in Frage kommenden Zeugnisse innerhalb und ausserhalb des Romans beglaubigt wird. Zur Fluechtigkeit des »Anderen Zustands« vgl. besonders auch Musils Aeusserungen T 284 und T 683.
40. 1620.
41. Vgl. hierzu auch W. Berghahn, Robert Musil in Selbstzeugnissen und Bilddokumenten, Hamburg 1963, S. 144.
42. 1615.

ANMERKUNGEN

«Der Mann ohne Eigenschaften» wird zitiert nach der Ausgabe von A. Frisé, Hamburg 1956. Die arabischen Ziffern entsprechen der Seitenzahl. Bei Zitaten aus dem Band «Tagebuecher, Aphorismen, Essays und Reden», hrsg. von A. Frisé, Hamburg 1955, ist die Seitenzahl zusaetzlich mit einem T markiert.

1. 16.
2. 16.
3. Am nachdruecklichsten wohl von W. Rasch, Robert Musil. Der Mann ohne Eigenschaften. In : Der deutsche Roman, Bd. II, Duesseldorf 1963, S. 368.
4. 133.
5. Die intellektuelle Aktivitaet, die Ulrich zu diesem Zweck entwickelt, wird im Roman nicht bloss behauptet ; sie wird im Vollzug dargestellt. Daraus ergeben sich weitreichende Konsequenzen fuer die Struktur des Werkes. Musils Roman ist ebenso Musterbeispiel eines intellektualen wie eines ironischen Romans. Was er an epischer Substanz enthaelt - z. B. die Geschichte der Parallelaktion oder Ulrichs Beziehungen zu anderen Menschen, die variierend oder kontrastierend auf ihn verweisen, bildet die Basis fuer Reflexionen, die meist von der Titelfigur, mitunter aber auch vom Autor ausgehen. Und mehr als das : die erzaehlerischen Partien haben selbst reflektierenden Charakter, sind Fortsetzung der Reflexionen mit anderen Mitteln, da Wirklichkeit im Roman nur in der Perspektive jenes Moeglichkeitssinnes erscheint, der Ulrich bei allen Ueberlegungen leitet.
6. 18.
7. 155.
8. 120.
9. 152. Einen Zusammenhang dieser Einsichten mit den Lehren Ernst Machs, ueber die Musil 1908 promovierte, behauptet besonders nachdruecklich D. Kuehn (Analogie und Variation, Zur Analyse von Robert Musils Roman «Der Mann ohne Eigenschaften», Bonn 1965, S. 21ff.).
10. Technisch gesehen folgt daraus, dass Ulrichs Geschichte nicht korrekt «erzaehlt» und das heisst : nicht durchgehend in eine durch die Kategorien der Zeit und der Kausalitaet bestimmte Ordnung gefuegt werden kann. Vgl. hierzu W. Rasch a. a. O. S. 318ff. und D. Kuehn a. a. O. S. 9ff.
11. Der Verfasser muss sich auf seine Erinnerung verlassen. Bei der Drucklegung des Aufsatzes an einem bibliotheksfernen Ort war eine nochmalige Ueberpruefung der Sekundaerliteratur nur teilweise moeglich.
12. 17.
13. 18.
14. 18f.
15. 19.
16. 1191.

ist, als begrifflicher Mitteilung sich entziehendes, mystischer Ekstase analoges Erlebnis der Identitaet des in Zeit und Raum Geschiedenen, als «Versinken in Gott ohne Gott» (37). Das Ausserordentliche des «anderen Zustands» zeigt sich darin, dass die Liebe, die ihn induziert, ebenfalls eine ausserordentliche, aus allen Ordnungen fallende ist : naemlich die bis zum Inzest sich steigernde Geschwisterliebe. Nichts, so moechte man meinen, koennte weiter von Ulrichs Utopie des exakten Lebens entfernt sein. Musils Ueberzeugung aber geht dahin, dass Erfahrungen im «anderen Zustand» eben jene Unwiderlegbarkeit besitzen, die Ulrich an den Ergebnissen der exakten Wissenschaft bewundert und ihn ueberlegen liess, ob deren Methoden auf die Lebensfuehrung angewandt werden koennten. Wie weit Ulrich auf seinem neuen Weg gelangen sollte, laesst sich freilich aus dem philologisch ungesicherten fragmentarischen Kontext des Romans zuverlaessig nicht erschliessen. Sicher ist nur, dass der Versuch, dem «anderen Zustand» Dauer zu verleihen, fluechtige Augenblicke der Entruuekung - wie Musil sagt - zur Totalitaet zu strecken (38), zum Scheitern verurteilt ist (39). «Ulrichs System ist am Ende desavouiert ... », notiert der Autor auf einem Studienblatt, «die Utopien sind zu keinem praktikablen Ergebnis gekommen» (40).

Die Skizzen zur Fortsetzung des Romans, die der Nachlass enthaelt, bestaetigen nur, dass Musil seine Grenzen ausgeschritten hatte. Es sind die Grenzen eines Dichters, der zu wahrhaftig ist, die gesuchte praktikable Loesung zu erschleichen oder einfach zu behaupten (41). Ungeloest bleibt damit aber auch das Dilemma der Titelgestalt, wie es sich paradigmatisch in der Einrichtungsfrage zum ersten Mal offenbart. Man sollte nicht anstehen, es tragisch zu nennen. Denn das weltlose Leben, zu dem Ulrich verdammt ist, hat sich als notwendiges Resultat seiner anspruchsvollen Liebe zum Leben erwiesen - zum Leben in einer Gestalt, die nicht «ebensogut anders» sein koennte. «Aber gerade du hast doch die unerschuetterliche und die ganze Antwort gesucht» (42), sagt Agathe bei einer letzten Begegnung mit dem tief verunsicherten Bruder. Nichts koennte die Tragik von Ulrichs Existenz treffender kennzeichnen als dieser Satz, der nach Frisé's Auskunft fuer das Schlusskapitel des Romans vorgesehen war.

Frage angewandt werden kann, deren metaphysische Natur nicht schon deshalb verschwindet, weil Ulrich vom Streit der Metaphysiker sich nichts verspricht. Fest steht, dass er aus seiner Utopie des exakten Lebens wie auch aus der des Essayismus keinerlei Konsequenzen zu ziehen vermag.

Seine Weigerung, in einer vorlaeufigen Wirklichkeit sich einzurichten, hat eine eigene, unpathetische Groesse. Wohin sie aber in praxi fuehrt, zeigt schon die scheinbar paradoxe Aufloesung des vergleichsweise banalen Problems einer Wohnungseinrichtung. Sie verwehrt dem Leben selbst die schlichteste Sinnerfuellung, ja sie fordert als Preis die theoretische Zuruecknahme von Welt ueberhaupt. Wer wie Ulrich das Unbedingte will und deshalb jedem Engagement fuer bedingte Zwecke und Ziele sich versagt, dem bleibt fuer seine faktische Existenz nur das Allerunverbindlichste uebrig : ein inhaltloses, weltloses Niemandleben. Der Roman weicht der Beglaubigung dieser Konsequenz nicht aus. An Ulrichs teilnahmsloser Teilnahme an den Geschaeften der Umwelt, an seinem indifferenten Verhaeltnis zu Freunden und Geliebten laesst sich ablesen, wie schattenhaft sein Dasein in der Tat ist. Festzustellen ist aber auch, dass er sich seines Dilemmas in wachsendem Masse bewusst wird. Die kleine und naerrische Taetigkeit, wie er seine Arbeit als Sekretaer der Parallelaktion nennt, vermag seine «mit jedem Tage» steigende Verzweiflung nicht zu verdecken, ja sie macht ihm den «Notstand seines Lebens» (33) erst wirklich fuehlbar. Am Ende des ersten Bandes, als er sich nach einem Gesprach mit Arnheim nachts auf dem Heimweg befindet, kommt er sich vor «wie ein durch die Galerie des Lebens irrendes Gespenst ... , das voll Bestuezung den Rahmen nicht finden kann, in den es hineinschluempfen soll» (34). So vernichtend trifft ihn das Gefuehl, im Nirgendwo zu verharren, dass ihm Moosbrugger, der geisteskranke Prostituiertenmoerder, beneidenswert erscheint wegen seiner Zwangsvorstellungen und des Glaubens an seine Rolle. Er fuehlt, «dass er nun endlich entweder fuer ein erreichbares Ziel wie jeder andere leben» oder mit den «Unmoeglichkeiten», auf die er zutreibe, «Ernst machen muesse» (35). Was mit dieser letzten Bemerkung gemeint ist, bleibt dunkel. Er hat nur die Ahnung, «dass ihm etwas nahe bevorstehe» (36).

Was ihm bevorsteht, was er voruebergehend zu erreichen scheint, ist der unter dem Blickwinkel der Wirklichkeit u n m o e g l i c h e Uebergang in einen Zustand, der im Roman als «anderer Zustand» ausgewiesen

Relativierung moeglicher Bestimmungsgruende menschlichen Verhaltens sich erschoept, die also voellig offen und das heisst letztlich : ohne Verantwortung ist.

Freilich zeigt er sich dieser Kritik nur ironisch aufgeschlossen. Denn sowenig er die Fragwuerdigkeit seiner Situation zu verschleiern bereit ist, sowenig ist er andererseits gewillt, sich im Sinne der «Altvordenweisheit» seines Vaters durch die Wahl eines beliebigen Bestimmungsgrundes selbst zu beschraenken. Er ueberlaesst dies vielmehr - aus seinem Moeglichkeitssinn die aeusserste Konsequenz ziehend - dem «Genie seiner Lieferanten» (29), gibt also die Initiative an die Umwelt ab, deren Entscheidungen nicht die seinen und deshalb fuer ihn unverbindlich sind. Es heisst im Text : «Als alles fertig war, durfte er den Kopf schuetteln und sich fragen : dies ist also das Leben, das meines werden soll ?» (30) ; und am Schluss : «Er war vom Mond zurueckgekehrt, und hatte sich sofort wieder wie am Mond eingerichtet» (31). Damit ist unmissverstaendlich ausgedrueckt, dass Ulrich sich mit der gelieferten Einrichtung nicht im geringsten identifiziert, dass er zu dem Leben, das seines werden soll, keine persoenliche Beziehung unterhaelt. Sein kleines Palais, das genauso ausgefallen ist, «wie man sich seinesgleichen denkt» (32), ist ihm so gleichgueltig wie irgendein fremdes Haus, in dem man zufaellig fuer befristete Zeit Quartier nimmt.

Im Teilproblem spiegelt sich das Ganze seiner Lebensproblematik. Wie in seinem Haus ist er auch in der Wirklichkeit ein Fremder. Die Einsicht, dass auf spekulativem Wege nicht zu finden ist, wonach er sucht, laesst ihn andere, freilich ebenso vergebliche Wege ins Auge fassen. Man hat, besonders im Hinblick auf seine Entwuerfe zu einer Utopie des exakten Lebens, von einer mathematisch-naturwissenschaftlichen Methode gesprochen, die Ulrich der Loesung seiner Aufgabe dienstbar zu machen suche. Tatsaechlich plaediert er dafuer, eben jene Exaktheit, durch die sich die Methoden der Mathematik und der Experimentalwissenschaften vor einer jahrtausendealten und im Grunde nie vom Fleck gekommenen Spekulation um die rechte Art des Menschseins auszeichnen, auch auf das Gebiet der Moral und der Leidenschaften anzuwenden, d.h. der verbindlichen Form der Existenz durch «genaues Tun und Sein» gleichsam experimentell auf die Spur zu kommen, statt sie in muessigen Gedankenspielen stets zu verfehlen. Dabei bleibt offen, wie und ob ueberhaupt ein der mathematischen oder der experimentellen Methode analoges Verfahren zur Loesung einer

Gegenwart Vorgegebene. Und folglich kann er sich nicht entschliessen, irgendeinen seiner Einfaele vor anderen Einfaelen zu bevorzugen. Mit anderen Worten : Wie er sich als Knabe gegenueber den politischen Partialgebilden seiner Zeit verhalten hatte, so verhaelt er sich jetzt, nachdem er zunaechst die radikalen Geltungsansprueche fremder Ideen abgewiesen hat, auch den Inhalten seines eigenen Denkens gegenueber, die ja ebenfalls allesamt alles fuer sich beanspruchen, ohne hierzu durch ihre faktische Beschaffenheit legitimiert zu sein. Realisierungswuerdig waere fuer ihn nur ein nicht mehr relativierbarer Einfall. Da ihm dieser versagt bleibt, ja notwendig versagt bleiben muss (denn wer oder was waere Ulrich, wenn es ihm gegeben waere, einen absoluten Stil zu kreieren ?) erschoept er sich in einem leeren Spiel mit Moeglichkeiten. Er gleicht einem Schoepfergott vor der Schoepfung, einer potentia absoluta, der es verwehrt ist, zur potentia ordinata zu werden, weil sie sich nicht in einem bestimmten Werk, in einer bestimmten Taetigkeit zu begrenzen vermag. Irritiert durch die Beliebigkeit seiner miteinander rivalisierenden Ideen, denkt er sich immer unausfuehrbarere, immer inhaltlosere Projekte aus, zum Beispiel «Drehzimmer, kaleidoskopische Einrichtungen, Umstellvorrichtungen fuer die Seele» (26).

Der Leerlauf seiner Gedankenversuche entspricht, wie es scheint, dem Treiben der die Zeitwirklichkeit des Romans beispielhaft repraesentierenden Parallelaktion, die fuer ihr vaterlaendisches Unternehmen ja auch nach einer «erloesenden» Idee sucht, ohne je zu einem befriedigenden Ergebnis zu gelangen. Der Text bestaetigt diesen Eindruck, indem er von der bekannten «Zusammenhanglosigkeit der Einfaele» und ihrer «Ausbreitung ohne Mittelpunkt» (27) spricht, wie sie fuer die Gegenwart kennzeichnend sei. Waehrend aber die Parallelakteure den Bereich der Wirklichkeit durchaus nicht transzendieren, vielmehr in ihm zu finden hoffen, was sich als absoluter Wert erweisen werde, sieht sich Ulrich auf seiner Suche nach einem «Unbedingten» folgerichtig zur Desavouierung des Gegebenen genoeetigt. Indem er die Erkenntnis, auf diese Weise nur in einen neuen Zirkel beliebig austauschbarer Ideen geraten zu sein, nicht abweist, hebt er sich weiter vorteilhaft von den Parallelakteuren ab, die fuer die Ungangbarkeit des von ihnen eingeschlagenen Weges trotz wachsendem Unbehagen blind bleiben. Ulrich gelangt an einen Punkt, wo er sich gewisser Saeetze seines Vaters (28) erinnern muss, durch die eine Haltung kritisiert wird, die wie seine eigene in permanenter

Hause zurueck, um die Spruchweisheit zu erproben, dass die Heimat die «geheimnisvolle Faehigkeit» besitze, «das Sinnen wurzelstaendig und bodenecht zu machen» (21).

Das erste praktische Problem, das in der Heimat auf ihn zukommt, ist die Einrichtung seines Hauses. Ulrich befindet sich nicht nur in der beneidenswert scheinenden Lage, sein Anwesen «vom Ei an neu herrichten zu muessen» (22), bewusstseinsmaessig verfuegt er auch ueber alle Stile aus Vergangenheit und Gegenwart, «von den Assyryern bis zum Kubismus» (23). Dabei ist er sich vollkommen darueber im klaren, dass jeder Stil einer Lebensphilosophie entspricht. Der Text weist darauf hin, indem er Forderungen moderner Einrichtungsreformer ironisch paraphrasiert, so etwa die Forderung eines bekannten Innenarchitekten, Wohnungen mit verschiebbaren Waenden zu versehen, weil «der Mensch dem Menschen zusammenlebend vertrauen lernen muesse und nicht sich separatistisch abschliessen duerfe» (24). Sofern aber Stil zugleich Lebensstil ist, impliziert die Wah! des Stils eine existenzielle Entscheidung, ist sie gleichbedeutend mit dem «Ausbau» der «Persoenlichkeit», wie der Text doppeldeutig annonciert - ganz im Sinne der Drohung «Sage mir, wie du wohnst, und ich sage dir, wer du bist» (25). Diese Drohung, scheinbar darauf gerichtet, den Einzelnen dem kollektiven Anspruch vorgegebener Stile zu entziehen und seine Eigeninitiative zu wecken, in Wahrheit aber immer in Verbindung mit bestimmten, sich allesamt absolut setzenden Stilvorschlaegen auftauchend, schwebt denn auch ueber Ulrichs Haupt. Nach reiflicher Ueberlegung fasst er den Entschluss, sich den «Ausbau seiner Persoenlichkeit» von niemandem abnehmen zu lassen, mithin seine kuenftige Einrichtung eigenhaendig zu entwerfen.

Ulrichs Verhalten in dieser Situation entspringt seinem Moeglichkeitssinn. Er ist sich natuerlich bewusst, dass alle ihn unbedingt fordernden Stile und Einrichtungsvorschlaege in gleicher Weise zufaellig sind, dass also jeder Stil durch jeden anderen ersetzt werden koennte. Indem er sich ihnen verweigert und seinen «Lebensstil» (im doppelten Sinne des Wortes) selbst zu bestimmen versucht, tut er im kleinen, gleichsam in einer Modellsituation, nichts anderes, als was er ebenso - wenn auch sehr viel ernsthafter und im Bewusstsein der ganzen Problemschwere- im grossen unternimmt : Er sucht nach einem Leben, das nicht «ebensogut anders» sein koennte. Schon hier macht er aber auch die Erfahrung, dass alles, was er selbst denkend hervorbringt, genauso zufaellig ist wie das in Vergangenheit und

der traditionellen Loesung des Theodizeeproblems zufolge auch die Welt die beste aller moeglichen Welten. Die Reaktion ist entsprechend. Wie der Text durch metaphorische Inversion ironisch markiert, wird die allgemeine Empoerung auch von Ulrichs Vater, einem echten Patrioten im Sinne der Umwelt, geteilt. Erboest «ueber die Beschaemung, die ihm sein weit vom Stamme gefallener Apfel bereitete», schickt er den Sohn in ein belgisches Erziehungsinstitut - mit dem Erfolg, dass dieser in der Fremde die «Missachtung der Ideale anderer international zu erweitern» lernt (18).

Dies also ist die erste Probe von Ulrichs Sinnesart, an deren Wuenschbarkeit der Text keinen Zweifel laesst. Schon in dieser fruehen Phase seiner Geschichte zeigt sich aber auch, wie schwer es ist, als Moeglichkeitsmensch ueberhaupt zu existieren, d. h. wie inhaltlos ein Leben zu werden droht, das sich im Wissen um die Zufaelligkeit und Vorlaeufigkeit des wirklich Vorhandenen jeder Festlegung, jeder Entscheidung versagt. Der folgende Abschnitt des Kapitels beginnt mit der retrospektiven Feststellung: «Seither waren sechzehn oder siebzehn Jahre vergangen, wie die Wolken am Himmel treiben» (19). Die ungenaue Zeitangabe ist genauso wenig zufaellig gewaehlt wie der sich anschliessende Modalsatz. Denn nur fuer einen Menschen, der sein Leben auf konkrete Ziele ausrichtet und sie handelnd einzuholen strebt, spielt Zeit, gemessen in Stunden, Tagen, Jahren, eine Rolle, und nur ihm stellen sich im Rueckb'lick die vergangenen Jahre als Stufen eines sinnerfuellten Prozesses dar. Nicht so fuer Ulrich, von dem es heisst, er sei «inzwischen da und dort gewesen» und habe «ueberall Wertvolles und Nutzloses getrieben» (20). Die vage Ortsbestimmung, vor allem aber auch die unscharfe Taetigkeitsaussage erweisen sich als notwendiges Korre'lat der ungenauen Zeitangabe, angemessen einem Leben, das sich selbst und der Welt gegenueber im Zustand der Indifferenz verharret. Die Konjunktion «und», die die Substantive «Wertvolles» und «Nutzloses» miteinander verbindet, hat nicht additive oder disjunktive Funktion. Sie unterstreicht vielmehr die Identitaet beider Phaenomene in der Erlebnisperspektive Ulrichs. Das «Wertvolle» ist fuer ihn zugleich das «Nutzlose», das «Nutzlose» zugleich das «Wertvolle». Das eine wie das andere gilt ihm gleich, hat Bedeutung nur fuer die Umwelt, nach deren Kriterien es sich konstituiert. Das Gefuehl, auf diese Weise ins Nichts zu geraten, veranlasst ihn - wenn auch nur in ironischer Attitude - zu einem Versuch. Er kehrt nach

Widerspruches von ihrer Ueberzeugung nicht zurueckzutreten bereit sind, so offenbaren sie damit, dass sie laengst zu denken aufgehoert haben. Der junge Ulrich aber ist hierzu nicht bereit. Er wird im Gegenteil durch das ihm vermittelte Widerstandserlebnis recht eigentlich zum Denken herausgefordert, und so foerdert er in seinem Aufsatz nicht das erwartete Ergebnis, ja er schreibt, «ein ernster Vaterlandsfreund» duerfe «sein Vaterland niemals das beste finden» (14).

Diese ueberraschende Auskunft involviert Ueberlegungen, die Ulrichs Respekt vor den Gesetzen der Logik bezeugen, ueber das durch sie Gebotene aber noch hinausfuehren. Denn was Ulrich abschliessend formuliert, ist ein moralisches Postulat, basierend auf der Einsicht, dass ein Mensch, der sein Vaterland das beste findet (sei es im Vergleich mit anderen Vaterlaendern oder auch nur in seiner Art), nicht die geringste Veranlassung hat, Aenderungen zu erstreben, waehrend ein kritisch eingestellter Staatsbuerger sich sehr wohl dazu bewogen fuehlen koennte. Unmissverstaendlicher formuliert: Nur er waere imstande, dem Vaterland gegenueber die gleiche Haltung einzunehmen, die der Moeglichkeitsmensch gegenueber jedem beliebigen Wirklichen, ja sogar gegenueber der Wirklichkeit als Ganzem zeigt und zeigen muss. Denn nach Ulrichs Ueberzeugung, die er im folgenden Satz ausdrueckt, spricht «wahrscheinlich auch Gott von seiner Welt am liebsten im Coniunctivus Potentialis» — also mit dem Gedanken «es koennte ebensogut anders sein» (15). Damit ist gemeint, was er spaeter auf die Formel bringen wird, «dass die Welt, wie sie ist, allenthalben eine Welt durchscheinen laesst, die sein haette koennen oder werden haette sollen; so dass alles aus ihrem Treiben Hervorgehende mit Forderungen vermischt ist, die nur in einer anderen Welt verstaendlich waeren» (16). Oder anders ausgedrueckt: «Gott meint die Welt keineswegs woertlich; sie ist ein Bild, eine Analogie, eine Redewendung, deren er sich aus irgendwelchen Gruenden bedienen muss, und natuerlich immer unzureichend; wir duerfen ihn nicht beim Wort nehmen, wir selbst muessen die Loesung herausbekommen, die er uns aufgibt» (17).

Indem schon der junge Ulrich solcherart alles Gegebene - die goettliche Schoepfung selbst nicht ausgenommen - als vorlaeufig, als Herausforderung zum Vorstoss ins Moegliche auszuweisen versucht, setzt er sich der aggressiven Kritik der Umwelt aus. Denn wie fuer sie das Vaterland das beste aller moeglichen Vaterlaender ist, so ist

Roman sind (11). Musil bemerkt u. a.: «Er (i. e. der Mensch mit Moeglichkeitssinn) will gleichsam den Wald und der andere die Baeume ; und Wald, das ist etwas schwer Ausdrueckbares, wogegen Baeume soundsoviel Festmeter bestimmter Qualitaet bedeuten» (12). Angepielt wird hier auf das Dilemma, in das Ulrich geraten muss und in der Tat geraet, da er sich weder mit den Aufgaben und Zielen, die innerhalb der Wirklichkeit fuer ihn bereitstehen, noch mit sich selbst zu identifizieren vermag ; andererseits aber auch nicht imstande ist, an deren Stelle etwas zu setzen, was seinen Einsatz rechtfertigte, vielmehr alle seine Energien in der experimentierenden Suche nach einem inhaltlich noch nicht fixierbaren Unbedingten erschoept. Die Frage stellt sich, welcher modus vivendi ihm ueberhaupt moeglich ist, wie er innerhalb der Welt, auf deren Bedingungen er doch angewiesen bleibt, sich einrichten kann.

Das folgende Kapitel beantwortet diese Frage, indem es im buchstaeblichen Sinne des Wortes von einem Einrichtungsversuch erzaehlt, der exemplarisch zugleich auf das allgemeine Problem der Lebenseinrichtung verweist. Mit einem Nachtrag beginnend resumiert das Kapitel in stark raffender Form zunaechst Ulrichs Entwicklung von der Kindheit bis zur Erzaehlgegenwart. Einleitend heisst es, «die erste Probe seiner Sinnesart» habe Ulrich «schon an der Grenze des Knaben- und Juenglingsalters» (13) abgelegt, und wir erfahren auch, um welche Sinnesart es sich handelt und durch welche Situation sie herausgefordert wird. Ulrich hat ueber ein patriotisches Thema einen Schulaufsatz zu schreiben, der nach Meinung der Umwelt, im engeren Sinne repraesentiert durch den Lehrkoerper der Bildungsanstalt, nur e i n Ergebnis zulaesst. Dieses Ergebnis lautet : Oesterreich, das in allen Kriegen immer gesiegt hat, ist die groesste, staerkste, bedeutendste Nation.

Dass dieses Ergebnis nicht richtig sein kann, enthueilt der Text, indem er in ironischer Intention feststellt, derselbe Geltungsanspruch werde von allen anderen Nationen auch erhoben. Die Geltungsansprueche aller in Bezug auf die g'leiche Sache aber schliessen sich gegenseitig aus. Wohl scheint fuer die oesterreichische Nation wie fuer jede andere Nation auch an sich noch die Moeglichkeit zu bestehen, die Ansprueche der uebrigen Nationen als Luege abzuweisen ; doch sieht sich speziell Oesterreich dem paradoxen Umstand gegenueber, dass es nach den meisten seiner vorgeblichen Siege territoriale Einbussen hinnehmen musste. Wenn die oesterreichischen Patrioten trotz dieses

Wirklichkeit» (4) nennt, d. h. einen Seinszustand, der nicht ebensogut anders sein koennte (5). Ulrich hat keine inhaltliche Vorstellung von dem erhofften Zustand, wohl aber glaubt er, dass dessen Eintreten sich im Menschen als ueberwaeltigendes Evidenzerlebnis anzeigen muesse.

Dass die Konsequenzen dieser Haltung weiter reichen, als der Leser zunaechst anzunehmen geneigt ist, deutet sich am Ende des vierten Kapitels an. Musil konstatiert lakonisch: «Und da der Besitz von Eigenschaften eine gewisse Freude an ihrer Wirklichkeit voraussetzt, erlaubt das den Ausblick darauf, wie es jemand, der auch sich selbst gegenueber keinen Wirklichkeitssinn aufbringt, unversehens widerfahren kann, dass er sich eines Tages als ein Mann ohne Eigenschaften vorkommt» (6). Tatsaechlich ist Ulrich auch sich selbst gegenueber ohne Wirklichkeitssinn. Die Eigenschaften, die er besitzt, konstituieren fuer ihn keine so und nicht anders denkbare Person, sondern erscheinen ihm als zufaellige Auswahl aus dem allgemeinen Vorrat menschlicher Eigenschaften, ueber den er virtuell verfuegt und aus dem er unter bestimmten Umstaenden auch andere sich aneignen koennte. Er hat es, wie im Roman einmal bemerkt wird, zu allen Eigenschaften «gleich nah und weit» (7), ja er verallgemeinert ueber sich selbst hinaus und stellt sich vor, «dass alle Eigenschaften, die in der Menschheit je zum Ausdruck gekommen sind, ziemlich nah beieinander in dem Geist jedes Menschen ruhen, wenn er ueberhaupt Geist hat» (8). Sich mit seinen faktischen Eigenschaften, die er kraft der Zufaelligkeit ihrer Auswahl und Organisation als «mehr zueinander als zu ihm» (9) gehoerig begreift, zu identifizieren und das heisst doch: einen beliebigen Charakter als Schicksal und Aufgabe zu bejahen, wie es die Wirklichkeitsmenschen um ihn herum tun, ist ihm schlechterdings unmoeglich (10). In derselben Weise, wie er die umgebende Welt stets unter dem Aspekt ihrer noch nicht realisierten Moeglichkeiten betrachtet, sieht er auch sich selbst als potentiellen Menschen an, vergleichbar einem noch ungeschriebenen Gedicht, das in der Niederschrift unendlich viele verschiedene Gestalten gewinnen koennte. Unter ihnen gilt es die buendige Gestalt zu finden.

Das vierte Kapitel, das von den ausserordentlichen Chancen des Moeglichkeitssinnes spricht, deutet freilich auch dessen ausserordentliche Probleme und Gefahren an. Doch sind diese Andeutungen in einer metaphorischen Sprache gehalten, sie implizieren mehr als sie explizieren, und hier mag der Grund liegen, warum die Forschung uebersehen hat, dass auch sie von grundlegender Bedeutung fuer den

ULRICH RICHTET SICH EIN

Notizen zum Kapitel «Ulrich» in Robert Musils «Der Mann ohne Eigenschaften»

WOLFRAM BUDDECKE

Im vierten Kapitel des ersten Teils seines chef d'oeuvre reflektiert Musil ueber Wirklichkeitssinn und Moeglichkeitssinn. Er bestreitet nicht, dass Wirklichkeitssinn - verstanden als die Bereitschaft, Tatsachen zu respektieren - Daseinsberechtigung habe. Aber sein vorrangiges Interesse gehoert dem Moeglichkeitssinn, den er als Faehigkeit ausweist, «das, was ist, nicht wichtiger zu nehmen als das, was nicht ist» und das, was sein koennte, sollte oder muesste, zu denken (1). Schoepferisch nennt er diese Faehigkeit, sofern sie nicht in ihrer schwachen Spielart auftritt, naemlich als Ausdruck des Unvermoegens, die Wirklichkeit zu begreifen oder zu bestehen, sondern als Bauwille und bewusster Utopismus, der «die noch nicht erwachten Absichten Gottes» (2) zu erkunden versucht.

Dass diese Bemerkungen von grundlegender Bedeutung fuer den Roman sind, ist von der Forschung erkannt und wiederholt betont worden (3). Ulrich, die zentrale Figur des Romans, deren Perspektive sich weitgehend mit der des Erzaehlers deckt, besitzt Moeglichkeitssinn in jener starken Spielart, von der Musil spricht. Keine politische, moralische oder religioese Ordnung, keine Lebensform oder Lebenslehre erweist sich seinem kritischen Verstand als notwendig in ihrem Sosein oder unwiderlegbar in ihrer Geltung. Die daraus folgende reservatio mentalis, die ihn als Ironiker in einem grundsatzlichen weltanschaulichen Sinne ausweist und dem Werkstil seine einheitliche ironische Praegung gibt, findet ihr positives Korrelat in dem Willen, den scheinbar festen Horizont der Wirklichkeit auf andere, noch nicht entdeckte, noch nicht erweckte Moeglichkeiten hin zu oeffnen, um auf diesem Wege zu erschliessen, was der Roman einmal die «wirkliche

CONTENTS

OF THE EUROPEAN SECTION

	PAGE
WOLFRAM BUDDECKE	
Ulrich Richtet Sich Ein	1
RENÉ KHOURY	
Portraits de Musiciens de Romain Rolland	13

**The Bulletin of the Faculty of Arts is issued twice a year ;
in May and December. All requests for copies should be
addressed to Cairo University Library, Giza. Communi-
cations regarding contributions should be addressed to the
Dean of the Faculty of Arts,
Giza, U. A. R.**

**Back numbers of this Bulletin are available
at 30 P. T. for each Part**

*** This volume is published in one issue covering
the whole year.**

BULLETIN
OF
THE FACULTY OF ARTS



VOL. XXVII—Parts 1 & 2
May & December 1965

**THE PUBLIC ORGANISATION FOR BOOKS
AND SCIENTIFIC APPLIANCES
CAIRO UNIVERSITY PRESS
1965**



BULLETIN
OF
THE FACULTY OF ARTS



VOL. XXVII—Parts 1 & 2
May & December 1965

**THE PUBLIC ORGANISATION FOR BOOKS
AND SCIENTIFIC APPLIANCES
CAIRO UNIVERSITY PRESS**

1969



Bibliotheca Alexandrina



0531337